رواية

د. نرمين نحمد اللّه

ضيّ يونس

لا تلومي الظلام

الطبعة 3

دار دوّن

نرمين نحمد الله

ضي يونس

رواية

دوِّنْ
د
للنّشرْ والتّوزيعْ

إهــــداء

إلى رجل يساوي كل العالم.

إلى رجلٍ دللني كابنته

وتعلق بي كأمه

واحترمني كمعلمته

وأحبني كامرأته.

إلى رجلٍ يستحق أن يقال عليه «رجل»!

إهـــــداء

إلى جناحيّ اللذيْن طالما حلقتُ بهما فلم يخذلاني يومًا؛

نرمين شمس الدين

فاطمة حمص

دُمْنا صُحبةً دُنيا وجَنّة.

في كل مرة كنت ألعن ظلماتي «الثلاث»، كانت اللعنة تصطدم بحرف من حروف اسمك، تتضافر مع خصلات شعرك، تتعثر بلمعة حدقتيكِ، وتذوب على ضفتي شفتيكِ.

تموت هي وتبقين أنتِ!

فلا ظلمة تحلّ ليونس وأنتِ قمره وشمسه.

أجل، كنتِ وستبقين.. ضيّ يونس!

«يونس»

مادمتَ عبدًا لظلامك

ولازلتُ ملكة النور

فكيف عسانا نلتقي سوى في خداع الظلال؟!

«ضيّ»

ذكريات الليلة العصيبة تشعل المزيد من النيران في مثلث ظلماتي، نظراتي تصطدم بـ«بقعتي البيضاء» - التي ترك فيها جرح ضيّ ندبة خفيفة لا تميزها سوى عيني- فتبدو لي كقنديل بحر بمجسّ واحد، «هيولان»! أحتاجكم الآن بأكثر من أي وقت مضى!

ابتسامتي الساخرة تصفع إدراكي، لكنني أشهق بعنف وأنا أميز هذه الشاحنة الضخمة أمامي، أحاول تجاوزها لكنني لا أستطيع، صوت اصطدام مدوٍّ ثم ظلام.. ظلام.. ظلام!

نفق طويل يمتد أمامي لألمح النور في آخره،

أصل لمنتهاه أخيرًا وأنا أحاول فهم ما حدث،

أين سيارتي؟! بل أين أنا؟!

عالمٌ أزرق صافٍ ينساب حولي كأنني سقطتُ فجأة في البحر.

أحاول تحريك قدميّ لكنهما محجرتان!

يداي كذلك خرجتا عن قيود سيطرتي لتبدوا لي وكأنهما مكبلتان بقيد غير مرئي.

أدور ببصري حولي فأنتبه - لتوي- لسجني الذي بدا لي هرميّ الشكل بواجهاته المثلثة شبه الزجاجية التي تتيح لي رؤية ما حولي.

هل هو كابوس جديد؟! لا! أنا لا أشعر بالخوف، على

العكس، الجو حولي يمنحني سكينة غريبة تشبه شعوري في حضن ضيّ، حتى الرائحة حولي تشبه رائحتها، تراها مثلي سجينة هنا؟!

أهتف باسمها لكن صوتي لا يغادر حلقي، بل يرتد كسهمٍ يؤلم معدتي، يحذرني من تكرارها! أتلفت حولي لتتسع عيناي بصدمة وأنا أميّز هذا «الكيان» الذي يقترب نحوي.

«هيولان»! أنتم حقًا هنا!!

***

ONE PIECE
BOOKS

(الظلمة الأولى)

جاي من بلادي البعيدة، لا زاد ولا مَيّة

* * *

يونس

* * *

- دكتور يونس، نريد التواصل معك بشأن أبحاثك الجديدة، التعاون سيكون مثمرًا لكلينا.

أمط شفتيّ باستياء وأنا أقرأ أولى الرسائل المتروكة على بريدي الإليكتروني صباحًا.

لا يملّون من تكرار عروضهم السخيفة، لا يعلمون أنني أبرمت العقد - الأمثل - الذي لا يخيب!

البيضة الذهبية، بل الدجاجة نفسها!

لا أحب الشعور ببدايات الصباح، ومثل هؤلاء الأغبياء يزيدون الأمر سوءًا.

- يونس.. أرجوك اتصل بي، افتقدتك منذ آخر ليلة بيننا، لماذا هجرتني بهذه الطريقة؟! لقد ذهبت إلى كل مكان يمكنني رؤيتك فيه ولم أجدك، لم يبقَ لي إلا أن آتيك في الجامعة، أخشى أنني سأفعلها من فرط شوقي إليك!

أكزّ على أسناني بغضب وأنا أقرأ رسالتها الصوتية التي

تركتها على هاتفي.

متى ستفهم هذه موقعها من حياتي؟! هي مجرد لقمة مضغتها ثم ألقيتها دون حتى أن أبتلعها، مثل هؤلاء لا يليق بهن سوى هذه المعاملة.

ربما لهذا أسرعت بترك رسالتي الصوتية إليها بأقسى نبرة أمتلكها:

– افعليها واخطي خطوة واحدة داخل مبنى الجامعة وسأجعلكِ تندمين على يوم مولدك، ما بيننا انتهى في تلك الليلة، احفظي لسانك وإلا أجبرتكِ أن تبتلعيه للأبد!

مريضٌ أنا بهؤلاء الساقطات! يشتهيهن عقلي وينبذهن جسدي.

قلبي؟! قلب يونس مفقودٌ منذ زمن، ضاع في «مثلث ظلماته»!!

حدثوني منذ صغري عن تشابه اسمي بنبي الله الذي التقمه الحوت وسط ظلمات ثلاث؛ الليل والبحر وبطن الحوت.

وكبرت لأدرك أنني غارقٌ في ثلاث ظلمات كذلك.

ثلاث ظلمات ابتلعت نور عالمي كله؛

الدين، الوطن، الحب!

زفرة ساخطة تغادر صدري بعدها، لكنها لم تساوِ شيئًا أمام هذه الرجفة التي انتابتني مع الاسم الذي تركه لي «دياب» في رسالة قصيرة عالمًا أنه وحده كفيل بجعلي أتصل به فورًا.

«نجيّة»!!

- رفَضَتْ استلام المال هذا الشهر حتى تعلم أين أنت ولماذا لا تزورها.

ارتجاف صوته بهذه الكلمات يعني أنه لا يزال يُخفي المزيد، هو صديقي الوحيد الذي ارتضته قيود ظلماتي، ربما لأن غربة واحدة جمعتنا في إيطاليا التي قضيت فيها آخر سنوات من عمري في مختبر بحوث شهير هناك، لا، دياب ليس عالم بحار مثلي، هو مجرد ضحية لهجرة غير شرعية قذفت به لتلك البلاد البعيدة ليجد نفسه هناك كما كان هنا؛ مجرد نفاية تركلها أقدام الأثرياء، الأثرياء الذين صرت أنا منهم بعدما بعت روحي لـ«الشيطان» كما يزعمون، لكنني لسببٍ ما وجدت في دياب توأم مأساتي، ربما لهذا تشابكت خطواتنا هناك، وحتى بعد عودتي الاستثنائية - المؤقتة- هنا للعمل في الجامعة عاد هو معي، لا أدري هل كانت حاجته هو لي، أم حاجتي أنا له كي يعينني بخبرته في - عالم الظلام- كي أنفذ انتقامي الذي عزمت عليه والذي لأجله عدت، دياب ليس مجرد صديق - خاصة لرجل صار يكفر بالمشاعر مثلي- بل هو «رفيق الظلام» الذي تلفّنا عباءته معًا دون أسرار، لهذا كان لغضبي ما يبرره:

- انطق يا دياب! ماذا قالت بالضبط؟!

صمتٌ ثقيل يسبق كلماته - التي نقلها عنها- وقد سقطت

على قلبي كمطرقة:

- قلب أمك غضبان عليك، بحق دمي ودم أبيكِ الذي يجري في عروقك ارجع لدارك.

أرجع لداري؟! كأن الأمر حقًا بهذه السهولة!

قدماي تسيران دون وعي لخزانتي السرية هذه التي أخفيها خلف لوحة قديمة.

عادة ما تكون خزانتي هذه هي وجهتي، لكن الآن هذه اللوحة هي ما تعنيني، لوحة زيتية قديمة عمرها يزيد عن العشرين عامًا دفع ثمنها أبي يومها بـ... كرامته.

وقتها كان قد اصطحبني من قريتنا في الصعيد للعاصمة التي بهرتني أضواؤها، جاء يبحث عن عمل يساعده في سد مصاريفنا، فأرشده أحدهم للعمل كـ«بوّاب» في فيللا أحد الأثرياء، الرجل كان يهوى الرسم، كذلك كنت أنا، كنت أتلصص ليلاً لمراقبته وهو يعمل، تلك الليلة لم أستطع مقاومة فضولي وأنا أنتظره لينصرف ثم أدخل المرسم لأراقب اللوحة عن كثب، خلفيتها سوداء قاتمة تجثم على صورة لرجلين أحدهما عظيم الهيئة يمسك سوطًا يهوي به على ظهر الآخر الذي بدا مستضعفًا، ساعتها وقفت أرقبها برهبة وقد مددت أناملي نحوها، وفجأة ينبعث صوت «البيه» هادرًا باسمي من خلفي، فيلطخ إبهامي اللوحة التي كانت ألوانها لا تزال طازجة!

- ربِّ ابنك يا جابر، اللوحة هذه ثمنها يعادل راتبك لعام على الأقل!

كلماته توازي صفعة قوية نالها وجه جابر الذي دفعني بعيدًا عن بطش سيده وهاتفًا باستعطاف أنني لا أزال صغيرًا، لكن السيد الغاضب ينزع عنه حزام سرواله ليهوي به فوق ظهر أبي، فأسمع صوت صرخاته، بينما يطرده الرجل هاتفًا بصوته الكريه:

- اخرجوا جميعًا من بيتي، وخذ معك هذه التي أفسدها «بغلك» الصغير.

يقذفنا باللوحة التي تلطخت ألوانها فأضمها لصدري دون وعي، نقضي ليلتها في «عشة» صغيرة يسكنها أحد معارف أبي، هذه التي جلست أمامها أبكي، لكن جابر يلحق بي ليهتف بلهجته الصعيدية الثقيلة:

- الرجال لا تبكي، الحِمل بقدر الكتف يا «وِلد جابر»، وكتف أبيك حمّال.

كانت المرة الأولى التي ألمح فيها ابتسامته تمتزج بدموع القهر هذه في عينيه، لقد أخفى عن أمي أن الرجل قد ضرب ظهره، لكنني رأيت!

- انظر يا يونس ماذا صنع إبهامك باللوحة! بصمتك لطخت السوْط، محته تمامًا، تبدو كبقعة نور وسط الظلمة خلفها، بشرى خير يا «ابن بطني»، فليجعلك الله في قلب العتمة الضيّ!

أبتسم ساخرًا وأنا أذكر كلمات «نجية»هذه وقتها، لم تكن بشرى خير يا طيبة، بل نبوءة شر.

بصمتي لم تكن سوى انجذابي اللامرئي لعالم الظلمات الذي اجتذبتني دوامته.

- يونس!

هتاف دياب القلق ينتزعني من شرود ذكرياتي، فأتنهد بحرقة لأرد:

- أخبرها أني متّ!

- ستعلم أني أكذب! وسترفض المال أيضًا، لماذا لا تزورها؟! المسكينة ليس لها سواك بعد وفاة والدك و...

- دياب! تعلم أنني لن أفعلها.

أقاطع بها عبارته وأنا أغلق الاتصال بعنف، لن أسمح للماضي أن يتسرب عبر شقوق جداري من جديد، عالم «نجية» الآن هو أبعد ما يكون عن عالمي.

انسَ يا يونس.. انسَ!

أطوي بها صفحات ذكرياتي بحزم وأنا أتوجه نحو مرآتي كي أرتدي ملابسي، اليوم هو أول أيام الفصل الدراسي الثاني، نظيره الفصل الدراسي الأول كان مملاً خاصة لرجل مثلي عاد لتوه لبلد يكرهه بكل ما فيه، لكنها - هي- أكسبته المزيد من الإثارة! هي!

كان يمكن أن تكون إحدى طالباتي فحسب، لكنني أظلمها كثيرًا بهذا الوصف، فليست منّي مجرد طالبة ولست منها مجرد أستاذ.

الغريب أنني لم أحدثها يومًا خارج قاعة المحاضرات، لكن لا تفوتني نظراتها المتولهة نحوي.

سمراء شهية لها هذه الغمازة اليتيمة التي تبدو كغمسة إصبع طفل في كعكة شيكولاتة، لها هاتان العينان الزرقاوان كلُجّة بحر صافية لم تعرف الكدر يومًا، لها هذا الثغر الذي يبدو كبوابة فردوس تنفرج بلا وعي كلما التقت عينانا.

ولها هذا الاسم الذي يثير سخريتي أنا بالذات كلما تذكرته، كأنما يذكرني أي تناقض هناك بيننا!

«ضيّ»!

مالي و«الضيّ»؟!

أنا يونس سيد الظلام!

أفكاري تتشتت وأنا أنهي ارتداء ملابسي، سروالي الأسود، قميصي بنفس اللون، والذي أصرّ أن أغلق آخر أزراره كي أداري «ندبتي هلالية الشكل».

لن ينتبه إليها أحدهم، لكن كفاني أنني أنا أفعل!

أرتدي رابطة عنقي الرمادية وأمشط شعري الخشن.

أتأمل ملامحي للمرة الأخيرة، فلا تبدو لي شديدة الوسامة ولا شديدة القبح، وسامة شرسة كما وصفتها إحداهن يومًا ووجدتها على حق.

«شبه ابتسامة» ترتسم على شفتي وأنا أرتدي ساعتي لأخفي «البقعة البيضاء» على معصمي.

هل تتخذ صورة «قنديل بحر»؟! أم أنني صرت مهووسًا حقًا بأبحاثي؟!

***

* ضيّ *

***

- أسرعي، أنا أحضرت الفطور.

صوت العمة «يافا» هو أفضل ما يمكن أن أبدأ به يومي صباحًا، خاصةً بلهجته الفلسطينية هذه التي تذكرني بأبي الراحل.

أقبّل معصمي حيث تستقر ساعته التي أرتديها منذ وفاته فلا أخلعها أبدًا، ثم أرفع صوتي لأجيبها:

- «تكرمي» يا عمتي، حالاً.

أنظر لمرآتي فتعانقني ملامحي التي ازدادت جمالاً؛ فقط لأنني اليوم سأراه، بعد أيام الإجازة التي مرت كدهر، اليوم سألقاه؛ يونس.

أبتسم وأنا أفتح هذه الدلاية المعلقة في عنقي لتبرز صورة أبي، كم يشبهه حد التطابق، لا أصدق إلى الآن كيف يمكن أن يتشابه الاثنان هكذا، ربما لهذا عشقته منذ أول لحظة تعثرت به نظراتي.

تنهيدة حالمة تغادر صدري وأنا ألفّ وشاحي حول رأسي، أتُراه ينتبه لي؟! أم أنني فقط في عينيه واحدة من طالباته؟!

ليتك تفعل يا يونس!

الزميلات يتندرن على عبقريتك، طبعك الغريب، قسوتك الجامدة، ملامحك قليلة الوسامة شديدة الجاذبية بعينيك السوداوين الواسعتين كليلٍ بلا قمر، شعرك المجعد الخشن، ونظارتك الطبية بلا إطار تضفي المزيد من الرهبة على وجهك الذي يبدو كصندوق من الأسرار، شرودك الذي يهزمك أحيانًا في وقت المحاضرة، أناقتك المبالغ فيها بهذه «الماركات الشهيرة» التي تصر على ارتدائها، طبيعتك غير الاجتماعية حتى مع زملائك، وأخيرًا، عزوفك عن الزواج رغم تخطيك الخامسة والثلاثين.

لكنني أعشق كل هذا فيك، وبالذات الأخيرة هذه.

ضحكة خجول تحمرّ لها وجنتاي، تمتزج بصوت العمة يافا من الخارج:

- هيا يا «غندورة»، «المناقيش» كادت تبرد.

هكذا يجب أن يكون فطورنا يوميًا بهذه اللمسة الفلسطينية التي تقدسها عمتي حتى بعد استقرارنا في مصر - وطن أمي - الذي عدنا إليه بعد وفاة والدي إثر غارة يهودية على غزة.

تمامًا كما تصرّ ألا نرتدي في البيت سوى «الثوب الفلسطيني» بشكله المعروف والذي تطرزه هي يدويًا بنفسها.

كأنها تخشى أن ننسى، وهل يمكن أن ننسى؟!

أخرج إليها لتشرق ملامحها وهي تتبين أناقتي البسيطة فينساب لسانها بدعواتها الطيبة لي.

- فاتنة! كعرائس الحكايات.

أحتاج إطراءها هذا اليوم بالذات كي يمنحني المزيد من

الثقة في مواجهته، الثقة التي تتبخر تمامًا عندما أدرك ضعف فرصي أمامه، ربما أكون جميلة حقًا كما تقول عمتي، لكن هل يفتقر عالمه للجميلات؟!

- كلي جيدًا حتى تكملي يومك دون تعب، لا تسكّع خارج أسوار الجامعة، لا طعام من الخارج، لا حديث مع زملائك من الشباب، «عسكري حرب»! أريدك واحدًا من عساكر الحرب هناك.

كلماتها التي تمزج صرامتها بحنانها والتي اعتدتها بحكم عشرتنا الطويلة لا تثير تحفظي بقدر ما تثير شفقتي نحوها، هي تخاف عليّ حقًا، فليس لها في الحياة سواي أنا و«نضال» ابنها المتزوج المقيم في غزة، حاولت كثيرًا إقناعه بالقدوم إلى هنا، وحاول هو أكثر إقناعنا بالعودة إلى هناك، لكنني لا أقوى على العودة إلى هناك حيث ذكرياتي القاسية، ربما لهذا تفهمت عمتي وطاوعتني في البقاء هنا حيث وطن أمي التي توفيت منذ سنوات قليلة.

- خذي مصروفك.

أمدّ لها أناملي على استحياء كي آخذه منها، أعلم أن مصاريف دراستي عبءٌ عليها، وأنها لجأت لحياكة الملابس لبعض نساء الحي كي توفر لنا المزيد من المال، عرضت عليها العمل بأي مهنة جانبية لكنها رفضت بشدة، طالما يُهيّأ إليها أنني فريسة مطارَدة وأن هذا العالم كله ليس سوى صياد كبير.

أقبّل جبينها بتقدير فتدمع عيناها كعهدها كلما فعلتها، أعلم أن قلبها مقسّمٌ بالتساوي بيني وبين نضال، وأنها لا تشتهي في هذه الحياة سوى أن تطمئن علينا معًا ويجمعنا وطن واحد، لكن

كيف نفعل؟! أنا زهدت الأرض التي مات فيها أبي غدرًا ونضال لا يريد سوى العيش فيها، وبيننا هي حائرة.

- أكملي طعامك.

- تأخرت يا عمتي، المحاضرة الأولى لدكتور يونس وهو لا يسامح في التأخير.

هل التمعت عيناها فاضحة شكها في لهفتي للمغادرة؟ أم أنني «كالمريب يكاد يقول خذوني»؟!

ابتسامتها الخائفة تودعني فأردها لها بأخرى مطمئنة مع قبلة على وجنتها الناعمة المشدودة رغم تقدم سنها، أهبط الدرج ركضًا متشبثة بحقيبتي وكشكولي.

- يونس! كم افتقدتك!

الابتسامة الحمقاء تطوف حول شفتي وأنا أسير في طرقات حارتنا الضيقة، ذكرياتي القليلة معه تدور في رأسي تباعًا كشريط قصير يعاد عرضه، ثلاث مرات بالضبط التقت فيها عيوننا بأكثر من لمحة عابرة لأشعر فيها أنه يميزني حقًا، فلا تمرّ بي نظراته إلا وقد تلكأت فوق ملامحي كأنها ترسمها.

هل تراني جميلة يا يونس؟! تراك لم تتزوج حتى الآن لأنك تبحث عن مثلي؟! ماذا ستفعل لو أريتك صورة أبي لتدرك لماذا عشقتك من أول نظرة؟!

يبتلعني المزيد من الشرود المبتسم وأنا أتخيل حديثًا يدور بيننا، صوته الذي عشقته يخصني أخيرًا وحدي، عيناه العميقتان ترسو سفنهما فوق شواطئي، وابتسامته التي لم ألمحها يومًا تولد

كطفل بريء يحتضنه مهد عينيّ.

عاشقتك أنا يا يونس، بل مهووستك!!

- ضي!

الصوت «الكريه» يستوقفني فأشهق وأنا أتوقف مكاني لأرفع عيني نحوه فأصطدم بملامحه التي يتصارع حولها ألف شيطان، ابتسامته اللزجة توازي خطوة تقدمها هو وتأخرتها أنا، ليهمس بما بدا لي كالفحيح:

- اشتقتكِ يا بنت خالتي!

يمد يده بما بدا كمصافحة، لكنني كنت أعلم ما خلفها وما يثيره بداخلي من غثيان، لهذا نفضت كفي عنه بسرعة لأغمغم بتلعثم:

- صباح الخير يا «خطاب»، أنا متعجلة لأجل محاضراتي، عمتي يافا بالبيت لو أردت المرور عليها.

ضحكته الساخرة المكتومة تثير المزيد من غثياني، لكنني أتجاوزه بسرعة لألقي نفسي في أول حافلة أجدها، أراه عبر زجاج نافذتها يرمقني بنظراته المخيفة، ياللمفارقة!

هذا البغيض هو كل ما بقي لي من رائحة أمي!

عمتي يافا لا تحبه، أهل الحارة لا يحبونه، كل عاقل يملك ذرة شعور لا يحبه، كتلة من كل ما يمكنك أن تبغضه في البشر.

صفاقته، وقاحته، ملامحه الشرسة، بذاءته،

عمل؟!

خطاب لا يعمل، إلا لو كانوا يعترفون بـ«البلطجة» كمهنة رسمية هذه الأيام،تبًا لك يا خطاب!

أفسدت اليوم بظهورك البغيض مثلك!

لا.. لا.. لا يفسد اليوم ويونس فيه.

نفَسٌ عميق أسمح له بغسيل صدري، عشرون دقيقة تفصلني عن السعادة، فليذهب ما دون ذلك للجحيم إذًا.

الابتسامة الملونة بحروف اسمه تعاود اجتياح شفتيّ، الحافلة تصل أخيرًا للموقف القريب من مبنى الجامعة، أترجل منها لأعدل ملابسي وحجابي، حقيبتي تسقط، أنحني لألتقطها فتلتقط أذني صوت صرير عنيف لسيارة.

الخوف يشلني مكاني مع تفصد جبيني بالعرق، أنفاسي تختنق داخل صدري بهذه الحالة التي تلازمني منذ صغري عندما كنت أسمع صوت القصف حولنا.

- أنتِ بخير؟!

دموعي تسيل دون وعي، ولا زلت عاجزة عن التقاط أنفاسي خاصة مع جنون خفقاتي، لكن الصوت الحبيب يجعلني أرفع عينيّ لصاحب السيارة الذي ترجل منها لتوه، فتتمتم شفتاي دون صوت تقريبًا:

- يونس!

ONE PIECE BOOKS

(الظلمة الثانية)

وغربتي صاحبتي.. بتحوم حواليا

***

* يونس *

***

- حاجباكِ مصبوغان!

لم أكن ممن يمتلكون مهارة جذب الجنس الناعم، ولولا انجذاب بعضهن إليّ لأجل ثرائي - المستحدث- ومركزي المرموق لما حظيت بتلك العلاقات التافهة - غير الكاملة- ربما لهذا كانت كلماتي الأولى هذه - بعدما اختليت بها في مكتبي بالجامعة- ضربًا من الغباء أو الفظاظة، أو كليهما معًا.

حقًا لم أستطع منع نفسي من التعليق على لون حاجبيها الفاتح، ماذا يكون لون شعرها إذًا؟!

تبًّا! خيالاتي بها ستقتلني!

لكنها بدت شديدة التسامح مع فظاظتي هذه، فقد أشرقت ملامحها لتجيبني ببراءة لا أظنها تتصنعها:

- أبدًا، كثيرون يعتقدون هذا، كما يعتقدون أنني أضع عدسات لاصقة؛ لأن عينيّ لا تلائمان سمرة ملامحي، ورثت الأولى من أمي والثانية من أبي.

أرقبها جالسةً أمامي ببعض الدهشة وأنا أرى وجنتيها تحمرّان بقوة، تبًا! ألا تعلم هذه ما تفعله حمرة الخجل بالسمراوات؟!

خلاياي تنتفض بأثر لم أعرفه لامرأة قبلها، خاصةً بهذا المزيج النادر من تلعثم الخجل وتمكّن الثقة.

امرأة؟! هل يجوز وصفها بهذا؟!

عيناي الماكرتان تحاولان سبر أغوار أنوثتها، لكنها تعود خائبة أمام حجابها الساتر، ولاتزال تردف بنفس المزيج من العفوية والخجل، بينما تطرق بوجهها وتشبك أناملها:

- أنا نصف مصرية، أب فلسطيني وأم مصرية.

ابتسامة ساخرة ترتسم على شفتيّ وأنا أتبين رنة الفخر في صوتها وهي تتحدث، ربما لهذا تخليتُ عن حذري وعفويتها تنتقل إليّ:

- تبدين فخورةً جدًا بهذا.

هنا ترفع لجّتيها الزرقاوين نحوي فأتبين هذا الصفاء النادر فيهما، لترجح كفة الثقة في نبرة صوتها أكثر مع هذا الإيمان:

- لو لم يكن الفخر بهذا فبمَ إذًا؟! فلسطين أرض العزة، ومصر أم الدنيا، وأنا ابنتهما معًا.

أتحكم في ابتسامتي الساخرة فأبتلعها تمامًا وأنا أتجاوز الأمر لأسألها:

- كيف تعيشين هنا؟!

لم تتردد كثيرًا وهي تحكي لي كأنما هو فيض النهر الذي انزاح عنه السد فجأة، تدمع عيناها وهي تروي لي عن عيشها هنا مع عمتها، عن يتمها الكامل بعد وفاة أمها وأبيها قبلها، عن طفولتها التي قضتها معه في غزة حيث لا تزال تذكر تفاصيل جمالها، عن صفات الرجل التي تقارب أبطال القصص، عن استشهاده – كما تزعم– تحت قصف اليهود، وعن عهده الذي صدقه مع الله فصدقه الله عهده.

هذه المرة لم أستطع طمس ابتسامتي الساخرة التي تلونت بمرارتها، واحدة أخرى من الحمقى الذين لا يزالون يؤمنون بهذا الهراء.

لكن ابتسامتي تتجمد مرة أخرى وأنا أراها تتلمس سلسلتها لتفتح دلايتها المغلقة فتبدو لي صورة الرجل.

تبًا! لهذا كانت تطيل النظر نحوي حتى ظننتها مخبولة! لولا ثقتي أنها ليست صورتي لظننته أنا!

– يشبهك كثيرًا.

همسها يتلعثم من جديد بهذا الخجل، فتلتقي عينانا للحظة واحدة، لجتّاها الصافيتان تشعلان بداخلي النار، وربما النور.

النور! عدوك يا يونس!

– طريق الله يا يونس، عرفت فالزم.

– «البلد» في حاجة لك يا يونس! مصر التي يريد «أولاد ال...» حرقها!

- أحبك يا يونس! سأعيش وأموت عليها!

«الومضات» السابقة من تاريخي تجتاحني خاطفة، بل مكتسحة! الأولى بصوت الشيخ غريب، الثانية بصوت مجدي، والثالثة بصوت «قمر».

ومضاتٌ تستبيح ظلماتي بنيران لم أعد أحيا سوى لإطفائها، فليعِش ظلام يونس دون نار ولا نور.

- لو صرتِ الآن بخير.. اخرجي!

تبدو فظاظتي وكأنما أحرجتها هذه المرة، فتعود أنفاسها للتلاحق مذكّرةً إياي بحالتها منذ قليل عندما كدت أصدمها بسيارتي، لم أصدق وقتها أن يدبّر لنا القدر لقاءً كهذا يخترق حاجز الصمت بيننا، القدر! هل عدت تؤمن بالقدر يا يونس؟!

أهز رأسي نفيًا في إجابة لخاطري الأخير وأنا أراها تقف مكانها، تغلق دلاية سلسلتها على صورتها بأنامل مرتجفة فضحت عاطفتها، وكأنما تنقصها حركة كهذه.

- شكرًا.

تتمتم بها دون صوت تقريبًا، تمامًا كما فعلت باسمي منذ قليل عندما توجهت إليها بعد حادث السيارة، فلا يختلف تأثير الثانية عن الأولى، كلاهما مهلِك.

ربما لهذا وقفت دون وعي أطارد ملامحها عبر هذا القرب، وجهها كان خاليًا تمامًا من مساحيق التجميل، لكنني كدت

أقسم في هذه اللحظة أنها أجمل امرأة رأيتها في حياتي، ربما أجمل من «قمر».

تبًا! هل عدت أذكرها؟! بل هل نسيتها حقًا؟! هذه الفتاة خطيرة جدًا تشعل ثوراتي التي قمعتها منذ زمن.

- اخرجي!

لا أدري هل ارتفع بها صوتي حقًا أم أنها قرأتها في نظراتي النافرة، لكنها ابتسمت رغم هذا لتغمغم بنبرتها المتأرجحة بين خجل وثقة:

- اسمي ضيّ!

كأنني لا أعرفه! كأنه لا يلسعني بما يشبه السياط!

- فخورة جدًا بأن عبقريًا مثلك يدرّس لي، كفخري بوطنيّ معًا.

الابتسامة الساخرة إياها تتصارع مع النظرة الغاضبة في عيني وأنا أراها تعطيني ظهرها لتغادر، تُرى هل ستبقى على فخرها - المزعوم- هذا لو علمت...؟!

فلتبقَ مخدوعة، الوهم أرحم بنا من الحقيقة أحيانًا.

ولأبقَ أنا مختبئًا في مثلث ظلماتي.

لا تعودي هنا، لا تنظري إليّ بعينيك هاتين بعد الآن أبدًا، أخفي دلاية سلسلتك هذه بصورتها التي تشبهني والتي تتأرجح قرب قلبك ببطء مغيظ، اغربي.. أعتمي..

خواطري الثائرة تكاد تحرق حناياي، لكنني - وللعجب- وجدت لساني يترجمها قسرًا للعكس:

- لو صعب عليك فهم أي شيء، عودي.

ابتسامتها تمنحني أفضل جزاء على عصيان جوارحي - غير المسبوق هذا- فترتجف شفتاي بـ«شبه ابتسامة».

يغلَق الباب فيخفيها خلفه وتبقى كلمتي معلقةً بيننا: «عودي».

* * *

* ضيّ *

❊ ❊ ❊

- ما بالكِ مترددة هكذا؟! اطرقي الباب، هل سيأكلك؟!

تقولها حبيبة - صديقتي- بصوت خفيض وهي تقف جواري أمام باب غرفة مكتبه المغلقة، فأرمقها بنظرة مترددة خجلى، شهر بأكمله مرّ منذ بداية العام الدراسي حيث تحدثنا معًا لأول مرة.

شهرٌ لم أزدد له فيه سوى عشقًا، بينما بدا هو وكأنه يتباعد، يتحاشى النظر نحوي تمامًا، وحتى عندما تجرأت للوقوف وسؤاله في محاضرته أجابني بعملية دون أن ينظر نحوي، لست ساذجة لأدرك أنه يتهرب مني، لكن لماذا يفعل؟! هل أخفقت في اختبار المقابلة الأولى؟!

- أسرعي يا فتاة! وقفتنا هكذا تثير الشبهات، اسمعي نصيحتي، هكذا يتم اصطياد الرجال، صحيحٌ أن يونس هذا ليس الصيد الثمين الذي قد ترتجيه فاتنة مثلك، لكن لا بأس به ما دمتِ مغرمة به هكذا.

تقولها بسرعة تجعل كلماتها غير مفهومة تقريبًا، خاصة مع ارتباكي الذي ابتلع تركيزي، لكنني ابتعدت خطوة عن الباب وقد برزت صورة «يافا» أمامي لأقول لها ببعض الحسم:

- غيرت رأيي، لا أريد.

- سأطرقه أنا.

تهمّ بطرق الباب بنفسها فأنجح في منعها بسرعة، لكن الباب يُفتح فجأة ليطل هو من خلفه.

تتلاحق أنفاسي للمفاجأة، بينما تهرب الجبانة وتتركني وحدي أمامه، أصطدم بحاجبيه المنعقدين، عينيه اللتين تبدوان وكأنهما تنتقمان لكل هذه المرات التي أشاح بهما عني فتلتصق نظراتها بي مأسورةً وآسرة، يالله! كيف يمكن هكذا أن تكون النظرة بألف عناق؟!

أبتعد خطوة أخرى وصورة يافا تحول بيننا تلومني على أفكاري، أناملي تقبض على دلاية سلسلتي بقوة وأنا أطرق برأسي في مزيج من الذنب والخجل.

- ماذا تريدين؟!

صوته الفظ يمتزج برضا خفي أم أنني فقط أتوهم؟!

ماذا أقول؟!

- أهناك ما لا تفهمينه؟!

هل تلاعبت نبرته ببعض السخرية أم أنني كذلك أتوهم؟!

أومئ برأسي دون وعي بما يبدو كالجواب، كذبة ساذجة لكنه صدقها، أو هكذا ادعى!

أسير خلفه فأجلس قبالته أمام مكتبه كالمرة السابقة، لكنني كنت أشعر بقيد الذنب يكبلني هذه المرة، ذنب كذبتي وخجلي،

لو علمت يافا!

لن أكررها، سأستمتع بصحبته لبضع دقائق فحسب، لا أريد سوى هذا.

أسأله بصوت مرتجف يفضح كذبي عن محاضرته الأخيرة، وكعادتي لا يمكنني رفع عيني في مواجهة من أكذب عليه.

فيصلني صوته الحبيب في جوابٍ كافٍ مفصّل بنبرته العملية التي تثير إعجابي وفخري.

ينتهي حديثه بصمت قصير فأجرؤ أخيرًا على رفع عينيّ نحوه.

الآن فقط أنتبه، إنه يشبه أبي في ملامحه كلها عدا هذه النظرة في عينيه السوداوين كليل بلا قمر.

نظرة شديدة القسوة كأنها قُدّت من حجر، لكنها تتبدل في ثوانٍ لأخرى زائغة، شريدة، كأنه لم يعد يراني.

إنها المرة الأولى التي أراه دون رابطة عنق وقد حل زرار قميصه لتبدو منه هذه..

يا الله! لم أرَ يومًا ندبة بهذه البشاعة!

يبدو أنه لاحظ تعلقي بالنظر إليها، لكن هل يستحق الأمر نظرة الحنق المذعور هذا في عينيه وهو يحكم إغلاق زر قميصه؟!

– تريدين السؤال عن شيء آخر؟!

فظاظته لم تزعجني هذه المرة وأنا أحسها ترتجف بخوف

استشعره قلبي جليًا، عجبًا! طالما منحني حبه هذا الشعور بأنه أبي خاصة مع التشابه الجلي بينهما، لكنها المرة الأولى التي أتمنى لو أكون له أمًا، أمًا تحتضن كل هذا الخوف الذي تنصهر به حدقتاه.

يريدني أن أسأل؟! هل يمكنني حقًا أن أسكب حيرتي وفضولي ولهفتي لكل ما يخصه دون خجل أو حرج؟! رباه! كيف يمكن أن أذوب عشقًا هكذا لرجل لا أعرف عنه سوى عبقريته المشهودة وشبهه الشديد بوالدي؟! أدخلني دنياك يا يونس، افعلها وأعدك ألا تندم، وألا أندم.

خواطري الهائمة تذوب على شفتيّ فيترجمها لساني لكلمة شكر تقليدية وأنا أدرك أن موعد المغادرة قد حان، كفاني منه هذا القليل، والقليل منه كثير لو يدري!

أعطيه ظهري لأنصرف وقلبي يخفق بفرحة من وضعوا الدنيا في كفيه دون مقابل، لكن هذا لم يكن شيئًا أمام هذه الرعدة التي انتابتني وأنا أسمعه يتفوه باسمي:

- ضيّ.

ألتفت نحوه لتلتقي عينانا فيمتد هذا «الجسر غير المرئي» بيننا، يقولون إن العين مرآة الروح، ومرآته هو كانت مشروخة، بل مكسورة، تتشوش الصور بداخلها فلا تمنحني سوى المزيد من الحيرة، لكنني مع هذا أجدني مجذوبة نحوها دون إرادة.

- لا تخبري أحدًا.

عبارته تهزني بقوة ولا أعلم السبب، هل هي اللهجة التي نطقها بها بين رجاء وحزم؟! هل هو شعوري أنه قد صار بيننا ما يخصنا وحدنا ويحرم على سوانا؟! أم هو عجزي عن فهم ما يقصده بالضبط؟! ما الذي لا يريدني أن أبوح به؟! لقاؤنا؟! حديثنا؟! أم.. هذه الندبة التي رأيتها؟!

والجواب واحد وإن اختلفت الأسئلة، إيماءة رأس بالطاعة بدا لي وكأنه يكافئها بـ«شبه ابتسامته» كالعادة.

هل أخبره كم يبدو رائعًا بها؟! الليلة قبل نومي كالمعتاد سأخبره في خيالي بكل ما عجزت عن قوله هنا.

يشير لي بالانصراف فتقرأها عيني العاشقة ككفّ يلوح برقّة مودعًا وواعدًا بلقاء قريب.

أغادر غرفته هائمة بشعوري الذي يزداد اكتساحًا يومًا بعد يوم، ولا ينغصه سوى شعوري بالذنب لأنني أخفيه عن يافا، لكن عذري أنني لا أريد إزعاجها، كفاها قلقها عليّ بشأن ذاك الوغد خطّاب الذي يتعرض لي من آنٍ لآخر، الغريب أنني عندما تركت غزة لمصر ظننت أنني تركت الشر كله خلفي وأنني عائدة لوطن السلام، لكنني كبرت لأدرك أن الشر موجود في كل الأوطان وأن الهروب منه ليس حلاً، لكن ماذا تصنع مثلي مع مثله وأنا وحدي بلا سند؟

أتغاضى عن أفكاري السلبية مكتفية بسحر لقائي الأخير

مع يونس، تلتقيني حبيبة فتستبقني بقبلة اعتذار أتقبلها بتسامح كعهدي، ثم تسألني عما دار بيننا، أحكي لها لكنني - بلذة خفية- أحتفظ بسرّنا لنفسي، هو طلب مني ألا أخبر أحدًا، فكيف أرد له طلبًا؟!

ضحكاتي تنطلق صادقة كما لم أعرفها يومًا وأنا أسير جوارها لنغادر مبنى الجامعة، يافا تنهاني دومًا عن التسكع، لكنني أستجيب لحديث عهدي بالتمرد الطفيف، فأتوجه مع حبيبة لمحل العصائر القريب، تطلب عصيرها المفضل من المانجو وأطلب مفضلي من «القصب»، نعاود سيرنا ضاحكتين نتشارك الخطط والأحلام ثم نستقل الحافلة معًا، فتتركني هي في محطتها وأبقى وحدي في انتظار محطتي، لا يزال شعوري بالذنب نحو يافا يتضخم، ربما لهذا انتويت شراء «الكنافة النابلسية» لها قبل عودتي حتى ولو كان هذا يعني أن أفقد ما بقي من مصروفي وأمشي على قدميّ للجامعة بضعة أيام.

لكنني لم أكد أترجل من الحافلة حتى اصطدمت بوجه خطّاب اللزج بنظراته الكريهة وخطواته البطيئة نحوي.

- تأخرتِ اليوم.

كيف يعلم هذا أنني تأخرت؟! هل يراقبني يوميًا؟! هل بلغ به الفراغ هذا الحد؟!

أبتلع غصة حلقي وأنا أطرق برأسي لأجيبه مهادنة كعهدي:

- الزحام.. كالعادة.

- مثلكِ لا يليق به جو «التلمذة» هذا، لقد خُلقتِ لتكوني ملكة ببيتك.

ياللسخافة! عدنا لأسطواناته التي لا يملّ تكرارها، لو يدرك الحمقى كم يبدون حمقى لتوقفوا عن هذه السفاهة.

أعتذر منه بكلمات مقتضبة وأنا أخبره عن وجهتي، لكنه يصرّ أن يصطحبني.

- لا يصحّ هذا يا خطاب، الناس.

- الناس يعلمون أنك قريبتي، ومن يتكلم عنا فأنا كفيلٌ بقطع لسانه، امشي يا «بنت الناس» ولا توقظي شياطيني.

يقاطع بها كلماتي بحدة تخيفني، فأقف مكاني عاجزة إلا من هذه الدموع، ويبدو أن ضعفي يشجعه ليمسك معصمي هاتفًا:

- هيّا!

يتحسس بشرتي بهذه الطريقة المقززة خلسة فأنفض ذراعي منه هاتفة بمزيج من اعتراض وخوف:

- اتركني «الله يرضى عنك».

لكنه يعاود اقتحام حصوني بفجاجة لا يوقفها سوى هذا الهتاف الهادر من خلفي:

- ألم تقل لك اتركها؟! دعها وشأنها.

يونس!! ياللفضيحة!!

ما الذي جاء به خلفي؟! هل هي مصادفة؟!

ماذا سيظن فيّ؟! بل.. وماذا سيفعل به خطّاب؟!

خطّاب الذي تنمرت ملامحه وهو يدفعني بعيدًا بقسوة ليقترب منه هاتفًا بلهجته الوحشية:

- أعد ما قلته يا هذا فربما أذناي ليستا بخير!

يقولها وهو يجذب يونس من سترته بأحد كفيه بينما يسحب مديته من جيبه بالآخر، ليهتف يونس ببرود قارس:

- «كُلّك» لن يكون بخير.

أشهق بخوف وأنا أندفع نحوهما محاولة افتداء يونس.

لكن ما حدث جعلني أتجمد مكاني مصدومة.

فلم يكد خطّاب يرفع مديته حتى سمعت الصرخة تغادر فمه هو وركبة يونس تنال من أسفل بطنه في نفس اللحظة التي أحكمت فيها قبضة الأول إطباقها على معصم يد خطّاب الممسك للمدية ليلويه خلف ظهره مجبرًا إياه أن يتخلى عنها.

الناس يتجمهرون حولنا محاولين منع الصدام الذي صار بينهما لينال يونس من خطّاب لكمة واحدة، لكنه ردها له ثلاثًا لم يحتج لسواها حتى سقط بعدها خطاب مغشيًا عليه.

- صلّ على النبي يا أستاذ! اذهب لحالك!

يهتفون بها بكلمات ظاهرها الاستياء وباطنها الرضا، فلم يكن أحدهم يغفل عن طبيعة خطّاب الكريهة، ليتحرك يونس

نحو سيارته التي كان قد رصفها بعيدًا، فيما أقف مكاني لاهثة الأنفاس متعرقة الجبين، وقد عادت الأعراض إياها تنتابني فأعتصر قميصي بقبضتي محاولة التماسك.

لكنه يرمقني بنظرة داعمة رغم هذا البعد قبل أن يختفي داخل سيارته.

- ارجعي بيتك يا ابنتي حتى لا تقلق العمة يافا.

يهتف بها «المعلم عطوة» صاحب المقهى القريب بمزيج من الحزم والحنان الشرقي المحبب، فأشير له برأسي لأهرول بخطوات شبه عرجاء نحو بيتنا.

تستقبلني يافا بقلق وهي تميز لهاث أنفاسي وحالتي التي لا تخفى عليها، فتهتف وهي تضمني لصدرها:

- ماذا حدث؟!

أستسلم لبكائي على صدرها كما أفعل منذ سنوات، فتربت على ظهري هاتفة بجزع:

- اهدئي.. أنتِ في حضني.. ماذا فعلوا بكِ يا «قلبي»؟!

أعجز عن الحديث لدقائق مكتفية بعناقها الدافئ حتى أتمالك أنفاسي فأحكي لها، لم أستطع إخبارها عن يونس سوى أنه أستاذي في الجامعة فحسب، وأن وجوده كان مجرد صدفة.

يعلو صوتها بالدعاء على خطّاب، ثم تتوعده بعقاب تعلم هي قبلي أنها ليست قادرة عليه، لكنها تفعلها بقلب أمٍ ستدافع

عن صغيرتها حتى ولو لم تملك سوى مخالبها الضعيفة.

- لا تخافي، سأحدث «المعلم عطوة» ليدبر لنا حلاً بشأن خطاب هذا، بدّلي ملابسك وأنا سأعد لك حساء الدجاج الذي تحبينه، سنأكل سويًا وبعدها نصلي ركعتي حاجة لتفريج الكرب، ربك كريم.

حنانها المصطبغ بالإيمان يلفني بغلالته الراقية كالعادة، فتتلاشى مخاوفي رويدًا رويدًا وأنا أختلي بنفسي في غرفتي، أخلع وشاحي وأبدل ملابسي لأخرى بيتية مريحة، أصطدم بصورتي في المرآة لكنني لا أراني وحدي، بل أراه معي، يونس، بنظرته الداعمة، ملامحه الدامية لأجلي، «شبه ابتسامته»، صدى كلماته، وأخيرًا سرّنا الصغير الذي بدأ اليوم وأدعو الله ألا ينتهي أبدًا.. أبدًا.

***

(الظلمة الثالثة)

وانتي تقوليلي بحبك؟! تحبي إيه فيا؟!

* * *

* يونس *

* * *

- أريد منك خدمة.

أقولها لـ«مختار» عبر الهاتف فيجيبني بالطاعة والود المبالغ فيه كعهده منذ قررت التعاون معهم، كنت أظن منفعتي معهم ستكون مادية فحسب، لكنني علمت بعدها أن أذرعهم طويلة حقًا حتى داخل البلد.

- اسمه «خطّاب...»، بلطجي، لو لم تُخلق السجون لمثله فلمن إذن؟!

أقولها له بعفوية فيصدمني رده الساخر:

- هل تريدني أن أجيبك حقًا؟! أنت بالذات تسأل؟!

أشعر بالدماء تفور في عروقي و«ومضة» قديمة من تاريخي تسطع من جديد.

صوت الأمين «مجدي» يدوي في أذني بسبابه البذيء الذي يسبق تعصيبه لعيني وتقييده لأطرافي، ثم هذا الألم الذي لا يشبهه ألم آخر، وهو يصيح وسط سبابه:

- انطق يا «....»! تظنني مجرد «أمين شرطة»؟! أنا عملك الأسود الذي سيذيقك الموت حيًا يا «.....»!

يهدر بها مرة بعد مرة بسبابه البذيء فتساورني نفسي بالضعف، بالاستسلام، لكنني أتذكر جابر عندما قال لي يومًا:

- ما يخون العهد إلا ابن الحرام، وانت ابن حلال يا يونس، إياك أن تخون من آمنك.

حروفه التي حفرت الرجولة كألف وشم على جسدي تعاود شحن طاقتي، فأصرخ بالرفض ليتجدد العذاب بأشد منه.

صعقة خلف صعقة خلف صعقة، حتى يسقط رأسي ويرحمني وعيي من الإدراك.

- اعتبره قد تم.

ينتزعني بها مختار من شرودي، فأكاد أشكر له هذا، لكنه يغلق الاتصال فجأة كعهده كلما تنتهي حاجة أحدنا لصاحبه.

زفرة حارّة تغادر صدري وأنا أشعر بدمائي تفور في عروقي، غرفة مكتبي في الجامعة هذه خانقة حقًا، أشغّل جهاز التكييف العقيم الذي يلفظ آخر أنفاسه فيعمل بكفاءة مروحة متهالكة، وأفكّ زرّ قميصي ببعض الحذر لأتذكر ما حدث بالأمس.

كنت قد فككته وقتها كذلك لشعوري بالحر، خاصة وقد أغلقت باب الغرفة عندما شعرت بظل أقدام تقترب من خلف الباب وتتوقف أمامه.

شعوري المستديم بالحذر ودقة ملاحظتي لم يفوّتا شيئًا كهذا، فاقتربت بخفة لأميز الصوت الخفيض للفتاتين، ضيّ! صديقتها تحدثها عني! أرهف السمع لأتلصص لصوتها الخفيض، فلا أسمع سوى كلمات متناثرة لكنها كانت كافية، الفتاة مغرمة بي حقًا، تظنه هي حبًا ويظنه -من يكفر بالحب مثلي- مجرد «تخاريف مراهقة»، لكن سماع هذا وحده كان كفيلاً ببعثرتي في وادي التيه الذي تعرفه خرائطي أخيرًا معها، سمعتها بعدها تريد الابتعاد، لهذا بادرت بفتح الباب بسرعة كي أقطع عليها طريق التراجع.

ملامحها البريئة كانت مذنبة! آه يا صغيرتي! ما الذي تعرفه مثلك عن الذنب؟! تكذب فتدّعي عدم الفهم، تكذب، وأعلم أنها تكذب، لكن لو لم تشفع لها حمرة الخجل تلك، هروب عينيها المذنب ذاك، ارتجافة أناملها المتشابكة تلك، فماذا يشفع؟!

كان الأمر ليمر عليّ كأروع نسمة رقيقة مرت على صحرائي منذ زمن بعيد، لولا ملاحظتها لندبتي هذه.

تبًا! لماذا أنتِ من بين نساء العالمين تتعثرين بأضخم صخوري؟!

من جديد صرخت بها -دون صوت- أن اغربي.. أعتمي.

لكنها لم تستمع سوى لصوت لساني -الخائن- يرجوها أن تبقيها سرنا!

لمعة عينيها وقتها كانت أكثر إشراقًا من كل شموسها التي أصر على تجاهلها.

ربما لهذا تتبعتها خلسة من بعيد، راقبتها تضاحِك صديقتها بتلك الطريقة التي تكاد تذهب بعقلي، تسيران فأسير خلفهما على مسافة مناسبة لأجدها - في مصادفة نارية جديدة- تختار شرب القصب!

القصب! آآه!

كيف صار حالكِ معه يا «نجية»؟!

هل لا تزال أسنانكِ الفتية قادرة على تقطيعه لتمنحيه كـ«مكعبات من السعادة» لأطفال الجيران؟! أم أن الزمان كسرها مع ما كسره؟!

منذ متى لم ترتوِ عيني برؤيتك؟! منذ كسروني، شوهوني، لم أكذب يوم قلتها، ابنك مات يا نجية.. مات، وما بقي منه شبح لا يعرف سوى ظلام الجحيم!

تبًا لكِ يا ضيّ! لا تزالين تتمرغين وسط أوحال ماضيّ، تمزجين براءتك بقبس النور الذي يتسرب غادرًا بين شقوقي، ولا تدركين أنكِ من ستدفعين الثمن، اهربي مني هروبك من الموت يا صغيرتي، اهربي أنتِ فربما لست أنا بقادر.

أجل، ما عدت قادرًا على تجاهلكِ كالسابق، هل تصدقين أنني تتبعتك بسيارتي بعدها خلف حافلتك؟ كل ما كنت أرجوه أن أشبع شغفي المستحدث بكِ، لكنني رأيت ذاك الوغد يعترض طريقك فلا يرده ضعفك.

وددت ساعتها لو أقايضك، لو أمنحكِ بعضًا من شراستي

تعينكِ على ذئاب الطريق، وتمنحينني قبسًا من نورك أنسى به ظلمتي، لكن هل أريد حقًا نسيان ظلمتي؟!

لا يا ضيّ، ظلمتي لا تُنسى، ظلمتي قبر دنياي وآخرتي، ومثلي اعتاد سكنى القبور!

صوت طرقات على الباب.

كوني أنتِ!

- أدخل؟!

الآن تستأذنين؟! أنتِ دخلتِ منذ زمن يا غافلة.

ملامحكِ تبدو شاحبة وعيناكِ الناعستان تفضحان قلة النوم، ومن مثلي يفهم وشاية السهر؟!

- شكرًا.

من جديد تهمسين بها دون صوت فتخترق قلبي كقذيفة، ألم يخبروكِ أن أكثر الأصوات دويًا هي في الحقيقة ما تفتقد رنين الصوت؟!

- هو ابن خالتي.

تهمسين بها بخزي يعز عليّ من عزيزة مثلك، تظنينني لا أعلم؟! تظنينني لم أحِطْ بكل تفاصيلك خبرًا؟!

- لا يهم، لن يضايقك بعد اليوم.

فظاظة صوتي تخذلني كالعادة لكنكِ لا تفعلين.

لم تفهمي ما أعنيه لكن طبيعتك النورانية لا تزال تبحث عن

النبت وسط الصخور، تتبسمين وتكتفين بكلماتي كنبوءة.

ومن مثلكِ يعيش على نبوءات الأمل؟!

تمدين أناملك بما بدا كهدية ملفوفة بورق مفضض يلمع مثل وجهك في ضوء الغرفة.

- أحد كتب أبي التي أحتفظ بها في مكتبته، لم أستطع فهمه لأنه بالإنجليزية، فكرت لو تقبله مني كهدية.

خجلك يتلعثم مع هذا الشجن الذي يلون حروفك.

«سرداب الظلال» الذي يمتد بين ظلمتي ونورك لا يزال يجتذب خطواتنا معًا.

سرداب لا أعرف متى بدأ ولا كيف سينتهي.

لكنني أعرف خطورة أن تكوني أنتِ رفيقتي فيه.

لا يصدمنّك برود ملامحي القاسي يا صغيرتي؛ فلا تدرين أي جحيم أصطلي به تحتها!

- ألن تقبله؟!

غصة حلقك تصيب مني قبلك، لكنني أختبئ خلف أسوار ظلامي.

- لا أقبل هدايا من طلابي، وما فعلته معكِ بالأمس ليس إلا تصرفًا طبيعيًا جاء مصادفة.

لم تفاجئني لمعة الدموع الخائبة في عينيكِ، لكن.. هذه الابتسامة العاشقة التي شقت طريقها فوق شفتيكِ.

- لو عشتَ حياة كالتي عشتها أنا لأدركتَ أنه حتى التصرف الطبيعي يستحق الشكر أحيانًا.

تقولينها ثم تعطينني ظهرك كي تنصرفي فيرتجف قلبي بلوعة تثير غضبي منكِ أكثر.

من تكونين لتشعلي هذه الثورة داخلي ثم تمضين هكذا؟!

لكن.. من أكون أنا كي أقطف بتلاتك تباعًا في بحث عن جواب لسؤالي الاستثنائي: لي.. أم لستِ لي؟!

- انتظري.

تلتفتين بكل جسدك فتصلني لهفتك كشعاع نور يشبهك يؤذي عيني ويهدهد قلبي، أتوجه نحوك و«سرداب الظلال» بيننا - للعجب - يزداد طولا مع كل خطوة أخطوها نحوك.

- احتفظي بكتاب أبيكِ، لكن يمكنني أن أترجمه لكِ، نصف ساعة كل يوم، نقرأه معًا.

وكفرحة يتيم بحلوى العيد كانت ضحكتك.

وكخوف شيطان من ترتيل الهداية كان انعقاد جبيني.

تغادرين، وليتكِ تغادرين!

ما أدراكِ أنتِ عن ناري؟! وماذا عساني صانعًا فيكِ؟!

أنا لا أحرق البراعم، لكنني أدهس الزهور التالفة دون رحمة، وأنتِ لا تزيدين في عيني عن كونك برعمًا أبيض يتمطأ بدلال كسول تحت شمس حارقة، من يخبركِ يا صغيرتي أن البراعم

البيضاء لا تليق بغباء ظلمة هذا العالم، ولا بقسوة شمسه؟!

أفكاري تنقطع عندما أسمع الطرق على الباب من جديد فألتفت لعله أنتِ، لكن السخرية الممتزجة بمرارتها تلفني وأنا أرى «نقيضتكِ» أمام عينيّ.

قمر!!

آه لو تعلمين منذ متى أنتظرك وأعلم أنكِ ستأتين!!

- كيف حالك يا يونس؟!

صوتكِ المغناج لا يزال يجيد العزف على أوتار رجولتي، لكنني سأبهركِ بعزف سياطي على ظهر كبريائك.

- أدخل؟!

ستدخلين، وستخرجين، ستخرجين كما أردت لكِ بالضبط منذ تلك الليلة؛ نفاية ملقاة على جانب الطريق لا يهتم الرائي إن كانت مكدسة أم مبعثرة.

- لماذا لا تتكلم؟! أعلم أنك لا تزال غاضبًا مني، لكن...

مبررات؟! من جديد تسكبين مبرراتك الهزيلة في أذني كما فعلتِ ليلتها؟! ألم تنتبهي يا حمقاء أن الأذن التي عشقتك يومًا الآن قد أصابها الصمم؟!

تتحدثين، فلا أسمع، تدمعين، فلا أرى، تقتربين، فلا أبتعد ولا أقترب، بل أقف بسكون جبل ينتظر ارتطامك الوشيك به، ثم سقوطك.

سقوطكِ هو ما بقي لأجل أن أعيشه بانتشاء وسط مثلث ظلماتي الذي كنتِ أنتِ «ضلع الحب» فيه.

- لم تتغير يا يونس، هذه الثياب الأنيقة، هذا المكتب، وهذا الوجه الجامد، كل هذا لم يغيرك.

كذب جهلٍ هذا أم أمل؟! تظنينني لم أتغير حقًا؟!

- تكلم.. اشتقت صوتك.

- وأنا أيضًا.

تغادر حلقي متلونة فتلقين فيها ضالتك، تبتسمين بظفر أعرفه وأخفي أنا ابتسامة ظفري، لا تزالين تقتربين، ولا أزال أنتظر ارتطامك، ثم سقوطك.

الصبر يا قمرًا لم يكن له من اسمه نصيب سوى في ظلمة الليل حوله.

موعدنا الصبح حيث يخفيكِ النهار، أليس الصبح بقريب؟!

***

* ضي *

***

- السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله، اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

أراقب يافا فجرًا وقد تربعت على سجادة صلاتها بثوبها الفلسطيني المطرز بألوان علم فلسطين:

الأحمر ثورة شعبٍ ثار، . الأبيض رمز علا وفخار
الأخضر بستانٌ من غار، . والأسود ليلٌ منه نهار
النشيد الذي حفظته هناك منذ صغري.

أقترب منها لأجلس أمامها فتضمني لصدرها، تمسد ظهري وهي تمنحني نصيبي من «الرقية» اليومية التي تختمها بدعائها.

- ليحفظك رب الكون، وليرزقك بمن يصونك.

- ادعي لدكتور يونس.

أقولها بأقصى درجات ضبط النفس، لكن عينيّ تخونانى دومًا أمام فطنتها التي جعلتها ترمقني بنظرة متشككة، فأردف بارتباك اكتسحني رغمًا عني:

- يقولون إنه مريض، لم يأتِ للجامعة منذ قرابة الشهرين، وأنا لا أفهم شرح أستاذ غيره.

ترمقني بنظراتها المتفحصة لتسألني بتشكك:

- كيف ظهر هكذا ذاك اليوم ليضرب خطاب؟! وهل هي مصادفة أن يسجَن الرجل بعدها مباشرة؟!

لا تعلم أن هذه هي التساؤلات نفسها التي أطرحها على نفسي كل ليلة قبل نومي، يونس قال لي يومها إنه لن يعود ليضايقني، هل كان يعني هذا؟! هل هو حقًا خلف الأمر؟! هل كان يتتبعني يوم ضربه؟! لماذا؟! ولماذا لم يعد يأتي للجامعة؟! هل هو مريض حقًا؟! هل لديه من يعتني به؟! يقولون إنه يعيش

وحده في بيت كبير منعزل على أطراف المدينة، بيت كبير لا يفتقر للحرس ولا للخدم، لكنني أشعر أنه يفتقر للدفء.. للحب.

- تخفين عني شيئًا؟!

تنتزعني بها يافا من شرودي فأرمقها بنظرة مذنبة بنكهة الاعتراف، لن أقوى على البوح بها يا يافا فاقرئيها أنتِ.

- استرنا يارب.

تتمتم بها يافا بخوفها العتيد عليّ لتربت على رأسي هامسة:

- هو مجرد شبيه لوالدك أيقظ فيكِ مشاعر مراهقة خاصةً مع حياتكِ المنغلقة وخبراتك المحدودة، لا تفكري سوى بهذا يا ضي، عديني.

ياللبساطة! كأنما يمكنني منح هذا الوعد.

- تثقين أنني لا أفعل ما يشين يا عمتي، فقط ادعي له بالخير، أنا مدينة له على أية حال.

أمنحها ابتسامة مطمئنة راجية فتدمع عيناها بالمزيد من الخوف، الخوف ليس غريبًا على عيني يافا، منذ وعت عيني على الدنيا وأنا أراه رفيق عمرها، ويشقّ عليّ كثيرًا أن أكون الآن من أزيد ضيوفه على مائدتها.

- سأعدّ أنا «المناقيش» اليوم، لدينا زيت زيتون؟!

أهتف بها بمرح متعمد وأنا أنهض مكاني لترمقني بنظرة ذات مغزى ناسب كلماتها.

- الزيتون لا ينفد من عندنا، رمز سلام ربي وأمانه.

أمنحها المزيد من ابتساماتي المطمئنة ثم أركض نحو المطبخ شبه هاربة، أعجن وأرصّ وأشغل الفرن، وأخيرًا أزينها لها كما تحب بـ«الزعتر» ومبشور الجبن.

نتشارك الطعام بمرح لم يفارقه خوفها، لكنني كنت أصرّ أن أبذر في أرضها المزيد من الطمأنينة، أتركها لأبدل ملابسي استعدادًا للذهاب إلى الجامعة، من يدري؟! لعله يعود اليوم.

وكعادتي كلما فكرت أنني سألقاه أشعر كم هي رثة ثيابي! كم هو فقير جمالي! كم هو متواضع حالي! كل هذا - مهما عظم- لا يليق به.

أنتهي لأتناول حقيبتي وأتناول معها «الكتاب» الذي وعدني أن يقرأه معي، لكنه اختفى بعدها، تراه قد ندم على عرضه؟!

ليتني أفهمك يا يونس! ليتني أقرأ عينيك الغامضتين هاتين!

تودعني يافا بدعواتها المعهودة فأبتسم طوال الطريق، أرى المعلم عطوة يلوح لي بكفه بحماسة طيبة فألوح له بكفي كذلك، أستقل الحافلة وأضع سماعات أذني أستمع لمعشوقتي:

(سألوني الناس عنك يا حبيبي..

كتبوا المكاتيب وأخدها الهوا..

بيعز عليّ غني يا حبيبي..

لأول مرة ما بنكون سوا)

أبتسم بشجن والكلمات توازي وجعًا في صدري أنت صاحبه:

(غمضت عيوني خوفي لا الناس
يشوفوك مخبى في عيوني).

طالما كنت أجد نفسي في صوت فيروز، مزيج الشجن والعاطفة في صوتها، لكنني ما أحسستها صادقة كما الآن.

الحافلة تصل فأوقف ما أسمعه وأترجل منها، أبتسم بشوق وأنا أتوقف في المكان الذي كدتَ تصدمني فيه بسيارتك ذاك اليوم، ليفتح لنا القدر طريقًا أكثر خصوصية، أعبر الطريق لأدخل مبنى الجامعة، حبيبة تستقبلني بنظرتها التي أعرفها، وبهذه الضحكة الماكرة التي أخبرتني قبل غمزتها وكلمتها:

- عاد.

أضحك بلهفة حمقاء وأنا أبحث عنك بعينيّ حولي فأراك واقفًا خلف العمود الضخم أمام مكتبك.

وقفتك شامخة كعهدك لكنني كنت أشعر فيها بانكسار خفي لم أفهمه.

عيناي معلقتان بك، وعيناك معلقتان بـ«كتابي».

أرفعه نحو صدري أضمه بأنامل مرتجفة فترتفع معه نظراتك.

أقترب منك كالمسحورة فلا تحيد قدماك أنت، لكن نظراتك تفعل.

تنتقلان لعينيّ بنظرة مذنبة لم أفهمها، نظرة أشد سوادًا من هذه التي أعرفها، تبدو مسرفًا في أناقتك هذا اليوم، غيرتَ تصفيفة شعرك ليبدو أكثر «لمعانًا»، لكنني ولسبب غير مفهوم كنت أشعر به قد ازداد قتامة.

يصل إليك قلبي قبل قدمي، فترتجف شفتاك بـ«اشبه ابتسامتك» التي أعشقها، أهديك تحية صباح فتلقي عليّ مثلها باقتضاب، أصمت فتصمت، أسبل جفنيّ وأبحث عن كلمات.

- صرتَ بخير؟!

سؤالي يبقى معلقًا بيننا كأنك لا تعرف الجواب، وربما لا تريده.

لهذا أكتفي بـ«غنيمتي» هذه منك لأقول بنبرة مرتجفة:

- لن أعطلك، حمدًا لله على سلامتك.

خانتني بها لهجتي «الشامية» التي استبدلتها منذ سنوات بالعامية المصرية، لكنها تفرض نفسها عليّ في أوقات عدة ولا أفهم السبب، أحيانًا عندما أفرح فأتذكر عهد طفولتي القديم، أحيانًا عندما أخاف الفقد فأتذكر بها غلالة أمان أبي، ومعك أنت لا ينقصني هذان الشعوران بالذات.

أرفع عينيّ لأصطدم بهذه النظرة الغريبة في عينيك، اعتدت نوبات شرودك من طول مراقبتك، لكنك هذه المرة لا تبدو شاردًا، على العكس، تبدو وكأن تركيزك كله معي، ربما أكثر مما ينبغي.

شعوري هذا يوتّرني، فأبتعد خطوة، لكنك - للعجب- تقترب!

إنها المرة الأولى التي أشعر فيها بمعنى الكلمة قبل حرفيتها.

- لاتزالين تريدين قراءة هذا الكتاب؟!

بحة صوتي المرتجف تخذلني فأكتفي بإيماءة إيجاب.

ليهيأ إليّ أن هذه النظرة في عينيك تزداد ظلمة.

لم أدّعِ يومًا أنني أفهمك ويبدو أنني لن أفعل، لكنني وإن كنت لا أفهمك حقًا، فأنا أشعر بك.

أجل، لا تستهن بصغر سني، فأنا جئت من رحم الحرب والموت، فأدركت منذ زمن كيف تكون الحياة.

وأنت حيّ جدًا يا يونس، حتى خلف قناع برودك هذا، ليتك تصدقني فأنا أعنيها.

- تعالي.

صوتك الصارم يقتلعني من أرض شرودي ليغرسني في جنة قربك الوشيكة، أسير خلفك لندخل غرفة مكتبك، فألتفت نحو حبيبة التي تغمزني بخفة مشيرة لخاتم بنصرها في حركة ذات مغزى.

أبتسم وأنا أتجاهلها لأتقدم فأتخذ مجلسي أمام مكتبك.

تمد أناملك لتأخذ مني الكتاب.

فتبدأ القراءة و.. شيء آخر ينسج غزله المتين بيننا.

* * *

(الظلمة الرابعة)

وده حب إيه ده اللي من غير أي حرية؟!

***

يونس

***

- تم الأمر كما خططت له تمامًا، لا أعلم كيف ستسير الأمور القضائية، لكن تكفيها هذه الفضيحة.

يقولها دياب عبر الهاتف فتتشبث قبضتاي بمقود السيارة التي أسير بها نحو البيت.

- ابعث إليها بمحامٍ، واحرص أن تعلم هي أنني من أرسلته.

لا يتعجب دياب وهو يفهمني أكثر من نفسي، واحدٌ سواه كان ليسأل كيف تدبر لها المصيبة وتبعث إليها بمساعدة، لكنه يعلم، يحس بهذه النار التي احترقت بها طوال هذه السنوات حتى استحالت رمادًا وسط مثلث ظلماتي.

أغلق معه الاتصال وأنا أشعر أنني الآن فقط أغلق صفحة قمر للأبد بعدما منحتها الندبة التي لن تنساها أبدًا.

طوال الشهرين الماضيين وأنا أتلذذ بمحاولاتها المستميتة لإغرائي، الحمقاء تظن الماء قد يعود لمجراه القديم، ولا تدري

أنه و- إن عاد- فسيرجع كدرًا معكرًا بشوائبه، وأي شوائب تركتِها لي يا قمر!

تنهيدة حارقة تغادر صدري وأنا أذكر المرة الأولى التي التقيتها فيها في الجامعة، جمالها لم يكن عاديًا، وكانت أنثى تجيد استعراضه، رغم أنها تشاركني الأصل الصعيدي والبيئة الفقيرة والطموح الذي لا يعرف سقفًا، لكنني كنت منبهرًا بها انبهاري بعالم غريب يفتح لي بواباته لأستكشفها بفضول.

لأجلها عملت في مهنتين معًا بعدما كنت أكتفي بواحدة مع دراستي كي أكفل نفسي ولا أكلف جابر المزيد من همي، لم أخجل وقتها من الاعتراف لها أنني أعمل برفع الطوب مع عمال البناء صباحًا، وعلى ماكينة تحصيل نقود في محل كبير ليلاً، كانت تبدي انبهارها بكل هذا زاعمة أنني أكثر من قابلتهم في حياتها رجولة، وأنني فارسها الذي تمنته، حتى ظهر الحاج كامل في الصورة.

صوت بوق السيارة الآتية أمامي الآن مع وميض كشافاتها يزعج عيني فأغلقهما بقوة، وأنا أحيد بسيارتي لليمين قليلاً.

هل هو أثر «الحاج كامل»؟ حتى مجرد ذكراه تجعلني أحيد عن طريقي الذي رسمته؟!

الغريب أنني عرفته قبل قمر، «مقاول أنفار» بشهادة متوسطة، مشهور بعمل الخير، عندما علمت أنه من قريتنا ذهبت إليه أعرفه بنفسي وأطلب منه عملاً إضافيًا يساعدني، أعجب

بكفاحي عندما علم عن ظروفي وطالما ساعدني، بل إنه كان يزعم بين الجميع أنني ابنه البكر، ويطلب مني أن أعتبره كأبي، وقد كان، غير أن الأب لا يطمع في حبيبة ابنه.

رأيتها في نظراته منذ لمح قمر معي أول مرة، لكن علمي أنه كان متزوجًا وقتها جعلني أقمع ظنوني، حتى عندما علمت بعدها أنه قد طلق زوجته، حتى بعد شعوري أن قمر كانت تتباعد عني دون سبب زاعمةً أنني دومًا مشغول بدراستي وعملي الإضافي، وحتى عندما بدأت الشائعات حولها تخدش أذني، كنت أقول لنفسي: لا.. قمر لا تخون، كامل لا يخون، هي حبيبتي وهو أبي الثاني، أحمق كنتُ وقتها، أحمقُ كفراشة غرّها النور حتى اقتربت.. فاحترقت.

– لا تظلمني يا يونس، هو تقدم لخطبتي وأهلي وجدوه رجلاً لا يُرفض، أنت مشوارك طويل، لو صبرت أنا فأهلي لن يصبروا، سيقتلونني لو علموا أنني أحبك، تعلم كيف يفكرون أنه لا مزاح في الشرف.

آه يا قمر!

لا تزال كلماتك هذه تثير ضحكي بعد كل هذه السنوات!

الشرف! تتحدثين عن الشرف؟! دعي نجية تخبركِ عن الشرف! عن تجوالها بين المدن خلف أبي ترتجي الرزق الحلال، عن كل ليلة باتتها دون عشاء تقرقر بطنها من الجوع وإنما تشبعها

النظرة لوجهي، عن ألم مرض تتحمله صامتة دون شكوى كي لا تكلفنا أجر طبيب، هذا هو الشرف الذي لا تعرفه «عاهرة» مثلك.

لكن لماذا ألومك وقد صرت مثلك؟!

تعلمين؟! طوال الشهرين الماضيين وأنا أتخيل ليلة الأمس كما كانت تمامًا، أنتِ بكامل زينتك تصعدين لتلك الشقة كي تلتقيني، تنتظرينني هناك وقد منحتك المفتاح قبلها، تتهيئين للقائي كما تفعل البغايا، يُفتَح الباب بالمفتاح الآخر فتتأهب حواسك، لكنك تفاجئين أنه ليس أنا.

صدمتك، غضبك، صراخك المكتوم وأنتِ ترينه يقترب لينال منكِ ما ليس حقه، عجزك وأنتِ مكبلة بين ذراعيه.

كل هذا عشته بسببكِ من قبل، وإن اختلف الموقف.

أعترف، قصاصي معكِ لم يكن عادلاً، فقد زدته بالفضيحة.

أجل، في الوقت الذي كانت فيه قوات الشرطة تداهم الشقة لتضبطك في هذا الوضع، في الوقت الذي كنتِ فيه تصرخين، تبكين دون فهم، تدفعكِ الأذرع شبه عارية هابطة فوق سلم طويل، في الوقت الذي ألقوكِ فيه كـ«نفاية» داخل سيارة الشرطة تحوطكِ النظرات المزدرية.

كنت أنا في سيارتي أراقب كل هذا.

كنت أمامك، وأنتِ خلفي.

الآن فقط يمكنني قولها مقاومًا هذه الغصة في حلقي.

أنتِ صرتِ خلفي، هزمت أول أضلاع «مثلث ظلماتي»، حتى وإن بقيت طوال عمري أسير «زاويته».

ظلم؟! تظنيني ظلمتكِ حقًا؟! أنتِ كنتِ تمارسين البغاء «المقنّع» طوال هذه السنوات بعد موت كامل، تمارسينه تحت قناع الأرملة المستضعفة التي تبحث عن شهم يضمها في كنفه، لا تعجبي، أنا كنت أترقب أخباركِ من بعيد وأعرف أن الدور القادم ينتظرني لدى عودتي للبلاد.

تعلمين؟! لقد أخبرت رجلي الذي دخل عليكِ الشقة بالأمس أن ينظر الأول في حالك، منحتكِ الفرصة الأخيرة حتى آخر لحظة، لكنكِ تعلمين كيف كان حالكِ عندما دخل وظننته أنا.

أنا لم ألوث شرفكِ، أنا فقط أزحت اللثام عن وجهه المشوه.

طوال هذه السنوات وأنتِ من أسباب عزوفي عن زيارة قريتنا، لم تكوني السبب الوحيد لكنكِ كنتِ أحدها، كنت أخشى أن أمرّ على بيت كامل فتصارعني خيالاتي عنكما فيه، تعلمين أنني لم أمس امرأة - أي امرأة- في حرام؟! لكنني كنت أنتقم من كل امرأة تشبهك، أعدها وأمنّيها فلا أعدها إلا غرورًا، أتلذذ بخيبتها كما أتلذذ بخيبتك الآن.

طالما زعمتِ أنكِ تعشقين ذكائي، أظنه الآن الشيء الوحيد الذي لم تكذبي فيه، فهنيئًا لكِ به.

تعلمين؟! الحاج كامل طلب رؤيتي سرًا قبل موته، أخبرني

أنكِ أنتِ من بدأتِ خطواتكِ نحوه، أنه نادم لأنه فرط في زوجته لأجلك، وأن حياته معكِ كانت قطعة من الجحيم، طلب مني أن أسامحه زاعمًا أن مرضه ذاك جعله يعيد حساباته، لكنني لم أسامحه، ولن أسامحك.

السماح هذا من شيم أهل النور، وأنا صرت من أسياد الظلام.

السماح هذا قد تعرفه نجية وجابر، و... ضيّ!

الاسم الأخير يجتاحني كنسمة ناعمة يرتجف لها جسدي، أتذكرها وقد رأيتها صباحًا في الجامعة.

آه يا ضيّ! تعلمين أنكِ سبب عزلتي عن الجامعة طيلة الأيام السابقة؟! لم أستطع جمعك مع قمر في حياتي في نفس الوقت.

لا تظنينني أقارن فلا مقارنة أبدًا قد تجوز بينكما، لكنني – وللعجب– كنت أخشاكِ.

قهوة انتقامي الباردة كانت لتفسدها غمسة إصبعك النقي في فنجانها.

ربما لهذا لم أستطع لقياكِ إلا صبيحة ليلة الرشفة الأخيرة لانتقامي.

أتيتنِي صبحًا كما يليق بكِ وأتيتكِ خلف جداري كما يليق بي.

لهفتي لم تكن تقل عن لهفتكِ لكنني أجيد إخفاءها لو تعلمين.

نظراتك كانت تعانقني لكن عينيّ كانتا معلقتين بكتابك،

بوابة الفردوس التي قد تفتح بيننا، وهل لشيطان مثلي أن يطمح في هذا؟!

لكنكِ اقتربتِ وبين ذراعيكِ ألف حضن، وبين عينيك ألف وعد، وبين قدميكِ ألف وطن، وطن! تعلمين صعوبة نطق هذه الكلمة لمن يكفر بها مثلي؟!

سألتني إن كنت قد صرت بـ«خير»، وددت لو أعلم الجواب قبلك، ربما كان يجدر بي أن أعلن اليوم انتصاري كما حاولت الشعور به في زيادة تأنقي اليوم، لكن «الخير» بعيدٌ على من هو مثلي، بعيدٌ بُعد تحية، وبُعد جابر، بُعد الشمسِ، وبُعدكِ أنتِ.

اليوم أشهد أنني رفعت المزيد من رايات انهزاماتي البيضاء أمامك، رؤيتكِ وأنتِ تبتعدين بعد سؤالك الخجول ملأتني بهذا الخوف، وبهذه الرغبة فيكِ، لهذا فعلتها وتقدمت أنا منكِ خطوة، خطوة كنت أعلم أنني لا أحتاج لسواها كي تقتربي بدورك، شفافةٌ أنتِ كبلورة ساحر لا تكفيه سوى نظرة كي يقرأ ما فيها، وأشدّ ما أخشاه أن تخدشكِ يومًا قسوة أناملي.

كتاب أبيكِ قد يجمع بيننا لأيام قادمة، أيام لا أدري ما الذي قد تخبئه لنا، لكنني أترقبها بلهفةٍ أنتِ من أعدتِ رمي بذورها في أرضي المجدبة، لم أعرف يومًا شعورًا بالزهد يشبه طمعي فيكِ، ولا شعورًا بالإدمان يشبه تعففي عنكِ، علمتِ الآن لماذا أخافكِ؟!

السيارة تصل لبيتي أخيرًا فأرمقه من بعيد بنظرة راضية، عزلة

مكانه هذه في العراء تليق كثيرًا بعالم ظلماتي، يشبه القلعة بتصميمه الذي اخترته، ذو أسوار عالية صعبة الاقتحام، وبلون أسود مهيب يصبغ حجارته، الحارس يستقبلني بحذر علّمته إياه ثم يفتح لي البوابة ليتسلم مني السيارة كي يتوجه بها نحو الجراج القريب.

في العادة أتوجه لغرفتي في الدور العلوي كي أبدل ملابسي، لكنني اليوم أفتقد أبحاثي، عالم «هيولان» الذي أودّ لو يصير حقيقة أقدمها للعالم.

وظني أن هذا اليوم ليس ببعيد.

أتوجه نحو معملي البسيط الذي جعلته في الطابق السفلي، هذا الذي شهد انتصاراتي القليلة والتي حصلت على ثمنها غاليًا من قبل، يزعمون أنني عبقري وأن بحثي الأخير بالذات يكاد يكشف اللثام عن سلاح بيولوجي خطير سيؤثر على التوازن العسكري في المنطقة، ربما هذا ما دفع مختار ومن خلفه للاهتمام بشأني، لكن كل أبحاثي في كفة و«هيولان» في كفة أخرى.

أخلع سترتي فألقيها جانبًا، لن يزورني النوم هذه الليلة غالبًا، ليس وعقلي يرقص انتشاء فوق جثة كبرياء قمر، وقلبي يرقص مثله طربًا إنما على صدى نغم ضيّ.

ضي! رغمًا عني يجتاحني طيفك من جديد، يدغدغ حواسي بهذه الرجفة التي تشبهكِ في قوتها ونعومتها، يسألني ببراءة تشبهكِ عن معنى «هيولان» هذا الذي أردده فأجيبكِ وكأنك تسمعين:

- تسمعين عن الكائن الخالد الذي حير العلماء؟! اسمه العلمي «تيورتبسايس نيوتراكولا» ويختصرونه «تيولا»، نوع من أنواع قناديل البحر يتميز بقدرته المدهشة على تجديد خلاياه، أي قنديل بحر يمر بمرحلتين من النمو؛ الأولى مرحلة عدم النضوج حيث يكون كائنًا بسيطًا للغاية، والثانية مرحلة البلوغ أو النضوج حين يستطيع التكاثر لإنتاج قناديل بحر أخرى، والطبيعي أن يمر قنديل البحر بمرحلة عدم النضوج الأولى ثم النضوج الثانية ثم الموت، لكن «تيولا» يستطيع أن يمر بهذه المرحلة بالعكس، بمعنى أنه بمجرد أن يصل لمرحلة البلوغ يستطيع أن يعود لمرحلة عدم النضوج مرة أخرى، ثم النضوج، ثم عدم النضوج وهكذا، لهذا لا يصل لمرحلة الشيخوخة أبدًا، سبب هذه القدرة المدهشة هي عملية بيولوجية تسمى «transdifferentiation»، وتعني قدرة الكائن الحي على تجديد خلايا جسمه حين تنمو بعض أجزاء جسده المقطوعة مجددًا، لكن كائن تيولا يتميز بقدرته على تجديد خلايا جسده كلها، بعض العلماء يحذرون من غزوه الصامت، وقد بدأ يتكاثر بصورة مخيفة جدًا في بعض المناطق، خاصة وهو يتغذى على بيض الأسماك، مما قد يؤثر على الثروة السمكية مستقبلاً.

أتخيلكِ تفغرين فاهكِ بذهول فترتجف شفتاي بشبه ابتسامة وأرد:

- لا تخافي، يجب أن تفهمي الفارق بين كونه لا يموت

بصورة طبيعية وبين أنه يمكن قتله، تسألين عن علاقة هذا بأبحاثي الحالية السرية؟!

تنهيدة حماس تغادر صدري وأنا أراقب الكائن الهلامي في صندوقه الزجاجي أمامي، زوائد مجساته تتحرك حوله بنشاط ورأسه المشع بلونه الذي يميل للأبيض يغازل خيالي بحلمي الذي قد يراه البعض جنونًا.

ماذا لو استطعت دمج عالم البشر بعالم «تيولا»؟!

الإنسان يفتقر للخلود و«تيولا» يفتقر للعقل.

ماذا عن عالم يمزج ذكاء الإنسان بخلود التيولا،

ويكون اسمه مزيجًا بينهما؟!

بين «Humans» و« Tula» فيكون (Hulan) عالم الخلود.

الأمر صعب التخيل لكنني أكاد أراهم أمامي، «هيولان» بأجسادهم الهلامية مقاومة الشيخوخة وبذكائهم اللامحدود.

جنون؟! أنا أيضًا أراه - أحيانًا- كذلك، لكن من يدري؟ ربما يومًا ما أصل، وظني أني قد أفعلها.

***

* ضي *

***

- تفهمين هذا؟!

يسألني يونس عما يقرأه لي من كتاب أبي، وأنا أجلس أمامه

في غرفة مكتبه لليوم الحادي والعشرين على التوالي، لو استثنينا أوقات الإجازات التي ينقطع فيها لقاؤنا اليومي هذا رغمًا عنا.

فأرد بإيماءة رأس وأنا عاجزة عن منع نظرات انبهاري به، أن يجمع بيننا صوته مع «إرث» أبي لهو جنة الدنيا في عيني،إلى الآن لا أفهم لماذا وافق أن يقتطع من وقته الثمين لأجلي! مشاعر نحوي؟! قلبي يصرخ أن نعم وعقلي لا يريد التصديق، لكن منذ متى كنتُ فتاة العقل؟! وبالذات مع يونس؟!

- أبي كان يحب هذا الكتاب بالذات، كنت أراه يقرأ فيه كثيرًا، الآن أفهم سر شغفه به.

أقولها فيرفع عينيه نحوي لتلتقي نظراتنا عبر هذا القرب، آه يا يونس! لا تزال «مرآة روحك» مكسورة، صورها مشوشة، ولا أزال أحاول قراءتها دون جدوى، كم أود لو أسألك عنك، عني، عن خطّاب هل كنت أنت من حميتني منه؟! ولماذا؟! عن حقيقة إحساسك بي وسبب هذا الذي تفعله لي؟! لكنني كالعادة أجبن، ليس خوفًا منك، بل عليك، بالأدق على هذا الحلم الذي منحتني مفاتحه وأخشى أن تغلق أبوابه في وجهي من جديد.

- ماذا كان يعمل والدك؟!

تسألني باهتمام يعجبني، فأجيب وأنا أتلمس سلسلة عنقي دون أن أشعر:

- كان كل شيء، مهندس بناء، وكان يعمل بالزراعة في

حديقة بيتنا، وكان يدرّس الصبية القرآن والحديث، لا أعرف رجلاً جمع المهن هذه كلها في مهنة واحدة مثله.

- جابر كان كذلك.

- جابر هذا.. والدك؟!

أسألك بتردد خجول وقد سرني أن تشاركني أيًا من تفاصيلك الخاصة بعد تحفظك المعهود في الأيام الماضية، تشرد عيناك لتجيبني بهذه النظرة الزائغة التي تجد دومًا موقعها في قلبي، تصمت للحظات لا أقاطع قدسيتها التي استشعرتها بحدسي، تنفرج شفتاك أخيرًا فلا أكاد أصدق وأنا أسمعك تحكي لي كأنما تكلم نفسك:

- عمل فترة ما بفلاحة الأرض، وأخرى كبواب عمارة، وأخرى كان يعمل بالنقاشة وطلاء الزيت، هو أول من علمني قيمة اللون عندما يضاف للجدار الباهت فيمنحه رونقه، لكنه لم يكن ينال في المقابل سوى اتساخ ملابسه بالبقع.

تبدو لي كلماتك وكأنها تحمل ما يفوق معناها مع هذه المرارة التي صبغتها، لهذا عدت أسأل ببعض الإلحاح:

- لماذا تقول جابر وليس أبي؟! ألا تفتخر به؟!

يا الله! ليتني لم أتفوه بها!

ها هو ذا الحبل المتين ينقطع بيننا لتشتعل عيناك بنظرة لم أفهمها.

- لم أقصد إساءة، أقسم لك.. أنا فقط..

أهتف بها بصوت متحشرج وأنا ألعن غبائي لتزداد هذه النظرة في عينيك اشتعالاً، تخيفني فأنكمش مكاني مبتلعة بقية عبارتي لتأتيني كلماتك بعدها باردة كحد السيف:

- يكفي هذا اليوم.

تتكدس الدموع في عيني وأنا أشعر بمزيج الذنب والعجز، أقف مكاني بتخاذل فأراك تمد لي أناملك بالكتاب لأتناوله منك، أكاد أتفوه باعتذار آخر لكن نفس النظرة في عينيك تخرسني.

أتحرك لأغادر وأنا أشعر بنظراتك تكاد تخترق ظهري، لأول مرة أشعر بالخوف من غضبك، لكنني لم أود الاحتفاظ بكل هذه المشاعر تكويني حتى الغد، لهذا توقفت أخيرًا أمام الباب المفتوح لألتفت نحوك من جديد:

- هل أعود غدًا؟!

النظرة المشتعلة في عينيك تزداد سوادًا حتى أظنك ستخبرني ألا أعود من جديد، لكنك تغادر مقعدك لتتقدم نحوي ببطء يخيفني أكثر، نظراتك السوداء تتأرجح بين سلسلة عنقي و.. شفتيّ!

رباه! لماذا تبدو لي في هذه اللحظة أشبه بخطّاب؟! أغمض عينيّ برفض للخاطر الأخير، ثم أعاود فتحهما مع شهقة عالية وأنا أراك تغلق الباب لتحتجزني خلفه، بينما أناملك المرتجفة ترتفع نحوي!

(الظلمة الخامسة)

قلبي ضايع مين يلاقيه لي؟!

بايني نسيته حدا أهلي

***

* يونس *

***

- غياب المحاضرة القادمة بدرجة العملي كاملة!

أهتف بها بصرامة أمام طلابي في المدرج الذي خلا منها لليوم الخامس على التوالي بعدما كان بيننا آخر مرة.

أحاول التركيز في الشرح فلا تخذلني طبيعتي المحبة لهذا العلم، أنهي المحاضرة فألم أوراقي لأغادر المكان وأنا أشعر بهذا الإحساس الذي ظننتني وأدته في روحي يكتسحني.

الحنين!

تبًا لكِ يا ضيّ! ألم أخبركِ أنكِ تعبثين داخل أكثر مناطقي ظلمة؟!

لا زلتُ أذكر ذاك اللقاء الأخير بيننا، أخفتكِ؟!

تظنيني أخفتك في هذه الثواني عندما احتجزتك قسرًا في غرفة مكتبي؟! صدقيني لم يساوِ هذا شيئًا أمام شعوري بالرعب

وقتها وأنا أتبين أنني صرت أعرّي ماضيّ أمامك، انفلت لساني رغمًا عني وحدثتكِ عن جابر فلم أفق إلا على سؤالك، لماذا لا أدعوه أبي وكأنني لا أفتخر به؟ أنا الذي لا أفتخر به؟! أنا؟ أنا لم أعد أليق به يا غافلة، هم قتلوا ابن جابر ونجية، غرسوا نصالهم المسمومة في جسده ووقفوا صامتين يشاهدون نزفه حتى الموت، وما بقي مني لم يعد سوى عفن جسد ميت يأكله دود ظلمهم، وخطاياه هو.

تعلمين كيف مات جابر؟! من قال إن الرماد لا يحترق مرتين؟! أنا سأبقى أحترق بتلك اللحظات ما حييت.

صوت الأمين «مجدي» وهو يدخل علي في الحجز ويصفعني بقسوته.

- أبوك بالخارج يريد أن يطمئن عليك، لو كنت مكانك لرغبت أنا أن أطمئن عليه، تعلم أن الطقوس هنا لا تناسب رجلاً بسنّه.

ضحكته السادية بعدها توازي صرختي العالية وأنا أترنح بين سباب ورجاء، أهدده وأنا الضعيف الذي لم يكن له حول ولا قوة، ثم أتضرع إليه وهو الذي مات قلبه من زمن، يشد شعري فيكاد يقتلع جذوره، ثم يلكمني في وجهي ليصيب خاتمه عيني، تنزف كما كل جسدي المقيد، ولا يزال صوته الكريه يلدغني:

- اعترف بكل ما تعلمه عنهم، لا ذنب لأبيك المريض.

قيودي تُفكّ وأشعر بجسدي يُجرّ نحو الخارج، عيناي ترتويان بمرأى جابر يرمقني بنظرة لن أنساها ما حييت.

جابر - الذي كان يزعم أن الرجال لا يبكون- وقتها كان الدمع يكتسح عيونه، ممزقٌ بين عجزه وخوفه عليّ، أنا الذي لم أكن ابنه الوحيد فحسب، بل رأس مال عمره الذي لم يكنز غيره.

يبسط كفه فوق قلبه فيصرخ الخوف في عينيّ أنا، لا تسقط يا أبي، لا تسقط فيسقط بعدك كل شيء! لكن قلبه الضعيف لا يحتمل، يخرّ صريعًا ليخبو بريق عينيه للأبد، فيخبو معه نور عالمي كذلك!

صرخت وصرخت وصرخت، وددت لو كان يمكنني الوقوف على قدميّ حتى لأتوجه نحوه، لأزيح قدم مجدي التي وضعها على صدر «أبي» بجبروته المعهود، أجل.. وقتها كان جابر لا يزال «أبي» يا ضيّ.

المرئيات تتشوش وقتها في عينيّ، دموع.. دم.. دم.. دموع، تمتزج معًا في ستار غليظ يغشي بصري.

مات أبي يا ضيّ، مات ولم أحمل له نعشًا ولم أحضر له جنازة، حتى قبره لم أجرؤ على زيارته بعدما كان.

ألم أقل لكِ هم قتلوا ابنه وابن نجية، وما بقي منه الآن ليس سوى رماد متكوم في مثلث ظلماته؟!

ستلومينني لو علمتِ أنني لم أزر نجية منذ ذاك اليوم الذي قررت فيه أن أتعاون مع «مختار» وأبيع روحي لـ«الشيطان»!

كيف أفعلها؟! وقريتنا لم تعد أرضي التي ضخت الرجولة في عروقي، قريتنا صارت في عيني خيانة «كامل» و«قمر»، ونفاق «الشيخ غريب»، وطغيان «مجدي»، و... ظلمتي أنا!

أنا الذي صرت المزيج الأبشع من كل هؤلاء.

آه يا ضيّ! الليلة سأضمك - في خيالي - بل ستضمينني أنتِ لصدرك الرحب كروحك، سأحكي لكِ سري مع كل هؤلاء وكيف صرت بعدهم، ستربتين على ظهري تارة وتلعنينني تارة أخرى، ثم تهربين مني، تمامًا كما فعلتِ منذ أيام.

أفكاري تتقطع وأنا أرى صديقتك المقربة حبيبة تقف ضاحكة مع بعض زملائكما، فينهشني وحش حنيني إليكِ أكثر وأنا أرى الصورة تنقصك.

قدماي تتسمران في مكانهما، يأمرهما عقلي أن تتحركا لكن سلطان القلب الآبق يغلب الجميع، تلتفت صديقتك نحوي لتتجمد ضحكتها فجأة فيخفق قلبي بجنون، لا يعنيني أنكِ أخبرتِها عما فعلته يومها، كل ما يعنيني أن تكوني بخير.

- ضي ليست بخير، لا أدري ماذا بها، ترفض الحديث مع الجميع.

تقولها حبيبة التي تقدمت نحوي كأنما قرأت في عيني سؤالي، فيغوص قلبي بين ضلوعي وأنا أتذكر جنون فعلتي ذاك اليوم.

كيف تجرأت لأحتجزك خلف باب غرفتي المغلق؟! «اللجة

الزرقاء» في عينيكِ كانت تشدني للمزيد من الغرق، «الوعد الصامت» على شفتيكِ كان يصرخ هادرًا بمشاعرك، خوفي منكِ يدفعني للمزيد من التجبر، للسيطرة، كأنها نشوة انتقامي من قمر كانت لا تزال تبث السم في عروقي، لم أشعر بنفسي وقتها وذراعي يلتف حول خصرك ليلصقكِ بي، فتنغرس شهقتك الخائفة كخنجر مسموم في صدري.

أنا الذي لم أمس يومًا امرأة في حرام، حتى وسط سجن مثلث ظلماتي، فعلتها معكِ أنتِ!

لكنني كنت أشعر وقتها أنني سأموت لو لم أفعلها يا ضي، كأنني كنت أحتاج الإحساس بامتلاكك ولو للحظة كي أداري به خوفي، خوفي من فقدكِ، وخوفي منكِ على أماني في مثلث ظلمتي، خوفي من قربك، وخوفي عليكِ من مسخ يتلبسني.

لحظة واحدة لكنها كانت تساوي ألف عمر من خطايا يضاف لرصيدي الجديد.

لحظة واحدة تركتكِ بعدها تهربين، وتركت نفسي بعدها تحترق، تعلمين كم تؤذي النيران ظلماتي يا ضي؟!

- أخبريها أن حضور الغد بدرجة العملي كاملة.

لهجتي الباردة كانت أبعد ما تكون عن هذا البركان المشتعل بصدري، سيفٌ يشطرني نصفين أحدهما يصرخ بكِ أن اهربي، أنا آذيتكِ خلف باب ضمنا خلفه للحظة واحدة، فكيف لو

جذبتك معي لقاع ظلمتي أكثر؟! والآخر يهمس بكِ أن اقتربي، بل التصقي، امتزجي، انصهري، ذوبي فيّ ولا تبالي، فلعلّ نجدة أحدنا بغرقنا معًا.

آه! لو كنتِ معي في «هيولان»، مملكة الخلود، لعشتُ بكِ ألف حياة تبدأ وتنتهي عندك!

لكن ماذا عنكِ أنتِ؟! هل تستحق براءتكِ أن تنطفئ في مثلث ظلماتي؟!

أكمل اليوم بذهن مشوش، شهقتك الخائفة مني يومها تتكرر في أذنيّ بصدى مخيف، نظرتكِ اللائمة تمتزج بشبيهتها في عيني نجية فلا أكاد أميز بينهما، تعلمين كم تشبهينها؟! ليس شكلاً بل روحًا، كأن كلتيكما تغتسل في نهر براءة لا يجف نبعه أبدًا.

أغادر مبنى الجامعة ثم أستقل سيارتي، قديمًا كنت أحب التسكع في الشوارع ماشيًا على قدميّ، أراقب وجوه الناس وأستبصر قصصهم على وجوههم، لكنني الآن - وقد امتلكت سيارة- صرت أكره رؤية كل شيء هنا؛ النيل، المباني، الهواء، والناس، كلهم في عيني صاروا نسختين فقط لا غير، نسخة من جابر تموت تحت قدم نسخة أخرى من مجدي.

وأنا؟! أنا اخترت أن أكون نسخة مجدي، النسخة الأقل آدمية لكنها الأبقى.

(في قعدة الصبح ع الكورنيش..
في كوباية شاي إنها إيه..
في طيبة ناس..
في لقمة عيش تجمع الفقير والبيه..
على طول تلاقيك فاكرها)

ضحكتي الساخرة تتحرر عالية والكلمات تغادر مكانها لتصلني في سيارتي، أنظر عن يميني فأرى المرأة شاحبة الوجه تحتضن رضيعًا نائمًا وقد افترشت الرصيف تمد يدها للرائح والغادي بجلباب تقطعت أطرافه، وأنظر عن يساري فأرى المجمع التجاري الضخم تغادره بعض الفتيات اللائي تقطعت سراويلهن كذلك - إنها في موضة شهيرة الآن- وما يحملنه من أكياس لماركات شهيرة يشي بها دفعنه من مال.

«تجمع الفقير والبيه»؟!!

«الشيخ غريب» كان يقول أنهما يجتمعان في دار العدل في الآخرة، فلا حساب إلا للتقوى، هذا الذي - كنت- يومًا أؤمن به.. والآن.

- الله أكبر.. الله أكبر.

صوت الأذان يبدو وكأنه يخدش أذني في هذه اللحظة، فأسارع بتشغيل مذياع السيارة على كتاب صوتي أسمعه مؤخرًا يتعلق بأبحاثي.

يهيأ إليّ أن صوت الأذان يعاندني، يخترقني أكثر، فأعليّ صوت المذياع أكثر حتى يصل أقصاه.

تجتاحني صورة قديمة لي طفلاً يتعلق بجلباب جابر يسير به نحو مسجد قريتنا، يلصق قدمه الصغيرة بقدم جابر الكبيرة وهو يسمع العبارة «ساووا الصفوف وسدوا الخلل»، تتلوها صورة أحدث لي أصلي خلف «الشيخ غريب» بالآية التي طالما كان يرددها «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم».

وبين «سدوا الخلل» و«تُرهبون» كم سقطت من العمر سنون!

أصل لـ«قلعتي السوداء» كما يحلو لي تسمية بيتي، فأمارس طقوسي اليومية، مكالمة عابرة من دياب يطمئن عليّ كعادته، لم يعد أحد يهتم بي سواه و«مختار» بالطبع.

مختار يطالبني بسرعة السفر إليهم، لكنني لن أفعلها حتى أرتشف آخر قطرة من كأس انتقامي هنا، هو يشك أنني أخفي عنه شيئًا بخصوص أبحاثي الجديدة، لكن لماذا يشك في ولائي وهو الأعلم بي؟! أنا من سعيت إليهم وليس العكس، مؤتمر عالمي حضرته منذ سنوات والتقيت فيه «إيزاك» الذي رمى لي الطعم والتقطته بكامل إرادتي، لكن البحث الأخير الخاص بـ«هيولان» هذا بالذات لا أريد أن أشارك فيه أحدهم، لهذا أقوم ببعض التمويه، لماذا هو بالذات؟! ربما لأنه.. حلمي!

واحدة فقط تمنيت لو أشاركها إياه، أنتِ يا ضيّ.

تنهيدة حارقة تغادر صدري بعدما بدّلت ملابسي لأستلقي فوق فراشي، تنهيدة لو نطقت لصرخت أنني لا أعلم بالضبط ماذا أريد منكِ، ورطةٌ أنتِ يا ضيّ، ورطة غارقٌ فيها من رأسي حتى قدميّ.

النوم «اللطيف» يقتلعني من هواجسي ليلقيني في كابوس آخر من كوابيسي التي لا تنتهي، تظنين ساكن الظلام لا يخافه؟! أنا أخاف الظلام يا ضيّ وإن كنت قد صرتُ من أسياده.

جلباب جابر، شبح الموت حول عينيه، قدم مجدي التي تدهس روحي، دموع نجية، نظرتها العاتبة، جسد قمر العاري يتباهى بعهره، ذراع كامل فوق كتفها، لحية الشيخ غريب، شاربه المحفوف، ابتسامته المنافقة، نصل سكّينه في صدري، وأخيرًا مختار بذراعيه المفتوحين وبينهما تشتعل النار، كلها تتداخل ثم تترابط كحبل غليظ حول عنقي، يخنقني أكثر وأكثر.

أفيق من كوابيسي على صرخة مكتومة أدفنها في وسادتي كما اعتدت منذ زمن طويل، صرخة تفتقد العناق وأنّى لي هذا؟! والعناق من كنوزي الضائعة التي فقدتها في فردوسي الضائع بين ذراعي نجية، الفردوس الذي حرّمتُه على نفسي منذ قتلوا جابر، ماذا عساي كنتُ أخبرها؟! أنه مات بسببي؟! بل والأدهى أن كل هذا لم يكن قربانًا للجنة كما زعموا، بل أنهم كلهم.. كلهم

كانوا شياطين.

أنفض عني غطائي ومعه بقايا شظايا أفكاري، أؤدي طقوسي الصباحية المعتادة ثم أبدل ملابسي وسؤال واحد يجتاحني: هل ستأتين اليوم يا ضيّ؟! ليتكِ تفعلين! ليس من حقكِ أن تقلبي عالمي كله هكذا رأسًا على عقب ثم تبتعدي، عودي.. عودي ومعكِ كتابك وبقايا الطهر في ماضيكِ والمزيد منه في حاضركِ وغدك، عودي ومعكِ مفاتيح الحلم التي ظننتها استقرت في قاع ظلماتي للأبد.

لا.. لا.. لا.. ليتكِ لا تعودين، ابتعدي، اهربي مني قدر استطاعتك وسأهرب منكِ قدر استطاعتي، لعلني حين تخذلني نفسي تنصركِ نفسكِ أنتِ، «سرداب الظلال» بيننا يوشك جداره أن ينقض دافنًا كلينا تحته، فمن يملك القوة كي يقيمه من جديد؟!

***

* ضي *

***

- صرتِ بخير؟!

تسألني يافا بحنانها الذي لا يغادره الخوف كالعادة وقد رأتني أرتدي ملابسي استعدادًا للخروج إلى الجامعة فأجيبها:

- بكل خير، لا تقلقي.

أرسم مع كلماتي نفس الابتسامة التي واريت بها مشاعري عنها طيلة الأيام السابقة، وأنا أجاهد نفسي كي لا أخبرها بفجيعتي، لكنني اتخذت قراري ولن أخبرها به قبل أن أعود من الجامعة، قرار استقر عليه عقلي بعد تفكير هذه الأيام، ولا عزاء لقلبي المكلوم.

- نضال يريدنا أن نسافر إليه خلال أيام إجازتك، افتقدته وافتقدت غزة كلها.

تقولها بحنين جارف يكتسحني أنا الأخرى، لكن هذه الوخزة «المضاعفة» في صدري تصيب مني، كيف أعود لغزة فيجتمع عليّ ألم فقدي لأبي، وفقدي ليونس؟!

يونس! هل صرت حقًا تمنحني هذه الغصة في حلقي كلما تذكرت ما كان بيننا آخر مرة؟! هل كنتُ حقًا مخدوعة فيك إلى هذا الحد؟! كنت الوجه الآخر لـ«خطاب» خلف قناع متحضر؟! لماذا فعلتها يا يونس؟! ما الذي كان يدور في رأسِك وأنت تحتجزني هكذا خلف باب غرفتك لتفعل فعلتك هذه؟! أنت ضممتني يا يونس، لا ضمة المحب الهانئ بحلاله بل ضمة المغتصب الخائف، أتعلم بماذا شعرت في هذه اللحظة الغادرة؟! نفس الخوف الذي كان يغشاني وأنا أعيش إحدى تلك الغارات على بيت أبي منذ سنوات، لقد صرت أخافك يا يونس، فهل يجتمع الخوف والعشق في قلب واحد؟!

أنت خذلتني، لكن قلبي الأحمق لم يخذلك، يلتمس لك من يومها ألف عذر، يختلق ألف قصة،، إنها عقلي له بالمرصاد، لماذا وضعتني في هذا الصراع بينهما؟! ياللخسارة! ظننتك الوطن الذي استعدته بعد فقدي لأبي، فكيف أصبحتَ صورة أخرى لعدو غاصب؟!

- ما رأيك؟!

تنتزعني بها يافا من شرودي فتتسع ابتسامتي المصطنعة وحديثها يعزز قراري الأخير الذي لن أتراجع عنه، أمنحها موافقتي بلهفة اصطناعية ثم أتناول حقيبتي لأغادر.

- ألن تأخذي هذا؟!

تهتف بها مشيرة لـ«كتاب» أبي الشاهد علينا، فتمتلئ عيني بالدموع وأنا أهز رأسي نفيًا لأجيبها أنني... لم أعد بحاجة إليه.

كاذبة أنا يا يونس، كاذبة ومخذولة، كنت أعلم أن «مرآة روحك» مكسورة، لكنني لم أتوقع أن تصيبني أنا شظاياها، هل كنت مخدوعة فيك حقًا طوال هذه الأيام؟! هل كنت «ليلى» الساذجة التي خدعها الذئب؟! أم أن «الذئب» سيُبكيني على حاله لو روى لي الحكاية بطريقته؟!

حبيبة أخبرتني عن تهديدك المستتر أن حضور المحاضرة اليوم يساوي الكثير من الدرجات، ورغم شعوري بالمزيد من الخوف منك لكنني سأحضر، لا لمواجهتك، بل للمزيد من

الهروب، لا ريب أنك ستعلم عن قراري الجديد، لكنني لن أكون متاحة أمامك وقتها كي تجادلني فيه، لو كانت لك رغبة أصلاً في المجادلة.

شرودي يبتلعني طوال الطريق في الحافلة، لم أستمع لفيروز اليوم، خاصمتها كما خاصمت أيامي منذ خاصمتك، قلبي يخفق بجنون كلما اقتربت من مبنى الجامعة، لكنني أتشبث بسلسلة أبي في عنقي، رمز أماني.

يا للعجب! حتى وسط خوفي منك رمز أماني نفسه يشبهك!

أسير نحو المدرج منكسة الرأس، أتخذ مقعدي جوار حبيبة لأتلقى ثرثرتها العابثة بأذن صماء، الصمت المهيب حولي فجأة يجعلني أدرك أنك وصلت، لكنني ولأول مرة لا أرفع عيني إليك في حضورك، ليكن وداعنا الأخير هكذا دون نظرات، لعله يصير أسهل.

صوتك الحبيب يصلني أخيرًا عبر الميكروفون، فلا أملك تراكم الدموع في عيني وأنا أتشبث بسلسلتي أكثر، أسمعك تنادي أسماء عشوائية تتأكد من حضورها، فأوقن أن الدور قادم عليّ، أسمع ارتجافة صوتك باسمي أخيرًا فأقف مكاني صامتة عاجزة عن النظر إليك، وعن الكلام، وحده قلبي كان يرقص رقصة وداعه الخاصة بين ضلوعي، أعاود الجلوس لتبدأ أنت الشرح وأبدأ أنا المزيد من الهروب، ذكرياتنا معًا تجتاحني بلقاءاتنا

الأخيرة معًا، كيف اقتنصت منها نظراتك، كيف تعلمت أن أقرأ نبرة صوتك، أن أتوقع ردود فعلك، أن أقترب منك كي أفهمك، حمقاء كنت يا يونس، فلا تلم حماقاتي.

تنتهي المحاضرة فأنتظر حتى أتأكد من انصرافك، أودع ظهرك بنظراتي المشوشة بدموعي، أعتذر من حبيبة للانصراف دون أن أخبرها عن قراري، أتخذ خطواتي نحو تلك الغرفة بعينها كي أنفذ ما عزمت عليه.

أخرج أخيرًا من الغرفة وأنا أشعر بأنني قد أزحت عن كاهلي وزرًا ووضعت مكانه مائة.

لقد أجّلت دراسة مادتك للعام المقبل الذي لن أكون فيه هنا، أجل، سأنقل أوراقي من الجامعة كلها وسأبحث عن عذر ألقيه على مسامع يافا.

أغادر مبنى الجامعة شبه راكضة كأنني أهرب من كل شيء حتى نفسي، أستقل حافلة بعيدة الاتجاه عن بيتنا عامدة كي أطيل مكوثي فيها، أسند رأسي إلى زجاج نافذتها وأفكر، هل خرجتُ الآن عن سطوة تهديدك؟! هل يمكنني الآن ألا أخاف منك؟! هل أستطيع فقط أن أبقيك حلمًا يحتضن لياليّ الطويلة حتى وأنا أوقن أنه ليس لي وأن أول شعاع للشمس سيخفيه؟!

تستقبلني يافا بدهشة من عودتي المبكرة، فأتصنع المزيد من المرح الذي يبدد مخاوفها، أشاركها تحضير الغداء في المطبخ

فتشاكسني بقولها المعهود:

- لمي شعرك هذا كي لا يدخل في الطعام.

- أنتِ التي ترفضين أن أقصّه، بالله عليكِ، إن طوله مبالغ فيه حقًا، يضايقني.

- أمي رحمها الله كانت تقول إن شعر البنت أمانة كشرفها، تزوجي وافعلي به ساعتها ما يحلو لكِ.

- وماذا لو رزقني الله برجل يحبه طويلاً مثلك؟!

- ساعتها يكون قدرك أن تنتقلي من طاغية لآخر.

- طاغية! أنتِ أطيب قلب في الدنيا يا عمتي.

ضحكاتنا تمتزج فأتعمد علو صوتها لعلها تطغى على وجيب قلبي الصاخب بدقاته.

رنين هاتفها يقاطعنا فأسمعها تحدث نضال، تخبره بشوق عن زيارتنا المرتقبة، فيتأرجح قلبي بين رضا خفي عن المزيد من هروبي منك، وبين اختناقي بإحساسي أنني أهجرك بكل ما تحمله لي من معاني الوطن.

أسمع صوت رنين جرس الباب فأتوجه نحوه كي أفتحه تاركة لها المزيد من الخصوصية للتحدث مع نضال، أرتدي حجابي على عجل ثم أفتح الباب لأصطدم بوجهك أمامي.

يونس! أنت حقًا هنا؟!

* * *

(الظلمة السادسة)

ينفع أحبك من غير قلبي؟!

ما تردوا عليها وعليا

***

* يونس *

***

- ذهبتَ لبيتها يا يونس؟!

صوت دياب يصلني من بعيد كأنه صدى أجوف، تمامًا كصوت الريح الآن حولنا في هذا المكان المنعزل الذي اعتدنا اللقاء فيه.

الريح تنخر في جسدي المرتجف، يحالفها الآن سقوط المطر، فليهطل بقوة لعله يداري هذه الدموع اللعينة التي تعاند حراس جفوني، يلومني أن ذهبت لضيّ بعدما علمت المصيبة، المصيبة التي كنت أخشاها طوال هذه السنوات، أخشاها بقدر ما أنتظرها انتظار المذنب لحكم إعدامه.

ماتت نجية.

ماتت ميتة سوية كما كنت أسمعها تدعوها دومًا، يقولون إنها ماتت متوضئة بعدما صلت العشاء، يقولون إن وجهها كان

يستقبل القبلة بابتسامة خلاص، يقولون إنها - رغم غضبها عليّ- كانت تدعو لي، يقولون ويقولون، كل ما أعرفه عنكِ يا «أمي» صرت أستقيه من أقاويل الناس! أمي! سأسمح لنفسي أن أودعكِ بها للمرة الأخيرة بعدما ودعتكِ من قبل آلاف المرات.

- لماذا يا يونس؟! إلى هذا الحد؟!

المزيد من صدى دياب الأجوف يردني لبعض وعيي فألتفت نحوه بتشتت، كيف مرّ اليوم الثقيل عليّ بداية من رؤيتي لضي، ضيّ! تراكِ حقًا تتسربين من بين أناملي كآخر شربة ماء يرتجيها ظمآن؟!

اليوم رأيتكِ كما لم تكوني من قبل، منطفئة ذابلة، والأدهى عيناكِ العاشقتان تهربان مني، لأول مرة أشعر بهما تهويان كنجمين محترقين تاركتين خلفهما ظلمة تشبه ظلمتي، وكم أشفق عليكِ من ظلمة تشبه ظلمتي! كنت أراقبكِ خلسة لأجدكِ تهرعين لتلك الغرفة بخطوات راكضة فأقرأ قراركِ قبل أن أعلمه، لقد قررتِ الرحيل، لم أعلم وقتها هل أهنئكِ على ذكاء اختياركِ أم أعاتبكِ على قصر نفسكِ في معركتنا التي هي معركة النفس الطويل!

عدت بعدها لغرفة مكتبي، أغلقت بابي، فتحت زر قميصي، تلمستُ ندبتي البشعة هلالية الشكل التي أحدثتها بي يومًا سكين «الشيخ غريب» بضربة ثلاثية، كلماته تُبعث من قبر الماضي تجلدني من جديد، وقد أتاني ثائرًا هاربًا بعد وشايتي - القسرية- بهم:

- لستَ رجلاً، سوّد الله وجهك كما سودت وجه شيخك، ماذا لو مات أبوك؟! ماذا لو مات كل أهلك؟! قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار.

كانت هذه آخر كلماته لي قبل أن يهرب من أمامي فلم أعلم بعدها عنه شيئًا، بل علمت، علمت كل شيء.

«مجدي» أخبرني بوده الزائف ورضاه المستحدث عني بعدما أجبرني أن أعترف بكل ما أعلمه، أخبرني أنهم ألقوا القبض على جماعة الشيخ غريب، وأنهم تأكدوا أنني ضحية خداع أولئك الناس، أخبرني أنه في الوقت الذي كنت أتكتم فيه على أسرارهم محتملاً عذابي هنا كانوا هم من باعوا رفقائي في عمليات إرهابية أودت بحياتهم فيما نجوا هم بأعمارهم، بل إنه اعتذر لي عن موت أبي كأنه يعتذر عن أنه قد داس قدمي بحذائه، أخبرني بحماس مصطنع أن ما فعلته من وشايتي بهم لم تكن خيانة، بل قربانًا للوطن، وأن شابًا ذكيًا مثلي سيعي الدرس ويلتفت لطموحه ومستقبله مبتعدًا عن دعاة الدين الكاذبين هؤلاء.

ووعيت الدرس، وعيته بأكثر مما يجب يا ضيّ.

فهمت أنهما - غريب ومجدي- لم يكونا سوى جدارين تناطحا بقوتيهما حتى سحقا جسدي بينهما، فهمت أن كليهما كان يدعوني للإيمان به فلم أزدد بهما إلا كفرًا، شكرت الحظ الذي عصم يدي من دماء أبرياء كانت لتلوثها، لكن ماذا عن دم

جابر؟! من يحمل وزره؟!

الخيانة - التي وضعت قمر أولى زواياها- وضعا هما زاويتيها الثانية والثالثة، ليتركوني سجين مثلث ظلماتي، الحب، الوطن، والدين.

الحب الذي هجر طهر أرضي ليرتمي عاهرًا بين ذراعي المال، الوطن الذي قتل حماته أبي، والدين الذي لم يكن سوى قناع آخر لشياطينهم فلم يشفع إيماني وصلاتي لي ولا لجابر.

وتأتين أنتِ!

فيزداد محيط مثلثي ضيقًا وتزداد أنفاسي فيه اختناقًا.

والآن ترحلين؟!

ترحلين يوم رحيل نجية، نفس اليوم بالذات! كأنكِ تغرسين النصل في قلبي أكثر! هل كانت مصادفة أن أعلم خبر نجية بعد رحيلكِ مباشرة لأشعر أن الأرض تحت قدمي تهتز، فأسقط؟!

أتذكر لعنتي التي تحرمني وداعها الأخير، فأسقط.

يلعنني جبني، فألعنه، يصارعني قلبي فأقاومه، يجتاحني طيف جابر عاتبًا فأشيح بوجهي عنه، يرجّني طيف نجية، يزلزلني، يعتصر كتفيّ بقوة كما كانت تفعل وأنا بعد طفل صغير قد أتاها مذنبًا، فلا أقوى على المزيد من المكابرة.

أسقط، وأسقط.

يقولون إن من في القاع لا يخشى السقوط، فكيف لمثلي أن

يسقط إلا لو كان قاع ظلماتي يخونني كذلك كما فعل الجميع؟!

- تحدث إليّ يا يونس، أشعر جيدًا بهذا الحزن الذي يملأك، لقد فكرتُ ألا أخبرك، لكن..

صوت دياب يحاول انتشالي من دوامتي من جديد دون جدوى،

عمّ أتحدث يا ضي؟! عن هذا الفراغ الكبير الذي صار بصدري بعد رحيل نجية هكذا؟! لن أصف لكِ شعوري بالذنب، بالحزن، بالوجع فكل هذا ألفته حد الإدمان.

بل سأصف لكِ شعوري بالغدر، أجل، طالما ظننتني قد حصنتُ نفسي من ضربات القدر، فيباغتني كل مرة بضربة أشد قسوة مما سبقتها.

عمّ أتحدث يا ضي؟! عن صورة نجية التي التصقت بعيني من وقتها، عن فخرها بي صغيرًا وخيبتها فيّ كبيرًا؟! عن ملامحها التي ضاعت مني وسط كل ما ضاع؟! عن آخر كلماتها التي أرسلتها لي مع دياب، «ارجع لدارك»؟!

تسألين بعدها لماذا تصرفت بهذا الجنون وأتيتكِ حتى باب بيتكِ؟! كنتُ أطيعها لآخر مرة في حياتي، هي قالت ارجع لدارك، وأنتِ صرتِ داري.

بعدما لفظتني قريتي ولفظتها، صرتِ أنتِ كل داري يا ضي.

تظنينن من السهل أن أعترف بهذا، أن أطرق بابك دون

موعد، أن أواجهكِ بدمع عيني، بمرارة فقدي، بعقم صمتي، وبسيف ذنبي؟!

أن أراكِ بذاك الثوب الفلسطيني الذي يحمل ألوان علم بلادك فتشتعل أعماقي بالمزيد من نيراني، ألم أخبركِ من قبل كم تؤذي النيران ظلماتي؟!

أن أقف أمامك خاوي الكفين، إنما كيل الوجع مني قد فاض حتى سال على جوانب روحي.

أن تعانقني نظراتك بخوف، بلهفة، بدهشة، فلا أجيبك وقتها إلا بمصيبتي:

- نجية.. ماتت.

- أمك؟!

تهمسين بها بلوعة وقد أخبركِ حدسكِ عمن تكون، تقتربين مني خطوة بعدها ثم تتوقفين مكانك، تسمعين صوت عمتك تقترب فتتشتت نظراتك بالمزيد من الخوف والألم، ثم.. يغلق بابكِ في وجهي.

أسمعها خلف الباب تسألكِ عن الطارق فتجيبينها بتلعثم:

- خطأ في العنوان.

أتراكِ كنتِ تكذبين؟! ما أظنكِ صدقتِ في وصف ما بيننا كما فعلتِ ساعتها.

- ما الذي تنتويه يا يونس؟! لم أعهدك مشتتًا كما حالك في

هذه الأيام.

يقولها دياب أخيرًا بإشفاق يمتزج بنكهة تحذير خفية وقبضتاه تشدان على كتفي بمؤازرة دون أن يضايقه صمتي الذي اعتاده، فأرفع إليه عينيّ الدامعتين، أنتِ لم تعودي خيار رفاهية يا ضيّ، بل صرتِ حاجة تنهش جسدي من فرط رغبتي فيها، فلتكوني لي ولو لأيام، أيام فقط، أستعيد بكِ توازني وصلابة الأرض تحتي، وبعدها أعدكِ أن أتركِكِ لنقاء عالمكِ وأغادر.

أنانية؟! ربما، أكاد أسمعكِ تصرخين فيّ أن ليس عدلاً أن أدنيكِ وأبعدكِ كما أشاء، لكن، مهما حدث بيننا فقط تذكري، بعض النصال ذات شفرتين، تؤذي صاحبها قبل أن تؤذي رفيقه، ولا حيلة لي فيكِ -يا وطني- إلا أن أجرحكِ وأجرَحَ بكِ.

* * *

* ضي *

* * *

- أسعد يوم في حياتي يا عمتي.

أهتف بها بفرحة تكاد توقف قلبي وأنا أقف معها خلف باب غرفتي المواربِ أراقب يونس يجلس في صالة بيتنا مع نضال و.. المأذون.

الأصوات تغزو أذني من الخارج فأغمض عينيّ برهبة طبيعية تمتزج بفرحتي.

لا أكاد أصدق أنه قد مضى ثلاثة أشهر فقط منذ رأيت يونس هنا واقفًا على بابي، مفاجأة لم أتوقعها لكن تفسيرها كان الأقسى، ماتت أمه، لم أحتج منه لاعتراف بعدها بمشاعره نحوي، الرجل لا يهرع لبيت فتاة لا تربطه بها صلة كي يخبرها عن مصيبته إلا لو كان يحبها.

لهفي عليك يا يونس! يومها بكيت عليك كما لم أفعل في حياتي من قبل، فجيعتك ذكرتني بمصابي في أبي، ورغم فارق السن الذي يفترض أن يخفف عنك بلاءك لكنني شعرت بك وقتها تشبهني، نفس النظرة الضائعة في عينين فقدتا أمانهما للأبد.

يومها تمنيت لو تدنيني أكثر، لو تحكي لي، لو تكشف اللثام عن ماضيك كاملاً فتسكبه بين ذراعيّ آهاتك وبقايا دموعك.

يومها سامحتك من كل قلبي على ما كان منك، لأدرك أنك مهما فعلت فلن يعرف قلبي لك إلا الحب.

يومها أغلقت بابي في وجهك خوفًا من يافا، لكنك فتحت لنفسك بابًا آخر عندما فوجئت بك بعدها تتقدم لخطبتي.

يافا لم تكن مقتنعة تمامًا لفارق السن الكبير بيننا، لكن إحساسها بحبي الجارف لك شفع لنا.

نضال؟! أبدى تحفظه في البداية - عقب عودته المؤقتة إلى هنا- لأجل ظروفك الاستثنائية، ما يردده الناس حول عزلتك، غرابة أطوارك، السنوات التي قضيتها في سفرك لإيطاليا، لكنه - للعجب- وافق بعد جلستين فقط معك، قال لي بعدها أنك.. رجل يؤتمن عليّ!

- هل تبكين يا عمتي؟!

أهمس بها بنبرة متحشرجة تكشف همّي بفعلها أنا الأخرى، لكن يافا تضمني إليها بقوة لتهتف محذرة بحنانها الصارم:

- إياكِ! أنا أبكي، أنتِ لا، لا جعل الله لكِ نصيبًا في دمع العين إلا فرحًا، وحتى هذه ممنوعة الليلة.

- تخافين فراقي؟! ظننتكِ ستسعدين بالتخلص مني لتسافري لنضال دون وخز ضمير.

أقولها لها مشاكسة رغم علمي بما سترد به:

- يا ويل قلبي المقسم بينكما! لو كنت أعلم أنكِ في النهاية ستتزوجين رجلاً يقاربه عمرًا لزوجته لكِ من البداية.

- لهذا كنتِ تتحفظين على سن يونس؟! لو سمعتكِ زوجة نضال فستقتلني رميًا بالقباقيب.

أهتف بها ضاحكة دامعة العينين من الفرحة، فتمط يافا شفتيها باستياء مصطنع بينما أعود أنا لضحكاتي وأنا أرمقك خلسة بنظرة طويلة صارت من حقي.

ملامحك لا تزال محتفظة ببرودها، جسدك مشدود في جلسته إلا من كفيك المرتجفين، عيناك متواريتان كعهدهما خلف نظارتك الطبية وقد أسبلت جفنيك فأحترق شوقًا لملاقاتهما عن قرب.

- اسمعي، عقد القران هذا لا يعني شيئًا، لا خروج معه ولا دخول إلا بعد الزواج الذي لن يكون إلا نهاية هذا العام، لو أراد رؤيتك فليكن هذا هنا، أمام عيني، تفهمين؟!

تقولها يافا محذرة فأبتسم بخجل وأنا أعاود النظر إليك

من جديد.

صوت الزغاريد يعلو فلا أنتبه إلا ويافا تنهر النساء بحزم مراعاة لوفاة والدتك حديثة العهد، أرى نضال يقف ليتوجه نحونا فتتأهب حواسي، تحيط يافا كتفيّ بذراعها بحنانها الداعم، يهنئني نضال بنظرته الشبيهة بأمه، فأتوسطهما لأتحرك إليك.

(أويها جيت أغني وقبلي ما حدا غنى،
أويها بقاع وادي فيه الطير بيستنى،
أويها وريتك يا يونس بهالعروس تتهنى،
أويها وتظل سالم ويظل الفرح عنّا)

نساء الحي يرددن «المهاهاة» الفلسطينية مجاملة ليافا التي أشرق وجهها وهي تصفق بها معهن للحظات قليلة كأنها تحيي بها تراثنا قبل أن تعود لسابق عهدها بالتحفظ.

تتقدم إليك لتمنحك ببعض التردد «كوفيّتنا» المميزة بلونيها الأبيض والأسود، وقد طرزت بنفسها اسمينا على طرفيها، تلفها حول عنقك فتتسع ابتسامتي بهيام.

ملامحك تظل جامدة فأفسرها بوقارك المعهود لكن رجفة كفيك ترضيني، ترفع عينيك أخيرًا نحوي، تتسعان قليلاً فتبدوان لي بحجم الدنيا كلها، تمد كفك نحوي فيما بدا كمصافحة لكنني لا أدري لماذا شعرت بها وكأنها تشبث غريق بطوق نجاته، تتلاشى الأصوات العالية من حولي فلا أكاد أسمع سوى صوت خفقات قلبي، أجلس جوارك فتلبسني دبلة حملت اسمك، لأدرك حينها أني ملكت العالم كله حول إصبعي.

وأخيرًا يتركوننا وحدنا لدقائق أثق أن يافا لن تجعلها تطول، ترفع إليّ عينيك بهذه النظرة العميقة ولا يزال كفك متشبثًا بكفي، تنفرج شفتاك كأنك على وشك الحديث لكنك تعاود إطباقهما بقوة.

- أحبك.

تخرج مني قوية متماسكة رغم ارتجاف شفتي وجسدي الذي يكاد يرجني مكاني، فتتسع عيناك أكثر، ويزداد تشبث كفك بي أكثر وأكثر، أعيدها ثلاثًا لتمتزج في الأخيرة مع اسمك:

- أحبك يا يونس.

أغمض عيني بعدها كأنما بذلت مجهودًا خرافيًا لتهتز نبرتي رغمًا عني:

- قد تظن أني قليلة الحياء لأنني بادرتك بهذا الاعتراف هكذا دون أي تحفظ، لكنه نذري وأردت أن أفي به.

- نذرك؟!

يصلني صوتك أخيرًا عبر عيني المغمضتين فتمتزج دمعة غادرة مع ابتسامة خجلى على شفتيّ:

- نعم، عاهدت نفسي لو رزقني بك الله في الحلال أن تكون هي أولى كلماتي لك، هي ولا سواها، هي وأكررها ثلاثًا، وأدعو الله ألا يحرمني نطقها أبدًا، قد تظنه مجرد إعجاب برجل يشبه أبي، قد تظنه مجرد انبهار برجل يحكي الجميع عن عبقريته، لكنني أثق بشعور قلبٍ كقلبي شيّبته الأيام قبل أوانه، قلب يؤمن بحبك كما يؤمن بدينه ووطنه.

ضغط أصابعك يزداد حول كفي حتى أشعر ببعض الألم،

فأفتح عينيّ لتروعني هذه النظرة في عينيك، نظرة لم أفهمها من فرط ما صرخت به من تناقض، تدنيني وتقصيني، ترجوني وتهددني، تطمئنني وتخوفني، يالعذابي بكِ يا يونس! هل ستبقى هكذا صندوق أسرار مغلقًا تحيرني نقوشه ولا يسعني فتحه؟!

- ألن تتكلم؟!

الصمت الثقيل يفرض نفسه بيننا للحظات تسبق قولك بصوت متحشرج:

- تأقلمي مع طبعي، كلامي قليل.

- قليلك يكفيني.

أهمس بها بكل ما أوتيته من عاطفة فتردها لي عيناك بمثلها وأكثر. إلا أن عاطفة نظراتك لم تكن تشبه خاصتي، عاطفتك مختنقة بهذا الحبل الغليظ الذي لا أراه لكنني أشعر به، تظنني أحتاج لحديثك؟! لاعتراف منك يشبه اعترافي؟! لا يا يونس، ما جدوى الحب الذي يفيض لك في قلبي إذن لو لم يقرأ خبيئتك دون بوح؟!

أعلم أنك لا تزال متأثرًا بموت أمك، لم تخبرني، لكن هذه النظرة المكسورة في عينيك، تهدل كتفيك المستحدث، دمعة بعيدة تتوارى في جانب جفنك، كلهم أخبروني.

- مبارك يا عريسنا، لعل طعامنا يعجبك.

تهتف بها يافا بحنانها الدافئ وهي تقتحم خلوتنا أخيرًا لأسحب كفي منك بحركة عفوية، فترتعش عيناك بنظرة خائفة كمن فقد كنزه فجأة، نظرة أرضتني ورسمت ابتسامة على شفتي.

- تعرف «المفتول»؟! «زاكي» والكل يحبه بفلسطين، لكن

إذا لم ترغب فيه، أعددت لك «سفرة» مصرية، سمّ الله يا ابني وكل.

أنظر إليك فيهيأ إليّ أن «شبه ابتسامتك» تولد ببطء على شفتيك مع نظرتك الشاردة وأنت تتحرك معي نحو مائدة الطعام القريبة ثم تجلس جواري، عيناك تتساءلان عن طبق «المفتول» فيجيبك نضال ببساطة عن محتوياته من السميد والطحين و«اليخنة»، فتلتقط منه يافا طرف الخيط وهي تشرح لك كيف يتم طهوه.

أختلس نظرة جانبية نحوك تشعرني أنك تعيش الآن صراعًا لا أفهمه، تبدو لي دومًا - رغم هيبة مقامك- كطفل ضال فقد أهله ويبحث عن بقايا أطيافهم، ويزداد شعوري بهذا الآن وأنا أرى حفلنا البسيط لم يحضره سوى صديقك المقرب دياب فحسب، والذي انصرف بسرعة بعد إتمام عقد القران، إلى هذا الحد أنت وحيد يا يونس؟! لا، لا، لا عاشت ضي ولا كانت إن تركتك لوحدتك.

أبتسم بالمزيد من الارتياح وأنا أراقب حديثك الجدي مع نضال، استجابتك لتناول الطعام الذي تكدسه لك يافا في طبقك، تبدو مفتوح الشهية وكم يسعدني أن أراك هكذا وسط عائلتي الصغيرة.

يالله! لا أصدق! صرت حلالك يا يونس، صرت لك وصرتَ لي!

(الظلمة السابعة)

يونس في بلاد الشوق

***

- خطبت؟! وفلسطينية أيضًا؟! فاجأتني.

صوت مختار الذي يمزج استنكاره بمكره لا يثير ضيقي، لكنني - للعجب - أشعر بالغيرة، مجرد حديثه عنك يشعرني بعدم ارتياح لا أراه منطقيًا، ومنذ متى كان كل ما يتعلق بك منطقيًا؟!

- لن أتدخل في شئونك الخاصة يا يونس، ولو أن ما بيننا يسمح لي فأنت صديقي، لكنني سأنصحك ألا تتسرع في هذا الأمر، وجودها في حياتك سيعيدك لذروة صراع حسمته أنت منذ زمن، أنت لست رجلاً عاديًا وتحتاج لكل ذرة تركيز، نحن لم نقصر معك في أي شيء طلبته، ونتوقع ألا تقصر معنا أنت كذلك، لا أجد داعيًا لتضييع كل هذه الشهور عندك في جامعتك الهزيلة التي لن تفيد أبحاثك في شيء.

هكذا هو مختار دومًا، يعرف كيف يضرب ويلاقي كما يقولون.

«إيزاك» أوصاهم بي بعد لقائنا في ذاك المؤتمر بلندن، تقربوا مني بداية على استحياء، لكنني من دفعت خطواتي المهرولة إليهم، كانوا فرصتي الذهبية لتمويل أبحاثي، ماذا يعنيني في جنسيتهم؟! علمونا صغارًا كيف نفرق بين اليهود كأصحاب

ديانة وبين الإسرائليين كعدو مغتصب، لكنني لم أكن أفقه الفارق بينهما، وكبرت ليستمر جهلي بهذا الشيء، جهل لم يؤذني كثيرًا في الواقع، فقد تحررت من كل قيودي ودخلت صاغرًا مثلث ظلماتي دون رجعة، حيث لا ولاء لدين ولا لوطن ولا لحب، ماذا يضيرني إذًا لو كان مختار - ومن خلفه- هم من يدعمونني، ما دام عرضه دومًا هو الأفضل؟!

أغلق معه الاتصال بوعدي أن أنهي شئوني في مصر بأقرب فرصة كي أسافر إليهم، ليأتيني الاتصال بعدها من دياب:

- تعلم أن الشيخ غريب خرج من السجن؟!

إذًا غريب خرج من السجن بصفقةٍ ما يجيدها من هو مثله مع القيادات، خرج ولم ينل سوى سنوات من السجن، فيما مات جابر دون جريرة، ودون أن يبحثوا عن سبب موته كأنه مجرد قطة ضالة لقيت حتفها في شارع مظلم.

الآن أشعر أنني أُغرَس من جديد في هذه الأرض التي انفجرت داخلي ألغامها منذ زمن، الشيخ غريب وجماعته، الحماس الفائر لشاب مثلي وقتها كان يرى فيهم قدوته، البذرة النقية التي غرسها جابر ونجية داخلي لكنهم هم من سقوها بمائهم الملوث فكان النبت مسمومًا بخطاياهم، خطوة تلو خطوة ووجدت نفسي أسير قناعاتهم، قبل أن أدرك أنني لم أكن ومن شابهني سوى كباش فداء لعنق كبيرهم، تفاصيل لا أريد

أن أتذكرها، بداية من اجتذابهم إليّ بأحاديثهم السمحة الشيقة حول الدين، مرورًا بحلقات كانت تجمعنا لحفظ القرآن وتدبّر الحديث، وانتهاء بلقائي بالشيخ غريب الذي كان - للمفارقة - يزعم أنه ينتمي بأصوله لقريتنا.

قمر، كامل، غريب، بل ومجدي كذلك، كلهم كانت تنتمي أصولهم - مثلي - لقريتنا في مصادفة عجيبة، فلا عجب أن اقتلعت جذوري منها إذن دون رجعة وقد رأيتها دومًا قِبلة للخيانة.

- تعرف عنوانه؟!

- وعدتك أن أكمل معك طريق انتقامك.

عبارة دياب تحمل مزيج الرد بالإيجاب وتجديد عهد صداقتنا، فأكز على أسناني بغضب وأنا أتحسس ندبة صدري الهلالية، أتذكر موت جابر الذي كان صنيعة شيطان وقربانًا لآخر، أتذكر سجني بعدها في مثلث ظلماتي، كفري بكل راياتهم المرفوعة، وأتذكر موت نجية بعيدةً عني غاضبةً عليّ.

- أعطني إياه.

- ماذا؟! ستختلق له فضيحة كقمر؟!

- بل أسوأ.

- سأنصحك فقط ألا تتمادى كي لا تبكي لاحقًا على اللبن المسكوب.

ليته كان لبنًا مسكوبًا يا دياب! هو عمر مسكوب، هوية

مسكوبة، كيانٌ بأسره مسكوب.

أغلق معه اتصالنا ثم أهرع نحو سيارتي بالخارج، أتوجه نحو العنوان الذي منحني إياه، ها هو ذا غريب.

لم يعد الشيخ غريب، حلق لحيته وصار يرتدي «ثياب الفرنجة» التي طالما نهانا عن ارتدائها، بواب عمارته يحمل له حقيبة سفر كبيرة، يبدو أنني قد وصلت في الوقت المناسب قبل أن يغادر الفأر سفينته الغارقة.

أتناول هاتفي لأجري اتصالي بدياب أخبره بما يدور في رأسي فهو يتولى هذه الأمور عني.

تمر الساعات بي ثقيلة بعدها وأنا أحاول إلهاء نفسي بقراءة أحد المراجع التي تتعلق بأبحاثي والتي أحتفظ بها عادة في السيارة، حتى يصلني صوت دياب الظافر:

– تمّ.

تلتمع عيناي بظفر ونشوة الانتقام تضخ المزيد من الأدرينالين في عروقي، أعاود قيادة السيارة نحو المكان المتفق عليه، أتوقف بها في تلك البقعة في العراء حيث وقف دياب مع رجاله في حلقة توسطها جسد غريب المقيد بفمه المكمم، هذه الحلقة التي اخترقتها لأرمقه بهذه النظرة التي تشبعت بسم حقدي كاملاً:

– تذكرني يا شيخي؟!

تتسع عيناه ما بين حيرة ورعب، فأردف بصوت ممزق بين أنياب الذكرى:

- ليس بمظهري الأنيق هذا، بل بثياب لوثها العرق والتعب، بملامح بريئة توسمت فيكم صدقًا، بصرخة كتمتها قسرًا تنعي أبي، وبهذه يا «شيخي».

أقولها كاشفًا عن ندبة صدري الهلالية، فيبدو التذكر على وجهه متوازيًا مع انطلاقة تأوهاته المكتومة وهو يحرك جسده يمنة ويسرة محاولاً تخليص نفسه.

- تشعر الآن بمذاق الصرخة المكتومة؟! القيد الذي يشل جسدك؟! لا ينقصك سوى هذه كي تدرك الشعور الذي منحتني إياه.

يعلو صوته كعواء ذئب جريح ولا يزال يتلوى مكانه، فأرتدي قفازيّ أمام عينيه المرتعبتين، ثم أتناول من دياب ما أعصب به عينيه بإحكام، قبل أن أعاود استقامتي لأرمقه من علو بنظرة تأرجحت بين رضا وألم.

- طوال هذه السنوات وأنا أحلم بهذه اللحظة، أن أراك كما كنتُ أنا بسببك، معصوب العينين، مقيد الحركة، عاجزًا حتى عن الصراخ، كنت تحدثنا عن القصاص يا شيخ؟! دم أبي في رقبتك أنت وذاك الشرطيّ، وآن الأوان أن أنال قصاصي، هل تؤمن بالقدر؟! سأتركك له إذن.

صوت نباح الكلاب الجائعة في ذاك الوقت من الليل يمتزج بصوت صرخاته التي بللتها دموع عجزه والتي روت عروقي بالمزيد من تشفي الانتقام.

نرحل ونتركه خلفنا لمصيره، هل سيموت جوعًا وعطشًا؟!

أم تتكفل به ضواري الصحراء؟! ومن يدري ربما تدركه رحمة منقذة، لا يعنيني كيف سينتهي مصيره، يكفيني هذا الرعب الذي سيعيشه الساعات القادمة.

«الضلع الثاني» من مثلث ظلماتي ينكسر بانتقامي، لكنني لا زلت أوقن أني سأبقى أسير زاويته للأبد.

لم يبقَ سوى مجدي وتكتمل لوحة انتقامي، هانت.

أعود لقلعتي السوداء فأبدل ملابسي لأستلقي في فراشي، عشر مكالمات فائتة من ضي لم أرد عليها ولن أفعل، ليس وأنا أشعر بدنس يدي يناقض طهر صوتها.

آه يا ضيّ! لو تعلمين كم أتورط فيكِ يومًا بعد يوم.

اعترافكِ لي بالحب ليلة عقد قراننا أحيا رميم قلب ظننته مات للأبد، طريقة بوحك القدسية التي تشبه روحك، جو عائلتك الدافئ الذي افتقدته منذ عهد بعيد برائحة جابر ونجية، تعلمين يا «ورطتي» أنني لم آكل بشهية حقيقية منذ زمن طويل كما فعلت ليلتها معكم؟!

أجل، ورطتي أنتِ يا ضي، فما حيلتي فيكِ وأنا لا أدري

كيف أصفك؟! حجر ثقيل يجر قدمي للقاع أم طوق نجاة يشتهيه ذراع غريق؟!

كوني كما تكونين، لا يهم، ما بيننا سحابة صيف عابرة يفنيها مطر الشتاء.

تزعمين عن إيمانك بحبي كإيمانك بدينك ووطنك، غدًا عندما ينتهي ما بيننا ستتعلمين كيف تجحدين بكل هذا.

- أعلم أنك مشغول، لكنني فقط أريد الاطمئنان عليك، بالله عليك يا يونس، لن أنام قبل أن أسمع صوتك.

رسالتك بصوتك الذي لا تتعمدين إغواءه تصيب خلاياي برجفة قاتلة، أشتهيك يا ضيّ، أشتهيكِ كما لم أفعل بامرأة من قبل، ربما لو نلت منكِ قبل زواجنا المفترض لكفيتك وكفيت نفسي شره.

لكن كيف؟! وعمتكِ تخفيكِ خلف حصونها حتى بعد عقد قراننا؟!

كان يمكنني أن أطمئنكِ برسالة لكنني لم أفعل، سم انتقامي الذي يسري في عروقي يضع على وجهي قناع قسوة لا أملك نزعه، فلتحترقي بي كما أحترق بكِ.

الليل الطويل يمزق أذني بصراخ غريب المكتوم، يكحل عيني بنظرة قمر المرتعبة، فلا أدري هل أنتشي بظفر أم أبكي بلوعة نهاية لعبة خسر كل لاعبيها.

كوابيسي تجلدني من جديد، نفس الكابوس يتكرر بنفس النهاية، قدم مجدي فوق صدر جابر، مختار والنيران بين ذراعيه، لكن هذه المرة كنتِ أنتِ معي، تسقطين وتمدين لي يدًا لا أملك مسكها فيعلو صراخك باسمي.

أستيقظ بشهقة مذعورة أكتمها في وسادتي كالعادة، نور الصباح الساطع يشي بأنني قد تأخرت كثيرًا في الاستيقاظ، الصداع اللعين في رأسي يجعلني أتناول هاتفي لألغي مواعيدي في الجامعة والمختبر، ثم أغادر غرفتي للمطبخ في الطابق السفلي كي أعد لي كوبًا من القهوة الثقيلة.

صوت رنين الجرس الداخلي للبيت ينبهني لتلقي الاتصال من الحارس بالخارج، يخبرني أنكِ هنا.

جئتِ بقدميكِ لعريني، ألم أخبركِ أن البراعم البيضاء لا تليق بقسوة ظلمة عالمي؟!

أتحرك بخطوات متثاقلة لأفتح لكِ الباب، فتصرخ عيناكِ بلهفة تصبغ حروفك:

- أنتَ بخير؟! كدت أصاب بالجنون وأنت لا ترد على هاتفك ولا أعلم عنك شيئًا.

قبضتاكِ الرقيقتان تشدان على كتفي بقوة حانية فيرتجف جسدي بالمزيد من رغبتي فيكِ، والكذبة تفرض نفسها على لساني:

- مشغول مع العمال لتجهيز البيت لزواجنا، أريد إجراء

بعض التغييرات، ادخلي.

- لن أستطيع، عمتي يافا ستقتلني لو علمت أنني جئت وحدي إلى هنا، لكنني لم أستطع مقاومة قلقي عليك.

تقوليتها بخجل وأنتِ تزيحين ذراعيكِ عني بينما تبتعدين عن الباب المفتوح فأتصنع الغضب:

- كما تريدين، ما دمتِ لا تثقين بي افعلي ما تريدين.

تدمع عيناكِ بذنب أنتِ أبعد ما تكونين عنه، فتعودين لتقتربي قائلة بما يشبه التضرع:

- أنا أثق بك أكثر مما أثق في نفسي، لكنني لا أريد إثارتها ولا أريد الكذب عليها كذلك.

أشيح بوجهي بالمزيد من الغضب المصطنع لأقول ببرود:

- كنت سأدعوكِ وإياها لزيارة بيتي بطبيعة الحال كي تقترحي أنتِ التعديلات المطلوبة بذوقك، لكن لا بأس، العمال في طريقهم إلى هنا الآن، ابقي وقابليهم، أو ارحلي، كما تريدين.

ذبذبات ترددك تصلني مكاني قبل أن أشعر بكِ تقتربين خطوة أخرى:

- سيتأخرون؟!

- لا أظن.

أقولها مستغلاً بادرتك بذكاء فأمسك كفك لأتحرك بكِ نحو المطبخ بالداخل قاطعًا عليكِ طريق التراجع.

- كنت سأتناول قهوتي، سأعد لكِ كوبًا من العصير.
- سأشاركك القهوة.
- لا، القهوة مضرة، لا أريدك أن تدمنيها مثلي، هل تناولتِ إفطارك؟!
- يافا صارمة جدًا في هذا الأمر، لا تتركني أبدًا أخرج دون إفطار.

تقطعين حديثك فجأة وأنتِ تتناولين هاتفكِ الذي ارتفع بصوت الأذان في واحد من تطبيقات الصلاة، ثم تغمغمين ببعض الخجل:
- أريد أن أصلي.
- هنا؟! والآن؟!

صوتي المرتعد يحمل سخرية لم تتبينها براءتك المعهودة فتجيبين مرفوعة الرأس:
- أبي علمني ألا أؤخر صلاتي أبدًا، كان يقول لي إن (من وُلدوا من رحم الهلاك يفقهون جيدًا قيمة كل لحظة في هذه الحياة، وأنه يريد متى استقبل ملك الموت أن يلقى ربه غير مقصر ولا متهاون).

حلقي يجف بشدة مع صدى كلماتك الموجع في نفسي، لقد نسيت ما تحكين عنه منذ زمن، تجربتي مع غريب حطمت كل هذه المعاني في نفسي.

غريب! صورته بالأمس تعاود اكتساحي دون رحمة، تلطخني بالمزيد من سواد القسوة والانتقام، تضيق محيط «مثلث ظلماتي» أكثر حتى يوشك أن يخنقني.

- أين اتجاه القِبلة؟!

سؤالك يقذف المزيد من الحطب فوق نيراني، لستِ لي يا ضيّ ولن تكوني يومًا، فليتنِه كل ما بيننا، لكن ليس قبل أن أشبع نهمي منكِ أولاً، لعلي بعدها أزهد ما بيننا وأقطع كل خيوطنا.

ولما كان سؤالك لا جواب له عندي ولم أهتم منذ أن سكنت هذا البيت عن جوابه، كانت كذبتي من جديد حاضرة وأنا أشير لكِ نحو أحد الزوايا.

- ألن تصلي؟! تمنيتُ كثيرًا لو تؤمني في صلاة.

- ليس الآن، فالعمال على وصول ويجب أن أكون في انتظارهم.

تتلقين المزيد من أكاذيبي بالمزيد من براءتك، ثم تتحركين نحو أحد الزوايا ليرتفع صوتك بالتكبير ثم تبدئين في صلاتك.

أختلس نظرة جانبية نحوك لا أكررها وأنا أشعر بجسدي كله يرتجف، هل هي رغبتي فيكِ التي توشك أن تنال منكِ؟!

أم...؟! لا! لا أريد التفكير في أي تفسير آخر.

أعقد حاجبي بعزم وأنا أتحرك نحو الدرج القريب الذي يحوي بعض هذه الأقراص التي تصلح للغرض، أتناول أحدها

بخفة ثم أضعه في كوب العصير خاصتك، لأجلس بعدها مكاني منتظرًا إياكِ وقد أطرقت برأسي مستسلمًا لسواد ظلمتي يسحبني في دوامته أكثر وأكثر.

- شكرًا.

صوتكِ الرقيق ينتشلني لألتفت نحوكِ فأراكِ تجلسين على الكرسي المرتفع أمام الطاولة جواري، ترتشفين رشفة من كوب العصير ثم تديرين بصركِ في المكان متسائلة:

- ما الذي تريد تغييره هنا بالضبط؟!

- تعنين أنه يعجبكِ هكذا؟!

- يكفيني أنه ذوقك أنت.

تقولينها بنبرتكِ العاطفية مع رشفة أخرى من كوب العصير، فيزيد فوران جسدي أكثر، خاصةً وأنتِ تسكبين المزيد من عاطفتك في حروفك دون تحفظ:

- تعلم؟! منذ عقد قراننا وأنا أشعر أن يافا تنام بصورة أفضل، المسكينة عاشت كل هذه السنوات تخاف عليّ، ورغم أن نضال لم يستسغ معيشتنا هنا وحدنا بعد وفاة أمي، لكنها كانت تداري على كل أفعال خطّاب زاعمةً أنه سندنا هنا، كانت تفعلها لأجلي فهي تعلم ارتباطي الشديد بمصر وهواجسي من العودة لغزة بعد فقدي لأبي.

ترتشفين رشفة أخرى من العصير ثم تضحكين ضحكتكِ

المهلكة فتكملين:

- وتجيء أنت لتكفيها هم خوفها عليّ، وخوفي أنا أيضًا، أنتَ صرت أمان عالمي كله يا يونس.

أكز على أسناني بقوة تكاد تحطمها وأنا أكاد أصرخ بكِ أن اصمتي، لا أريد سماع كلماتكِ هذه، ما بيننا سينتهي في دقائق، ربما سأترك لكِ جرحًا لن تنسيه طوال عمرك، لكنني سأترك لك درسًا لن تنسيه العمر كله كذلك، ألا تثقي في شيء اسمه الحب.

صلاتكِ لن تحميكِ مني، مشاعركِ لن تكفيكِ شري، ضيكِ لن يبزغ وسط ظلماتي، أنا وأنتِ نارٌ وماء متى التقينا فأحدنا سينطفئ والآخر سيتبخر، وبالنهاية امتزاجنا عدم.

- أريد أن أرى شعرك.

أهمس بها بصوت متثاقل وعيناي تجولان فوق ملامحك باشتهاء فتحمر وجنتاك بخجل، تهمسين برفض واه:

- العمال على وصول!

- اطمئني، لن يدخلوا قبل أن أعطي الإذن للحارس بالخارج.

- لا أحب شعري، أشعر به مبالغٌ فيه، طالما رجوت يافا أن تسمح لي بقصّه لكنها ترفض، تعدني أنت إن رأيته أن تسمح لي بفعلها؟!

لا يزال نقاؤكِ الطفولي يخزني ببراءته لكنني أتجاهله وأنا أمنحكِ إيماءة رأس تشبه الوعد.

تضحكين وأنتِ ترتشفين ما بقي من كوبك لتضعيه جانبًا، فأمد أناملي المرتجفة لأزيح عنكِ وشاحكِ، تتسع عيناي بانبهار وأنا أحل شعركِ من رابطته لينسدل بطوله على ظهركِ، يتموج مع انعكاس الضوء فوقه فيبدو كشلال من الكراميل، يمتزج مع لون عينيك الصافي ولون بشرتك البرونزية ليرسم في عيني أجمل امرأة رأيتها في حياتي.

أناملي تنساب بين خصلاته دون وعي، تتلمس نعومته باشتهاء يصل حد الألم، تغمضين عينيك بمزيج من خجل وترقّب لتقطعي الصمت المشتعل بيننا بسؤالك:

– ستسمح لي بقصه؟!

ودون أن أشعر وجدتني أهمس بلا وعي:

– إياكِ أن تمسي شعرة واحدة منه.

– هذا ظلم، أنت وعدتني.

صوتكِ يبدأ في التثاقل لا أدري بتأثير العقار أم بعاطفتكِ، فأضمك نحوي لأقرب وجهك مني ولا تزال أناملي تعزف لحنها المجنون بين خصلات شعرك، تحاولين الابتعاد ببعض التردد لكنني أشدد قوة ضمي لكِ، ذراعاكِ فوق صدري يحولان بيننا فأزيحهما ببعض العنف خلف ظهرك، أسمع دوي صوت ما يتكسر، ومعه بقايا صوتك بين غياهب اللاوعي:

– ساعة أبي وقعت.

أعلم ما تعنيه هذه الساعة لديكِ، وأنكِ لا تخلعينها من معصمكِ أبدًا، لكن.. فلتنكسر مع ما سينكسر.

- يونس، أشعر بالدوار، لا تدعني أسقط.

صوتكِ لا يزال يخنقني ببراءته، فأخرس ما تبقى من كلماتك بشفتيّ، أحملك بين ذراعي نحو الغرفة الجانبية لأضعكِ فوق الفراش، عيناكِ المغمضتان تتواطآن مع همساتك باسمي، فأنحني فوقكِ لأفك أزرار قميصك.

- يافا ستغضب مني لأنني تأخرت، لا تدعها تعنفني يا أبي، لا تدعها تخاف.

صوتك يترنح بين ضلالاته وذكركِ لأبيكِ يثير المزيد من جنوني، فأكاد أميل لأخرس شفتيكِ من جديد لولا أن تأتي تمتمة هذيانك:

- يونس سيحميني، لم أعد وحدي بعدكِ يا أبي، لا تخف، ولا تدع يافا تخاف، نضال قال إن يونس رجلٌ يؤتمن، بل هو أماني كله.

أرتد عنكِ كمن ضربته صاعقة، جسدي يرتجف بقوة كأنما يمسه ذاك التيار الذي كان رجال جدي يجيدون إيلام جسدي به، عيناي تدوران فوق تفاصيلك الفاتنة فتلتمعان باشتهاء، تتسعان بانبهار، تضيقان بألم، ثم تسبلان فوق دمعة غضب، عجز، وندم.

صرخة قصيرة تشبه صرخات كوابيسي تغادر شفتيّ فأنحني

فوقك من جديد، لا لأنال منكِ، بل لأكتمها كأخواتها في الوسادة جوارك، تبًا لكِ يا ضيّ! لماذا لم تتركيني لحالي؟! بل تبًا لي أنا! لماذا أقحمتكِ معي في مثلث ظلماتي هذا الذي أنا عاجز عن مغادرته، وعن مغادرتكِ أنتِ أشد عجزًا؟!!

– يونس سيحميني.

تأوهاتك الخافتة باسمي تزيد تأجج النار في ضلوعي، فأتمالك نفسي بشق الأنفس لأعيد إغلاق أزرار قميصك متحاشيًا النظر لوجهك، أغادر الغرفة ركضًا لأهرع نحو الجدار المقابل فأخبط به رأسي مرة تلو مرة حتى أشعر بألم جسدي يغلب أي شعور سواه.

أتوجه نحو الحمام القريب فأهيل الماء على رأسي تحت الصنبور، هذا ما يفعله سواد انتقامي – منهم- بكِ أنتِ، في المرة الأولى لقمر تجرأت عليك في مكتبي، والآن في المرة الثانية لغريب تجرأت عليكِ في بيتي، ماذا سأفعل بكِ إذن عندما تحين ساعة مجدي؟! غادريني قبل هذا، اهجري أرضًا ليست لكِ.

فورة الدماء في جسدي تهدأ رويدًا رويدًا فأغلق الصنبور لأجفف وجهي وشعري، أتحرك نحو الأريكة المقابلة للغرفة التي تستقرين فيها فأجلس فوقها معطيًا ظهري لباب الغرفة بحزم، ماذا أفعل فيكِ؟! ألم أكررها مرارًا؟ أنتِ ورطتي يا ضيّ!

لا أدري كم مر من الوقت بعدها ورأسي ممزق بين ضلالات

ماضٍ حاضر، وغد.

لكن صرختك العالية المفاجئة تجعلني أنتفض من مكاني بسرعة لأهرع إليكِ، تترنحين في خطواتكِ فتكادين أن تسقطي وصراخكِ لا يتوقف:

- ماذا حدث؟! أنا في فراشك.

أنفاسك تتلاحق بهذه الطريقة المفزعة كما رأيتكِ أول مرة وهذا العرق الغزير يغرق جبينك فأحاول تهدئتك بين ذراعيّ بلا جدوى، لقد افتقدت هذا التواصل العاطفي من زمن ولا أعرف كيف يمكنني منح ما أفتقده أنا نفسي من أمان، لكنني أضمك لصدري بهذا العناق الذي وددت لو منحته لنجية قبل أن تفارقني، أقبل رأسكِ بهذه الطريقة التي تمنيت لو أمنحها إياها، ويبدو أنني قد نجحت لهذا أستعين بالمزيد من كذباتي:

- اهدئي، اهدئي، لم يحدث شيء مما يخطر ببالك، أنتِ قلتِ أنكِ تشعرين بالدوار ثم فوجئتُ بكِ تسقطين فاقدة لوعيك في المطبخ فحملتكِ للغرفة القريبة وأحضرت لكِ الطبيب الذي قال إن الأمر بسيط، فقط ضغطكِ قد انخفض فجأة.

لا يزال جسدكِ ينتفض بين ذراعي وأنتِ ترفعين عينيكِ إليّ، وما يذبحني حقًا أنهما لم تحملا لي أي تكذيب.

غدًا سألعن نفسي أن فرطت في هذه الفرصة لامتلاكك، لكنني الآن سأحمد لها أنها منعت عنكِ شري، كيف كنت

سأواجهكِ لو كنت فعلتها حقًا؟!

- ربما هو العصير كان شديد السكرية، هذه الأشياء تصيبني أحيانًا بهذا الحال، وربما لأنني لم أنم طوال ليلة الأمس قلقًا عليك.

تهمسين بها بتلعثم كأنما تمنحين كذبتي المزيد من المصداقية، ثم ترفعين معصمكِ لتهتفي بصوتك اللاهث:

- ساعة أبي.

أترككِ لأعود بها بعدها وقد تهشم زجاجها فتخفين وجهكِ بين راحتيكِ مستسلمة لدموعك التي وجدت صداها في صدري كألف سوط.

- هيا بنا نغادر وسأصلحها لكِ في طريقنا، عمتك ستقلق من تأخرك

ترفعين إليّ نظرة مشتتة وأنتِ تتساءلين ببراءتك المغيظة:

- والعمال؟!

- ماذا؟! آه.. أجلت موعدهم للغد بالطبع بعد ما كان.

أقولها وأنا أمنحكِ وشاحكِ لتلفيه حول رأسكِ، فأرمق شعركِ المذهل بنظرة عميقة تكاد تفقدني صوابي من جديد.

الصمت الثقيل يلفنا لدقائق عقب مغادرتي بك، وفي رحلتنا بسيارتي أختلس نظرة جانبية نحوكِ لأسألك أخيرًا:

- أنتِ بخير؟

يهيأ إليّ أنكِ لن تجيبي مع إطراقة رأسك التي طالت لثوانٍ

قبل أن ترفعي «لجتيكِ الصافيتين» نحوي فتهمسين:

- أنا بخير مادمت معك.

أتكلف ابتسامة راضية هي أبعد ما تكون عن شعوري، لأجدني في الدقائق القادمة وكأنني أنسلخ عن جلد ظلماتي، أحاول مراضاتك بشتى الطرق، نصلح ساعة أبيكِ فتصرين أن ألبسكِ إياها بنفسي هذه المرة، أبتاع لكِ بعض الثياب والحلوى من مجمع تجاري قريب، بل وأشتري لكِ دمية ظننتها تشبهكِ، وأخيرًا يا «ورطتي» تشرق ضحكتكِ كما عهدتها لتكون نهاية الرحلة.

- عمتي تتصل، ماذا أخبرها؟

تهتفين بها بمزيج من خوف وذنب فأتناول منكِ الهاتف لأحدثها أنا، أمتص عتابها باعتذار مهذب لأختمه بما فاجأني أنا قبلك:

- سأوصلها بنفسي للبيت كي أناقشك في أمر زواجنا، لا أرى داعيًا لتأجيله، فليكن الشهر القادم.

***

ضي

***

أفرك كفيّ بتوتر وقد خلعت ثوب الزفاف -لتوّي- وحدي في غرفة نومنا، أنا ويونس.

يا الله! التصور لا يزال صعبًا على عقلي، لا أكاد أصدق أن بابًا واحدًا سيغلق علينا معًا، وجنتاي تكادان تحترقان وأنا

أرتدي قميصي الحريري الأبيض الذي زينته لي يافا بنفسها مع مئزره، أسدل شعري بطوله على كتفي لأتأمل شكلي في المرآة، فاتنةٌ بما يكفي لأليق بيونس؟!

آه يا يونس! لا تزال لغزي العصيّ على إدراكي رغم يقين قلبي أنك أقرب إليّ من أنفاسي، لا أزال أخاف «مرآة روحك المكسورة» في عينين تروعني ظلمتها، لكنني أتشبث ببقعة ضوء تجذبني إليك دونها إرادة مني، منذ ارتبطت بك بعقد رسمي وأنا أشعر أن أسوار ماضيك تحجبك عني، حاولت تسلقها والعبور إليك لكنك أوقفتني مكاني مكتفيًا بتفاصيل مقتضبة عن طالب فقير نزح أهله من الصعيد للعاصمة وحفر في الصخر حتى وصل لهذه المكانة، لكنك وعدتني أن تحكي لي الليلة عن نفسك، وفي سابقة نادرة أخبرتني - بلهجة عاطفية تسربت قسرًا عبر قناعك البارد دومًا- أنك ستخبرني في أول ليلة تنام فيها على صدري.

صوت طرقاتك على الباب يجعلني أنتفض مكاني بترقب خجول، ثم أكتف ساعدي بقوة مطرقة برأسي، أشعر بك تقترب لكنني أعجز عن رفع عينيّ إليك، أشعر بأنفاسك اللاهثة تدغدغ بشرتي مع أناملك التي امتدت تحتضن وجنتيّ فأجد الجرأة أخيرًا للنظر نحوك، للحظة واحدة فقط أتبين لهفة عاطفتك في عينيك قبل أن ينسدل جفناي رغمًا عني.

- خائفة؟!

- عشتُ الخوف كثيرًا في حياتي، لكنني الآن أبعد ما أكون عنه، لو كان هناك ما أخشاه الآن فهو ألا نكون يومًا معًا.

أناملك تجيد عزفها الحاني على وجنتي فأرفع عيني نحوك من جديد، تبدو لي مرآة روحك في هذه اللحظة صافية تمامًا على غير عهدها، لكنها تفضح وجعًا صارخًا يخزني، يقبض صدري، خاصة مع كلماتك هذه:

- عديني أن تكوني دومًا قوية، بي أو بدوني.

- تظنني سأكون شيئًا بدونك؟!

أهمس بها باستنكار وجل وذراعاي يتشبثان بخصرك فتغمض عينيك بقوة لترتجف شفتاك بتمتمة لم أسمعها لكنها كانت تدوي داخل قلبي كصراخ مكتوم، آه لو تصارحني، لو تفتح لي صندوقك الأسود لعلي أداوي ما جرحه فيك غيري.

- يونس!

أهمس بها بكل ما أوتيتُ من حب فتفتح عينيك أخيرًا، تتأرجح نظراتك بين ألم ورضا، وشعور آخر لم أفهمه، أناملك تقرّب وجهي نحوك أكثر حتى تمتزج أنفاسنا مع همسك:

- أنتِ أجمل امرأة رأيتها في حياتي.

- أما أنا فلم أرَ رجلاً قبلك ولن أرى بعدك.

همساتي تنقطع بين شفتيك واللحن المجنون لعاطفتك يدوّي صاخبًا بيننا، لسانك الكتوم الذي طالما خذلك تعوضه

الآن ثرثرة جوارحك بلغة جسدك فائضة التعابير، لا أزعم أنني كنت يومًا سعيدة في حياتي كما أنا في هذه اللحظة، وكأنما حيزت لي الدنيا بحذافيرها.

عاصفتنا الهادرة تلقي بنا أخيرًا فوق شاطئ السكينة على فراش يضمنا معًا لأول مرة، أضم رأسك لصدري وأهمس لك بابتسامة خجول بينما أتبين رمشًا راقدًا على وجنتك:

- تمنّ أمنية.

تتأوه بخفوت ثم تغمض عينيك وذراعاك يشتدان حولي:

- أن أنام الليلة فقط، الليلة فقط، دون كوابيس.

جوابك يحز قلبي بمدلوله لكنني أتصنع المشاكسة وأنا أسألك عن مكان الرمش الساقط فتجيبني، لأهتف بظفر:

- إجابة صحيحة، ستتحقق أمنيتك.

- وأنتِ، ماذا تتمنين؟!

- هل سقط لي رمش؟!

- لا أحب أن يسقط منكِ أي شيء ولو شعرة واحدة، أسألكِ فقط.

جوابكِ الحمائي يذكرني بأبي فأضحك وأنا أداعب شعرك الخشن - الذي أحبه- بأناملي لأهمس لك بتضرع من يخاف أن يُردّ مخذولاً:

- تذكر وعدك؟!

- أي وعد؟!

أدرك أنك تتهرب من الجواب فأقبّل رأسك بحنان راجٍ لأهمس:

- لن أطلب منك أبدًا أي شيء مرتين، لو كنت تريد الصمت فلا بأس.

تدمع عيناي بعدها دون سبب، ربما لأنني فقط شعرت أن الأسوار بيننا ستبقى قائمة، لكنك تمد إبهامك لتمسح دمعة خائنة قبل أن تغادر جفني، ثم تتنهد بحرارة لتغمض عينيك مع همسك:

- وعدتكِ أن أحكي لكِ عني.

- احكِ يا يونس وأعدك ألا تندم أبدًا.

- أخشى أن تندمي أنتِ.

- أبدًا.

أهمس بها بيقين مؤمن وجد فيك عقيدته، فترتجف شفتاك من جديد بـ«شبه ابتسامتك» هذه ثم تبدأ بالحكي، عن نجية وجابر، عن كامل وقمر، عن غريب ومجدي، عن يونس لم أظن يومًا أنه موجود خلف الواجهة الأنيقة لأستاذي العظيم.

دموعي تسيل صامتة فأكتم نشيجي خشية أن يجرحك، لكنك تبدو بعيدًا جدًا خلف جفنيك المغمضين، كأنك فقدت الشعور بالزمان والمكان، كأنك كنت تفتقد فقط من تسكب على صدره كل هذا الوجع.

ONEPIECE BOOKS

صوتك الحبيب يتثاقل فأدرك قرب انقطاع سيل البوْح هذا، رأسك كذلك يتثاقل فوق صدري فأكاد أكتم أنفاسي خشية إزعاجك، أنفاسك تنتظم أخيرًا مع ارتخاء ذراعيك حولي فأسمح لدموعي من جديد بالانهمار مدركةً استسلامك للنوم، أرفع وجهي لأعلى أدعو الله بحق أتقى عمل في صحيفتي أن تنام الليلة دون كوابيس، ثم أعاود خفض بصري نحو ملامحك، أضم رأسك لصدري بقوة حانية وأنا أتمنى لو أكون «قطعة الإسفنج» خاصتك والتي تمتص كل وجعك هذا حتى ولو كان في هذا هلاكي أنا، قلبي يخبرني أن ما بحت به ليس سوى نصف الحكاية المعتم، وأن النصف الآخر لا يقل عنه عتمة، لكنني أتشبث ببقايا يقيني فيك.

أقبّل جبينك بحذر ثم أهمس لك بخفوت كأنما أريد غرس كلماتي داخلك:

- ولو خذلتك الدنيا كلها فلن أخذلك أنا يومًا، سأبقى لك دومًا ضيّ يونس.

***

ONE PIECE
BOOKS

(الظلمة الثامنة)

بتونسني دموع العين، وأنا سايب أهاليّا

***

يونس

***

– لماذا ترتدين هذا الثوب؟!

أسألها بفظاظة متعمدة عقب رجوعي للبيت صبيحة يوم «عيد» لم أعد أعترف به من زمن، أراها ترتدي ثوبها الفلسطيني بنقوشه المميزة بأعلام بلادها، لكن ابتسامتها تتصدى لفظاظتي وهي تقول بعتب بينما تقترب مني بعناق وقبلتين:

– ألا تقول لي كل عام وأنتِ بخير أولاً؟! إنه أول عيد لنا معًا.

أغمض عينيّ بمزيج من ألم وإرهاق، لو تعلمين كم يجهدني صراعي معكِ يا ضي؟! لقد ظننتكِ دمية سيزهدها قلبي «الطفل» بعدما يتملكها، لكنكِ لم تعودي دمية الطفل بل «أمه».

الحقيقة أن كل يوم مر بنا في الأيام التالية لزواجنا كان بمثابة حبل متين أوثق قيد كل منا بصاحبه، لكنه كذلك كان يُظهر تناقض طبيعتينا المؤذي، شهر رمضان المنقضي كنت أقضي معظمه خارج البيت كي أهرب من تساؤلاتك حول صيامي

وصلاتي، بل وأهرب من رؤية طقوسك التي تذكرني بها تناسيته منذ زمن، لماذا طاوعتُ جنوني وتزوجتكِ يا ضيّ؟! لماذا وقد كنت قاب قوسين أو أدنى من امتلاكك دون حاجة لهذا؟! تراني خشيتُ عليكِ من نفسي لهذا عجلتُ بزواجنا كي أحميكِ من سواد ظلماتي؟! وهل يزعم مثلي أن قربه ممن مثلك قد يحمل مثقال ذرة من أمان؟!

تعلمين كم أحترق بكِ كل ليلة أنام فيها على صدركـ؟! غادرتني كوابيس نومي معكِ يا ملاكي وبقيتِ وحدكِ كابوس يقظتي، جمرة نار أنتِ يحترق بها كفي ولا يقوى على تركها، فما حيلتي فيكِ وأنتِ جنتي وجحيمي؟!

براءتكِ تتقبل كل عيوبي دون شكوى، دون ضجر، حتى وحدتكِ هنا بين جدران هذا البيت بعد سفر عمتك لابنها في غزة تحتملينها دون تأفف، لا تعاتبين ولا تتذمرين، بل يتلقفني عناقكِ كل مرة كمسافر طالت غربته وها هنا فقط يجد وطنه.

تمامًا كما تفعلين الآن وأنتِ تحتضنين وجنتيّ دون انتظار ردي على عبارتك لتهمسي لي بحنان لا تجيده امرأة في الدنيا - بعد نجية- سواكِ:

- أعلم أنني لم أتزوج رجلاً عاديًا بل عبقريًا تلتهم أبحاثه أغلب وقته، وأعلم أنك لم تعتد صحبة تضيّق عليك خناق حريتك طوال هذه السنوات قبل زواجنا، لكن عدني بألا تكرر مبيتك في

الخارج، اقضِ يومك كما تشاء لكن أنهِه بالنوم بين ذراعيّ.

أغمض عينيّ هاربًا من فيض عتابكِ الحنون والصامت، تظنينه كان من السهل عليّ أن أفعلها؟! تظنينني هنأت بنوم بعيدًا عنكِ؟! فعلتها لأكفّ عن إدماني إياكِ يا ضيّ، أنتِ تمتصين كل ذرة مقاومة يبديها لكِ عقلي، ولا تفهمين أن لقاءنا ليس سوى لقاء غريبين ينتمي كل منهما لقطار مختلف، مصيرهما سيؤول حتمًا لتلويحة وداع.

صمتي يطول لكنكِ اعتدتِ هذا كما يبدو، تربتين على خدي برفق ثم تقولين برقتك الطفولية:

- أنا أرتدي هذا الثوب لأنني سأحدث عمتي ونضال في مكالمة مرئية، هي تحب رؤيتي في ثوبنا هذا الذي طرزته بنفسها، يوم العيد لدى يافا يحمل طقوسه الخاصة، لعلها الآن تقوم بتوزيع «المعمول» و«السماقيّة» على الجيران، تعرف أكلة السماقية الغزاوية؟! أكلة مميزة تحتوي على السماق واللحم والسلق، لو رغبت يمكنني أن أطبخها لك.

- لا.

أقولها بالمزيد من الفظاظة ونبرتك شديدة الاعتزاز هذه بوطنك تثير المزيد من تحفظي، لكنكِ تتراجعين خطوة لتقولي بما يشبه الاعتذار:

- لاريب أنك متعَب، اصعد غرفتنا لتستريح، لكن هل

تعايد عمتي ونضال أولاً؟!

أكاد أهتف بالرفض استكمالاً لمسلسل فظاظتي - المتعمد- معكِ لكنكِ تستطردين بما لم أستطع مقاومته:

- إنه أول عيد أقضيه بعيدةً عنها، افتقدتها وأخاف عليها وأدرك أن افتقادها وخوفها علي أكبر، طمئنها يا يونس.

تفتحين حاسوبك المحمول لتبدئي محادثتك مع عمتك التي تحدثكِ من إحدى الحدائق، ولست أدري لماذا بدا لي نخيل بلادكم وكأنه لا يشبه أي نخيل، سعفه يتمايل بعزة تشبه نظرتكِ، وجذعه يبدو لي أشد ثباتًا مع نضرة لونه كصرامة يافا الحنون.

صوت غناء بعض الأطفال حولها بلهجتكم الشامية وبهذه الكلمات عن قيمة الوطن يثير المزيج الموجع من شجوني و.. سخريتي.

الوطن! الوهم الذي باعوه لنا صغارًا في تحية قطعة قماش ملونة في طابور مدرسة، أو مشاهدة فيلم سخيف عن انتصار حرب عفا عليها الزمن، فكبرنا لندرك أن ما سمّوه وطنًا كان وطنهم هم، وطن المخادعين والجبابرة، وطن مجدي وكامل وغريب وقمر، أما جابر ونجية ومن مثلهما فليس لهم وطن إلا تراب الأرض الذي رقدت تحته أجسادهم والذي كان أحن عليهم من البشر فوقه.

خنجر ذكرياتي المسموم ينغرس في صدري أكثر فأكتفي بهذا القدر من محادثة عمتك لأعتذر لها ثم أصعد هاربًا لغرفتي.

الفراش المرتب يفضح سهركِ دون نوم الليلة الماضية مثلي، كل يوم تسقطين بي أكثر، وأسقط بكِ أكثر وأكثر، فما أغنانا عن هذا السقوط!

أبدل ملابسي وأتمدد على الفراش أستنشق عبير عطرك الذي افتقدته، أحتضن وسادتك ثم أقذفها جانبًا بعنف، لا أريد المزيد من إدمانك يا ضيّ، لا مزيد.

أشعر بكِ تقتربين فتزداد نقمتي عليكِ وعلى نفسي، ربما لو كنا زوجين عاديين لأخذتكِ في نزهة طويلة، لجعلت أول عيد لنا معًا هو أجمل ذكرياتك، لصنعت لكِ بنفسي أرجوحة تتلذذين بركوبها طول العمر، لفعلت كل ما بوسعي كي لا يتوقف لحن ضحكتكِ الذي ترقص عليه الدنيا، لكن، أنا يونس، سيد الظلام وأنتِ ملكة النور، سرداب الظلال بيننا أصمّ لن يطربه لحنكِ يا ضيّ.

- نمت؟!

تهمسين بها بخفوت حانٍ لوّنه عتابكِ، فيجعلني وخز صدري أهب من رقدتي لأهتف بكِ بفظاظتي الخادعة:

- كيف أهنأ بنوم وأنا تزوجت طفلة؟! طفلة لا تبالي سوى بتفاهات احتفالات العيد ولا تعي تعقيد حياة رجل مثلي.

عيناكِ تتسعان بصدمة مع المزيد من اتهاماتي التي أدرك أنها باطلة لكنني كنت أنفذ خطتي للتخلص من إدمانك.

أشيح بوجهي أخيرًا منتظرًا ردكِ، لكنكِ كعهدكِ تكتفين

بصمتك، أتجنب النظر إليكِ لأعود لرقدتي متظاهرًا بالنوم فأشعر بكِ تتمددين جواري، تتأهب حواسي بصراع بين جنبيّ وجزء بداخلي ينتظر عناقك ككل ليلة، لكن جزءًا آخر ينفر منكِ يستصرخكِ الاستجابة لمخططي، دقائق تمر بنا طويلة قبل أن أشعر بكِ تغادرين الفراش بخطوات متثاقلة لتخلو الغرفة الباردة من دفء أنفاسك.

أعض شفتي بقوة تكاد تدميها وإرهاق سهر الليلة الماضية يصيب من جسدي، الوقت يمر بتثاقل مغيظ وجفناي ينسدلان بتعب رغمًا عني فأنتفض مكاني بهلع، كيف أعترف أنني أخاف أن تعود إليّ كوابيسي؟! كيف أقر أنني أخشى النوم دونكِ يا ضيّ؟!

كل ذرة بجسدي تئن ألمًا فأتردد بين رغبتي فيكِ ورغبتي عنكِ، أكاد أعود لرقدتي لكن صوت هاتفكِ بـ«صوت الأذان» من تطبيق الصلاة يخترق أذني، تبًا لكِ يا ضيّ! ألم آمركِ من قبل ألا تزعجيني به؟

أخرس الصوت بعنف لألقي الهاتف جانبًا ثم أغادر الغرفة بخطوات عاصفة تبحث عنكِ لأجدكِ تؤدين صلاة الظهر في نفس المكان هناك، أراقبكِ من بعيد متواريًا خلف أحد الأعمدة لأجدك تنهينها بخشوعكِ المعهود ثم ترفعين كفيكِ بدعاء يمتزج بدموعك، لم أسمع ما تقولينه لكنني صرت أحفظ حركة شفتيكِ باسمي، اسمي الذي أوقن أنه الآن يخالط ابتهالك.

سرداب الظلال بيننا يزداد طولاً ووحشة، فكيف لنا من لقاء؟! أراكِ تقومين لتتمددي بإرهاق على إحدى الأرائك غافلةً عني، تعطينني ظهرك لكن ارتجافة جسدك تشي بانهيار بكائك.

لا أدري ماذا حدث بعدها ولا كيف وجدت نفسي أجلس على أريكتكِ، أديركِ نحوي لتستقبلني عيناكِ الدامعتان للحظة قبل أن تخفيهما بكفيكِ عني بسرعة، كلماتكِ ليلة زفافنا تبزغ الآن فقط في ذهني، تومض كبرق يؤذي ظلمتي:

- ولو خذلتك الدنيا كلها فلن أفعلها أنا يومًا، سأبقى لك دومًا ضي يونس.

ربما لن تخذليني يا ضي، لكنني أنا سأفعلها.

ألا يقولون رحم الله امرءًا عرف قدر نفسه؟! وأنا صرت قانطًا مما تسمونه «رحمة الله» لكنني أعرف قدر نفسي وقدر ظلماتي.

- ستنامين هنا؟!

صوتي يخونني ليخرج متحشرجًا وأنا أزيح كفيك عن وجهك. هل شممتِ في صوتي رائحة رجاء؟! هل تذوقتِ له نكهة ندم؟! هل خدشكِ منه ظفر وجع؟!

ربما هذا ما جعل «لجتيكِ الصافيتين» تعانقان نظراتي بصفح لا يليق إلا بمثلك، شفتاي تتفوهان بالمزيد من كلماتي الفظة التي لا أتبينها ولا أظنك تفعلين كذلك، كأنك تملكين موهبة «تعطيل حواسك» معي إلا من قلب يكفيكِ إياها كلها، أجل يا ضي،

ONEPIECE BOOKS

قلبك يسمعني، يراني، يلمسني، يتذوقني، ويشم عبير زهري المختلط بعطنه.

أطبق شفتيّ أخيرًا عاجزًا عن التفوه بالمزيد لتتشبث أناملي بكفك، أقف لأوقفك معي ثم أنكس رأسي المهزوم وأنا أعود بكِ لغرفتي، غرفتنا.

أتمدد على شوك فراشي من جديد، لكنكِ تجيدين غزل الشوك فتحيلينه حريرًا، لم أعتذر لكنكِ كعهدكِ تصفحين و.. تصمتين.

أجاهد نفسي بكل طاقتي للعودة لمخططي لكنني أنهزم من جديد فألقي برأسي على صدرك متعوذًا بتميمة أمانك، أشعر بأناملكِ تداعب منابت شعري فآخذ نفسًا عميقًا كأنني أطمع في الدنيا كلها الآن، ثم أزفره بوجع يليق بظلماتي.

- لم أنم بالأمس.

كاعتذار، أم كشكوى.. أم كرجاء قلتُها؟! على كل حال كان جوابكِ واحدًا، شفتاكِ تدللان جبيني بصمت بدا وكأنه عقابكِ، تعلمين كم أعشق صوتكِ يا ضي، خاصة بلهجتكِ الشامية التي تنفلت بها كلماتكِ في أحيان قليلة عندما تفقدين السيطرة على شعورك، تكلمي، قولي أي شيء، اجلديني كما فعل من كانوا قبلك، وكما فعلت أنا وسأفعل.

التعب ينال مني ورأسي ينغرس بين رحابكِ أكثر، تنتظم

أنفاسي ويبدو أنكِ تظنينني قد غرقت في نعاسي، فها هو ذا همسكِ شديد الخفوت يغلفني بين يقظة ومنام:

- أنا أيضًا لم أنم بالأمس، ولم أكن سأنام بالأسفل كما ظننت، خشيت فقط أن تراني أبكي وأنا أعلم أنك تكره دموعي، لم تقلها لكنني شعرت بها يا يونس، تظنني لا أعلم كم هو صعبٌ أن أعشق رجلاً مثلك تخونه كلماته ويخونه صمته كما خانه الكثير من الناس؟! بل أعلم وأقبل رهاني عليك، أعلم عن الحرب التي تخوضها كل يوم كي تعود لذاتك تارة وكي تهرب منها أخرى، أعلم وأستودعك الله في كل سجدة، وظني أن ربي لن يضيع وديعتي.

همساتك تذوب بين غياهب وعيي لأتلقف عطايا سكينتي بين ذراعيك من جديد، ليس كابوسًا هذه المرة يا ضيّ، فلا كوابيس تجرؤ أن تروعني بحضرة مثلك، بل حلم، حلم بـ«هيولان»، عالم مشع بلون أزرق متوهج، يعدني بخلود بلا موت، حياة تلو حياة تكونين أنتِ فيها معي، فقط أنتِ ضيّ، ضيّ يونس دون ظلمات.

نومي يستمر لساعات أطول من المعتاد، أستيقظ قرب الفجر لأتفحص وجهك النائم جواري باشتياق غير منطقي، إذا كنتُ أشتاقكِ وأنتِ بين ذراعيّ فكيف منكِ الخلاص؟!

أزفر بقوة وأنا أغادر الفراش جواركِ بحذر، أبدل ملابسي شاعرًا بحاجتي للهروب، قلعتي السوداء لم تعد ملاذي كالسابق وقد صرتِ أنتِ فيها ورطة لا أميز جحيمها من نعيمها، أهاتف

دياب ليلتقيني في مكاننا المنعزل فلا يخذلني كعهده.

- ماذا بك يا صاحبي؟!

يقولها وقبضته تشد على كتفي فألتفت إليه بشبه ابتسامتي المريرة، دياب يشاركني مثلث ظلماتي، خطيبته خانته مع شقيقه بعد سفره لإيطاليا ليعلم بعدها عن زواجهما، وطنه المزعوم رماه بين يدي تجار للهجرة غير الشرعية وكاد يلقى حتفه بين موج البحر ليكون وجبة لأسماكه، عاش مضغة بين الأفواه في غربته بإيطاليا سعيًا وراء فرصة عمل، كل هذا فعله لأجل خطيبته التي خانته ولأجل أن يرسل المال لعلاج أبيه، ولما جمع المبلغ المراد بالضبط عانده القدر فخطف روح الرجل قبل أن يهنأ برؤيته، لا عجب أنه جحد مثلي بكل شيء بعدها؛ الدين، الوطن، والحب.

- أحببتها؟!

كعهده يقرأ صمتي تمامًا مثل ضي، لكن سؤاله يلدغني لأهتف به باستنكار:

- أنت الذي تسأل يا دياب؟! تعرف أنني كافر بالحب، أسقطتُ راياته عن أرضي منذ زمن، لم أعد أنتمي لشيء أو لشخص، لم يتبقَّ لي في هذا البلد سوى القليل من الوقت، فقط أنال من ذاك السافل مجدي وبعدها أسافر إليهم هم بلا رجعة.

كان يعلم من أعنيهم بـ«هم» هذه، لهذا اشتدت ملامحه ببعض العتاب الذي امتزج بامتنانه الدائم نحوي:

- أنت تعرف قيمتك عندي، أنت أخي الذي لم تلده أمي، ساندتك وسأبقى أساندك لآخر يوم في عمري، اسمع نصيحتي يا يونس وأطلق سراح تلك المرأة، أنت زعمتَ أنها مجرد بضعة أيام تكتفي فيها منها، لا تصعّب الأمور عليكما معًا، لن يسرك أن تكون حاضرة في انتقامك الأخير من مجدي.

- دياب! أنا أعرف هذه النظرة، أخبرني ما الذي تخفيه.

أقولها بتوجس منتبهًا لارتباك ملامحه، فيزفر وهو ينحني ليلتقط حجرًا ما ثم يقذفه بعيدًا.

- تعلم أنه قد تم نقله للصعيد في شبه عقاب على مخالفاته في عمله، لكنه ولسبب لا أعلمه قد عاد بترقية كبيرة إلى القاهرة.

- عنوانه، عائلته، مقر عمله، ثغراته، أريد معلومات عن كل هذا، لك ما يلزمك من مال كي تفك الألسنة.

أهتف بها من بين أسناني وعيناي تشتعلان بالمنظر الذي لم يفارقني منذ سنوات، قدمه على صدر أبي الميت.

دياب يجيد اختراق الثغرات ليمدني بما أحتاجه من معلومات عن طريق علاقاته المتعددة بفضل شركة السياحة التي ساعدته برأس مالها عقب عودتنا هنا، ما أطلبه من معلومات سيكون بين كفيّ بأسرع ما أظن.

- وماذا عنها هي؟! ماذا ستفعل بها ما دمت تنتوي المضيّ في خطتك؟!

يسألني بتوجس لألتفت نحوه من شرودي بحدة كأنني لا أفهم ما يعنيه، قبل أن أرد وصورة ضي تشعل المزيد من النيران في ظلماتي:

- سترحل.

نفترق بعدها ليودعني بنظرته الداعمة، لكنني لم أكن أبصر سوى قرب حصاد النهاية، أعود لقلعتي السوداء لكنني أتخذ قراري حاسمًا، ضيّ يجب أن تغادر عالمي.

ربما لهذا أزيد من فظاظتي معها لما تبقى من إجازة العيد، ثم شجار صباحي من طرف واحد كالعادة أخوضه معها عندما طلبت مني أن ترافقني للجامعة كي تلتقي حبيبة صديقتها هناك، فهو موعد إعلان نتيجة الاختبارات، لكنني أرفض بتعنت زاعمًا أنني عرفت لها النتيجة بالفعل، ترجوني بشدة وأناملها تتلمس سلسلة أبيها في عنقها بهذه الحركة التي لا أملك مقاومتها فأزفر مستسلمًا للموافقة، أعلم أنها تحتاج لرفقة وقد سافرت عمتها و.. خذلتها أنا.

أرافقها للجامعة في سيارتي فأتحاشى النظر نحوها، ذهني كله معلق بما يجلبه لي دياب من معلومات حول مجدي على مدار الأيام السابقة، أرسم عشرات السيناريوهات لانتقام يليق به ولا يزج بي في السجن، لن يحطمني انتقامي كالأغبياء، سيأتي يوم وأترك كل هذا خلفي لأتنعم ببقية عمري في بلد يقدر قيمة علمي.

(طَلّ من الليل، قال لي ضوّيلي،
لاقاني الليل، وطفّى قناديلي)

أنتبه لصوت فيروز الخفيض الذي ينبعث من هاتفها فتشتتني الكلمات قليلاً وأنا أشعر بمسحة الحزن التي لونت ملامحها والتي غرست الخنجر المسموم في صدري أكثر، آه يا ضي! تعلمين، أود لو لم تكوني قد انغمستِ معي في هذا كله، لكن لا بأس، حريتكِ صارت وشيكة

- أليست الأغاني حرامًا؟!

أقولها بسخريتي الفظة عامدًا لتلتفت نحوي بلجتيها الصافيتين المترقرقتين الآن بدموعها مع همسها:

- أنا لا أسمع من الأغاني إلا هذه، هذه أغنيتنا أنا وأنت، صوت فيروز هو هويتي، وكلماتها هنا، لا أدري، أشعر وكأنها تعنينا، لكن معك حق، سأغلقها أفضل.

يتوقف صوت الغناء مع تحشرج صوتك أنتِ، فأبتلع غصة في حلقي وأنا أقاوم ضمك لصدري، لا، لن أضعف من جديد، اغربي من حياتي يا ضيّ، جدي طريق خروجك من «سرداب الظلال» هذا بيننا واصعدي منبرك نحو النور الذي يليق بكِ، دعيني لظلماتي.

نفترق فور وصولنا للجامعة عندما تلتقيكِ حبيبة في الفناء الخارجي، أتحرك مبتعدًا عنكِ لأتوجه نحو مكتبي لكنني أقف

لأراقبكِ من بعيد، أراها تحتضنكِ فتستسلمين لدموعكِ لبضع ثوانٍ فقط قبل أن تهزي رأسكِ لتتكلفي ضحكة وراء ضحكة كأنكِ تخفين عنها خيبتك، يختلج قلبي بعنف وأنا أضم قبضتي جواري، ليس أقسى من أن أدرك أن دواءكِ معي لكنه مسموم يا ضيّ، ألا تفهمين؟! ألا تعذرين؟!

أراقبكِ بالمزيد من جنون مشاعري التي زادتها الغيرة اتقادًا وأنا أرى أحد زملائكما يتقدم ليضاحك حبيبة، كنتِ قد أخبرتني أنهما متحابان وأنه يريد التقدم لخطبتها، لكنني وجدتها فرصتي لأتم ما انتويته وكنت أجبن عنه.

أتقدم نحوكم بنظرات غاضبة لا أدعيها، فأنتزعك من بينهما لأعود بكِ إلى مكتبي ثم أغلق الباب خلفنا، ترمقينني بنظرة خائفة لا أحتملها فأعطيكِ ظهري لأهتف بحدة عبر اتهاماتي الباطلة:

- لا فائدة فيكِ، مجرد طفلة طائشة لا تتخيرين تصرفاتك، ماذا يقول الناس عني وزوجتي تقف تضاحك زملاءها هكذا بصوت عالٍ دون خجل؟ لو كنت أحتمل سخافاتك داخل بيتنا فماذا عن خارجه؟!

- لم أكن أضاحكه، ثم إنك تعلم أنه...

- اسكتي! لا أريد سماع المزيد، هو كان خطئي من البداية أن تزوجت فتاة تصغرني عمرًا بالكثير ولا تفهم مسئولياتي.

أهتف بها بما يقارب الصراخ ولا أزال أعطيكِ ظهري

وكأنني أخشى ضعفي بمواجهة «لجتيكِ العاتبتين»:

- خطأ؟! تدعوه بـ«الخطأ»؟! إذن، تريد الآن إصلاحه.

تغمغمين بها مصعوقة رغم أن لهجتكِ تكاد تقسم أنكِ تعلمين، تشعرين أنها النهاية، أجل يا ضيّ، هي النهاية.

- سأرسل لعمتكِ وأخبرها بقراري، يمكنكِ البقاء في بيتي لو أردتِ حتى تعود أو تسافري إليها، لكنني لن أشاركِ فيه، كل حقوقكِ ستصلكِ كاملة والطلاق سيكون...

صوت الباب يفتح خلفي يجعلني أقاطع حديثي لأراكِ تغادرين ثم تغلقين الباب خلفك دون أن تنظري إليّ.

قلبي يخفق بجنون كمن خاض -لتوه- سباقًا عنيفًا، هكذا؟! هكذا ببساطة ينتهي الأمر؟! بساطة؟! عن أي بساطة يمكنني التحدث وأنا أشعر كمن انسلخ عن جلده حيًا؟! لا، لا، لن أستسلم لهذا الوهن، أنا استأصلتكِ من حياتي يا ضي، دون رجعة.

أعقد حاجبي بتصميم وأنا أغادر مكتبي لأتوجه نحو المختبر، ساعات طويلة تعمدت زيادتها بالانهماك في أحد أبحاثي، أغادر المختبر لأعود لقلعتي السوداء فأستقبل الحارس بسؤالي عنكِ فيجيبني بحيرة أنكِ لم تعودي، الغضب يملؤني وأنا أحاول تفسير عدم عودتك إلى هنا، إذن فقد قررتِ البقاء في بيت عمتك، لكن ألن تجمعي أشياءك؟! ماذا؟! تظنينني سأعود عن قراري؟!

أصعد لغرفتي فأبدل ملابسي والغضب داخلي يستحيل لاشتياق قهرته قسرًا وأنا أضع وسادتي فوق رأسي، بقايا عبيركِ هنا تطاردني فأنزع عن الوسادة غطاءها وعن الفراش ملاءته، لأعاود الاستلقاء، لا بأس، ليلتين وربما ثلاث وسأعتاد الوضع كما ستعتادينه، ستبكين بضعة أيام في حضن صديقتك ومثلهن في حضن يافا، وبعدها ستتعافين مني، كما سأتعافى منكِ.

الساعات الثقيلة تمزقني، رأسي يحن لموضعه فوق صدرك، قلقي عليكِ ينهشني كوحش ضارٍ، لكنني أقاوم كل هذا بسلطان ظلامي القاهر، وأخيرًا صباحٌ جديد يعلن أول انتصاراتي.

لم أنم لكن لا بأس، اعتدت تقبل الخسائر، مكالمة صباحية من دياب تمدني بالمزيد من المعلومات عن مجدي، يعيش الآن وحده مع أمه بعد وفاة أبيه وانفصال زوجته عنه واحتفاظها بأولاده، وضعٌ أكثر من مثالي لانتقام يليق بفعلته.

عقلي يشتعل بالمزيد من الخطط التي تلهيني عن حديث قلبي بشأنك، يوم ثقيل قضيته من جديد في المختبر، لأعود بعدها لقلعتي، ومن جديد أسأل الحارس عنكِ فيجيبني أن لم تعودي.

أتردد قليلاً ليغلبني قلقي فأتناول هاتفي لأتصل بكِ لكنكِ لا تردين، إنها المرة الأولى التي تفعلينها، لكن ماذا كنتُ أتوقع مثلاً؟!

ضحكة ساخرة مشبعة بمرارتها تغادر حلقي وأنا أتحرك نحو غرفتي التي صارت بعدكِ سجنًا آخر، أعترف أنني أدمنتكِ

يا ضيّ، لكنني تعودت قتل رغباتي منذ زمن.

- إن لم تعودي لتجمعي أشياءكِ، فسأرسلها لكِ.

أبادر بإرسالها لكِ مكتوبة كأنني أقطع على نفسي طريق الرجوع، لكنني لا أتلقى منك ردًا، أحاول الاتصال بكِ من جديد لكن هذه المرة كان هاتفكِ مغلقًا.

أبدل ملابسي لأسترق نظرة نحو خزانتك المجاورة، أفتحها لتعانق عيناي كل ما تركتِه من ثياب، قميصكِ الأبيض الذي منحتني به مفاتيح أنوثتك ليلة زفافنا، أشباهه مما اعتدتِ ارتداءها في الأيام الأولى لزواجنا بألوان رقيقة تشبهكِ، ثوبكِ الفلسطيني الذي طرزته يافا، ثم.. إسدال صلاتكِ.

تدمع عيناي رغمًا عني فأكز على أسناني بقوة، ماذا عساكِ تصنعين الآن؟! تنامين على جانبكِ الأيمن كما تفعلين وأنتِ وحيدة أم تستلقين على ظهركِ تتخيلين رأسي يجاور خفقاتك؟! تشربين الحليب قبل نومك في كوب شفاف كما تحبين كي تستمتعي بنقاء لونه؟! تمشطين شعرك فتذكرين كم كان يعجبني أم تقصينه عقابًا لي؟! تحدثين يافا عبر الانترنت فتروي لكِ حكاياها عن «أرض العزة» كما تزعم؟! تتناولين طعامكِ بهذه الطريقة الشهية المحبة للحياة؟! تبكين خذلاني لكِ؟! تدعين لي في صلاتكِ؟! تلعنينني؟! تندمين على عاطفتكِ نحوي؟! تبًا! تبًا! سأجنّ بكِ يا ضيّ! سأجنّ!

أصرخ بكلمتي الأخيرة مسموعة وأنا أغلق باب الخزانة بعنف، أعاند نفسي بالمزيد من الجبروت وأنا أترك غرفتي لأخرى لا تنازعني فيها رائحتك ولا ذكرياتك، لكن هيهات.

صورتك وأنتِ تغلقين الباب بيننا بقيت عالقة في عيني حتى أشرق صباحٌ آخر، صباح مظلم دونكِ يا ضيّ.

في الجامعة أتوجه نحو مكتبي بجسد يكاد يهلكه إعياء سهر ليلتين متتابعتين لأصطدم بحبيبة واقفة تضاحك زميلها ذاك، تجاهلتها لأمضي في طريقي، فلا ريب أن الفتاة الآن تلعنني مثلك بعدما علمت عما كان بيننا.

- دكتور يونس.

تستوقفني بندائها فألتفت لتدهشني ملامحها البشوش:

- ضي بخير؟! هاتفها لا يرد أو مغلق.

إذن فهي لم تعلم بعد.

أتنحنح لأقول بخشونة:

- هي في بيت عمتها.

- بيت عمتها؟! بيت عمتها هدموه منذ أسبوع، جارتهم قريبتي وأخبرتني لكنني لم أبلغها خوفًا عليها.

تهتف بها باستغراب ليتوقف قلبي عن النبض للحظات قبل أن أصرخ بها بهلع:

- ماذا تعنين؟! إذن أين ذهبت؟!

- لا أعرف، ماذا حدث بينكما إذا كنت أنت لا تعلم؟!

دكتور يونس، توقف وأخبرني أرجوك.

صوتها يتقطع في أذني وأنا أتركها راكضًا نحو سيارتي، ضي! أين أنتِ؟! خفقات قلبي تتصارع حد الألم وأنا أحاول الاتصال بهاتفك من جديد لكنه لا يزال مغلقًا، ألعن نفسي ثم أهاتف دياب أطلب منه أن يتولى أمر البحث عنك في الفنادق القريبة والـ.. مستشفيات.

الخاطر الأخير يكاد يصيبني بالجنون فأغلق معه الاتصال لأتوجه نحو بيت يافا، أو ما كان يومًا بيتها.

أوقف السيارة لأترجل نحو الحطام الذي تبقى منه، هل وقفتِ هنا مكاني وشاهدتِ هذا؟!

إذا كان المشهد خلع قلبي أنا فماذا فعل بكِ؟!

- أهلاً يا دكتور، أرأيت ماذا فعلوا بالبيت؟! «منهم لله البعدا».

المعلم عطوة يهتف بها جواري فألتفت نحوه صارخًا بلهفة:

- ضيّ؟! رأيتها؟!

- كلنا لم نشأ إخبارها كي لا تحزن، خاصة أنها لم تأتِ هنا منذ سفر عمتها، لكنها جاءت أول أمس ورأت المنظر، المسكينة انهارت.

- أين؟! أين ذهبت؟!

أهتف بها وأنا أدور بعيني حولي باحثًا عنها ليرد الرجل باستغراب:

- ظننتها عادت لبيتها، لبيتك، ألم تفعل؟!

تدمع عيني بعجز وأنا أكاد أقتلع شعري من جذوره، ماذا فعلتِ بنفسك يا ضي؟! بل ماذا فعلتُ بك أنا؟!

- أيعقل أنها قد ذهبت هناك؟!

ألتفت نحو عطوة الذي يردف بانزعاج وقد راعه مظهري:

- العمة يافا تركت لي مفاتيح غرفة كانت تسكنها جدة ضيّ لأمها، غرفة صغيرة في «بدروم» بيت قديم متهالك، لكن ضي كانت تجد فيها بعض رائحة أبيها رحمه الله لأنه مكث فيها لأيام عقب زواجه من أمها، لهذا لم أتعجب أن طلبت مني مفاتيحها أول أمس.

- أين؟! العنوان بسرعة.

تتشوش المرئيات في عيني وأنا أعود لسيارتي أقودها نحو العنوان الذي ذكره، حي قديم ببيوت تكاد تسقط بساكنيها، الجانب الأسود من العاصمة الذي كدت أنساه في عالمي الجديد، وأخيرًا يتبين لي البيت كما وصفه الرجل، يبدو أنه مهجور تمامًا حتى أن آثار قدميها الصغيرتين تبدو لي على التراب المتكدس في الطريق لتلك الغرفة السفلية، هي فضلت المجيء هنا بدلاً من أن تشاركني بيتي بعدما قلته لها، لو كنت أملك أن ألعن نفسي أكثر لفعلت.

- ضي! افتحي.

أصرخ بها بأنفاس متلاحقة وأنا أطرق الباب بعنف، لكن الصمت المهلك يكون جوابي، وفي استجابة لجنوني أجدني أدفع الباب بكتفي بقوة عدة مرات تكفي لكسره، فأصطدم بجسدك الملقى أرضًا.

أصرخ باسمك بلوعة وأنا أتفقد نبضكِ ثم أحملك بين ذراعي لسيارتي فأقودها لأقرب مشفى.

- هل تعاني مشكلات في التنفس؟! ماذا حدث بالضبط؟! متى فقدت وعيها؟! متى تناولت طعامها آخر مرة؟!

أسئلة الطبيب التي لا أعلم جوابها تسيل الجحيم في عروقي.

عيناي تتجمدان فوق ملامحك أراقب محاولاتهم لمساعدتك كي تستعيدي وعيك.

لحظات تمر عليّ كدهر كامل وصورتك في عيني تتبدل، تارة بملامح جابر الذي قتله ضلالي القديم، وتارة بصورة نجية التي ماتت غاضبة عليّ، تراكِ تمنحينني جرحًا آخر يدهسني في قاع ظلماتي أكثر؟! لا تفعليها يا ضيّ، لا تفعليها وإن كنتُ أستحقها.

تفتحين عينيك أخيرًا للحظة ثم تعاودين إغلاقهما بإعياء، فأنكب فوق جسدك لأصرخ بجنون:

- افتحي عينيك، أنا آمركِ، ستفتحينهما رغمًا عنكِ.

فظاظتي تثير السخرية في موقف كهذا، وجسدي يعلن المزيد من تمرده بهذا الفوران الذي أشعر به يشعل دماغي، وأخيرًا هذا الدفق اللزج من دماء أنفي.

- يبدو أن الانفعال قد رفع ضغط دمك، قم معها حتى

تتفحص...

يهتف بها الطبيب بقلق مشيرًا لإحدى ممرضاته لكنني أصرخ به بالمزيد من الجنون:

- لن أتحرك خطوة واحدة قبل أن تفيق هي.

- لن تفيدها هكذا وأنت...

يهتف بها الطبيب بانزعاج ليقاطعه همسكِ أنتِ الخفيض بينما تفتحين عينيك بمجهود بدا وكأنه خرافي:

- أنا بخير.

دفقة أخرى من دمي تغادر أنفي لكنني لا أبالي سوى بالتعلق بعينيك الذابلتين بينما ينتزعني الطبيب انتزاعًا من مكاني ليهتف بحدة:

- سأخرجك من هنا قسرًا، لن تدخل بمصيبة وتخرج باثنتين، اذهب مع الممرضة وتفقد حالتك ثم عد.

- لن تتحركي خطوة من هنا قبل أن أعود.

أصرخ بها بتشوش - فضح أعظم مخاوفي الآن- مخاطبًا إياكِ ومتجاهلاً الطبيب الذي دفعني ببعض العنف نحو الخارج، خطواتي تترنح لبضع ثوانٍ تميد فيها الأرض تحتي فلا أكاد أشعر بشيء بعدها، هل فقدت وعيي أنا الآخر؟! هل استعدته؟! هل ارتفع ضغط دمي حقًا حد الخطر؟! هل انتظم من جديد؟!

لا يهم، كل هذا لا يهم، ما يعنيني أنني الآن أجلس فوق فراشك من جديد في المشفى، أتشبث بأناملك، أطارد ملامحكِ بينما تسبلين جفنيكِ هاربة من نظراتي، لكن حنانكِ يغلبكِ فترفعين عينيك نحوي هامسة بصوت لا يزال يعاني إعياءه:

- أنتَ بخير؟!

- أنتِ بخير؟!

لم أكن أسألك، بل كنتُ أجيبكِ يا ضي، كوني بخير وستصبح الدنيا كلها بخير.

تفهمينني كعهدكِ فتتكلفين ابتسامة تذبحني مع كلماتك:

- هذا قلت لي ليلة زفافنا أن أكون قوية بك أو بدونك، كنت تحسب حساب يوم كهذا.

أشيح بوجهي هاربًا من تلك النظرة في عينيكِ بينما يزداد كفي اعتصارًا لأناملك فتتأوهين بخفوت ثم تقولين بالمزيد من التصنع:

- صرتُ بخير.

- ماذا حدث بعد أن تركتني يومها؟!

- لا أذكر الكثير، ذهني مشوش، لا أتبين سوى صدمة رؤيتي لحطام بيت يافا، عودتي لغرفتنا القديمة، صورة معلقة على الحائط لأبي وأمي ليلة زفافهما، رائحة التراب الخانقة مع ظلمة المكان، ثم تلاحق أنفاسي، ثم...

يغص حلقكِ بما تبقى من كلماتكِ فتتكلفين ضحكة شاحبة مريرة ثم تحاولين سحب كفك مني:

- ربما أنا طفلة مدللة كما زعمت أنت، طفلة لم تعتد الصدمات.

ألتفت نحوك بحدة وأنا أتشبث بكفك أكثر ليروعني جريان دموعك الصامت.

- دعني فقط أهاتف عمتي، لم أحدثها منذ يومين، لا ريب

أنها قلقة عليّ.

أريد الحديث لكن كلماتي تموت على طرف لساني، يذبحها ندمي وعجزي ووجعي، أريد معانقتكِ لكنني أشعر بدنسي يصرخ بي ألا أستحقها، أريد تقبيل ملامحك كلها لكن الذنب يكبل شفتيّ.

أزدرد غصة حلقي لأناولكِ الهاتف فتتصلين بيافا:

- أنا بخير يا عمتي أقسم لكِ، سآتيكِ قريبًا كي تطمئني عليّ بنفسكِ.

لم أكد أسمعها حتى جذبت منكِ الهاتف بعنف لأرمقكِ بنظرة مشتعلة ثم أكمل أنا المحادثة لأخبر عمتكِ أنكِ ربما تحلمين، تضحك يافا ببعض القلق لتسألني عنكِ فأجيبها - وكأنني أتحدث بغير لساني- أنكِ بخير، ستكونين دومًا بخير.. معي.

أغلق معها الاتصال لأصطدم بنظرتك الغاضبة، ربما هي المرة الأولى التي أراكِ فيها غاضبةً بهذا الشكل:

- ماذا فعلت؟! بل ماذا تفعل؟! تظنني سأنسى ما قلته؟! تظنني سأبقى معك فقط لأنك تشفق على حالي؟! أفهم أنك ربما لم تحبني، لكن ألم تفهمني بعد كل هذا الوقت؟!

- وهل فهمتِني أنتِ؟!

أغمغم بها بقنوط منكسًا رأسي بل كياني كله، لتجيبني نبرتكِ المنفعلة:

- نعم! «الطفلة» فعلتها يا يونس! «الطفلة» تقبلت كل خوفك من ماضيك، «الطفلة» حاولت أن تخرجك من السجن

الذي حبست نفسك فيه، «الطفلة» كادت تجد لنفسها مكانًا في كهفك المظلم لكنك لفظتها منه، وآخر ما يمكنها فعله أن تبقى معك وأنت كاره.

- أنا، أحبكِ!

تبًا! هل قلتُها حقًا هذه الكلمة؟!

تغادرني كشعاع نور يحلق متمردًا عاصيًا لمثلث ظلماتي، تتسرب من بين أنفاسي قسرًا كأنها تعاند جبروت كتماني، تخترقني قبل أن تخترقكِ كمعجزة، معجزة لم أكفر بها كما فعلت بسواها.

كلمة بدت وكأنها تتحدى كل مخططاتي، لكن هل بقي لي حقًا من خيار؟! بعدما تذوقت علقم خسارتك لدقائق كادت تقتلني، فكيف أزعم أن بعدكِ عمرًا قد يُعاش؟!

- الآن تقولها؟!

تهمسين بها بوجع يشكو صمتي عنها طوال عهد علاقتنا، وجع يستبيح المزيد من دموعك لكنك تبقين نظراتك متشبثة بعينيّ كأنها تطاردين بقايا سراب اعترافي، فلا أجيبك سوى بآهة خافتة تكاد تهوي برأسي فوق صدرك، لكن..

- لماذا تبعدني يا يونس؟!

- لأني.. خائف.

أهمس بها بخفوت يقارب الصمت وأنا أترك كفكِ لأقف مكاني معطيًا إياكِ ظهري، لكنني أشعر بأناملك تتشبث بي، تهمين بمغادرة الفراش فأثبتك مكانكِ ثم أعاود جلوسي لتعتقلني نظراتك فتجبرني على المواجهة:

- خائفٌ مني؟! أن أخذلك كمن سبقني؟! خائفٌ من نفسك؟! أن تخذلني أنت؟! خائف من الظروف؟! أن تفرق بيننا رغمًا عنا؟! كل هذا الخوف - وأكثر - أعيشه مثلك كل يوم، كل ساعة، أكاد أتنفسه مع كل شهيق، ومع هذا لم أفقد إيماني بك، ربما هذا هو الفارق بيننا، أنا مؤمنة بك.

- وأنا لم أعد أؤمن بشيء.

أصرخ بها بعتمة ظلمتي فتجفلين قليلاً لكنكِ تعاودين الاقتراب، تمزجين أنفاسك بأنفاسي لتهمسي بينهما:

- أنت تحبني يا يونس، والحب مرادف الإيمان، توأمه الحميم الذي لا ينفصل عنه، فكيف تزعم أنك لم تعد مؤمنًا بأي شيء؟!

- أنتِ لا تفهمين، أنا.. أنا.. غارقٌ في قاع ظلمتي.

- وأنا.. ضيّ.

تهمسين بها كنبوءة فكأن الشمس تشرق بين شفتيكِ، ترفعين ذراعي فتخلعين عني ساعتي التي أداري بها بقعة معصمي البيضاء والتي تناقض سمرة بشرتي، هذه التي لامسها ثغرك بقبلة خفيفة:

- أعلم أنك تداريها خجلاً من مظهرها الغريب، لكنني أحبها، أرى فيها بشارة.

تهمسين بها بلكنتك الشامية التي تشي بانفعالك الجارف ثم تعيدين إلباسي ساعتي إنما في معصم اليد الأخرى:

- لا تخفِها يا يونس، في كل مرة تشعر أنك تخجل منها فكر أنها تذكركَ بي.

أتطلع لـ«لجتيكِ الصافيتين» كالمسحور شاعرًا أنني أغتسل بنهر براءتك رغمًا عني، لتنتقل نظراتي بينهما وبين بقعة معصمي، أتذكر اللوحة الزيتية فوق خزانتي السريّة، أتذكر بصمتي التي لطختها وقول نجية «جعلك الله في قلب العتمة الضيّ»، فلا أدري هل أبتسم ساخرًا أم أنزوي باكيًا، لكن صدركِ يحتويني على أي حال.

أدفن فيه رأسي تاركًا شرح حالي لحدسكِ الذي لا يخيب فيضمني ذراعاكِ بقوة تجعلني حقًا أتساءل من منّا يحتاج الآخر أكثر؟! من منّا الغريق ومن طوق النجاة؟!

- ستعودين معي؟!

يرتجف بها صوتي وقد عاد سلطان ظلماتي يجذبني لدوامته، أنتظر جوابكِ وأخشاه.

- لو عدتُ فلن أسمح لنا بفرقة أبدًا.

- لو عدتِ فلن أسمح لنا بفُرقة أبدًا.

تقولينها بحسم عاشقة وأقولها بتملّك طاغية، تقولينها فتشبهكِ واعدة، وأقولها فتشبهني متوعدة، تقولينها كبشرى مؤمن وأقولها كلعنة كافر، فكم بيننا؟! كم بيننا؟!

فقط تذكّري عندما تحين اللحظة الحاسمة أنني فتحت للعصفور باب القفص لكنه آثر سجن عشقه على حريته دونه.

***

* ضي *

* * *

- أنا أعد الإفطار يا يونس.. حالاً.

أهتف بها داخل المطبخ بينما أسمعه يناديني من الخارج ثم أبتسم وأنا أضع لمساتي الأخيرة، إفطارنا يشبهنا، منتهى التناقض، «المناقيش بزيت الزيتون» و«الفول بالزيت الحار» لي، بينما يصر هو أن يكون إفطاره من تلك المعلبات الأجنبية زاعماً أنها تذكره بفترته الذهبية التي عاشها في إيطاليا.

- صباح الخير.

يهمس بها خلفي وذراعاه يطوقان خصري بهذه الطريقة المتملكة التي ازدادت رسوخًا منذ أزمتنا الأخيرة، يا الله! لا أريد تذكر ما كان وقتها، بشاعة إحساسي به وهو يلفظني من أرضه، شعوري بالضياع عندما رأيت حطام بيت يافا، عودتي لآخر ما بقي لي من رائحة أبي، ثم مواجهتنا الأخيرة بالمشفى واعترافه الأول لي بالحب.

لا تزال لغزي العصيّ يا يونس، أفهم فداحة ما مررتَ به، أشعر بغصة حلقك لكنك لا تزال تتوارى خلف سدود كتمانك، لم تكمل لي الحكاية أبدًا، لم تخبرني كيف صارت حياتك بعدما كان، لم تحدثني عن كفاحك الذي أوصلك لهذا النجاح، ألا تفخر به؟!

لكن ما يدعوني للارتياح هو هذه الغيمة الوردية التي

تظلل علاقتنا منذ ذاك اليوم في المشفى، اهتمامك بي صار يقارب الهوس، أعرف أنك أنقذت حياتي حرفيًا يومها، ربما هذا ما جعل مشاعرك تطفو على السطح هكذا دون محاذير.

- موز «بلالايكا»؟! من أين أتيتِ بهذا؟!

تسألني بنبرة غريبة عن حبات الموز مميزة الشكل بصغر حجمها وانتفاخها نسبيًا عن المعتاد، لألتفت لك ضاحكة:

- زوجة الحارس بالخارج مرت به منذ أيام تحمل له بعضه، عندما رأيته كدت أجن، أحبه كثيرًا منذ طفولتي لكنه لا يتوفر بسهولة إلا لدى المزارعين، المرأة أصرت أن تحضر لي بعضه بالأمس.

«شبه ابتسامتك» الشاردة تظلل ملامحك وعيناك تزوغان في الفراغ فلا أحتاج كثير ذكاء لأتمتم بخفوت خشية مقاطعة ذكرياتك:

- تذكرت والديك؟!

- نجية كانت تحبه، كان جابر يصر أن يحضره لها في موسمه، لم يقل لها يومًا أنه يحبها كعهد رجال قريتنا، لكن كل أفعاله كانت حبًا، تعلمين؟! أول عمل امتهنته في حياتي عندما كنت طفلاً في قريتنا في أحد الغيطان، جعلت أجرة اليوم كله هذا «الموز» لأجل.. أمي.

- أمي؟!

أهمس بها بحذر وقد انتبهت منذ عهد بعيد أنك تنادي والديك باسميهما، فتمتزج «شبه ابتسامتك» بدمعة متحجرة في ليل عينيك:

- وقتها كانت أمي.

- يونس.

أهمس بها بعذاب مدركةً ثقل الذنب الذي تحمّله لنفسك، لكنني لا أزال أشعر بالمزيد من حواجز أسرارك فأكاد أسألك عن المزيد لكنك تبادرني بقبلة جامحة تخرس بها ما تبقى من أفكاري، ثم تهتف بنبرة بدت وكأنها تخلصت من شجن الماضي:

- جائع.

- حالاً.

نتشارك الإفطار بمرح صار يغلف أحاديثنا، كأنني أكتشف منك هذا الجانب لأول مرة، تحفظك يختفي رويدًا رويدًا وأنت تحكي لي عن بعض مغامراتك في إيطاليا، عن حياتك هناك وكيف تعرفت على دياب، عن بعض أساتذتك هناك وعن أهم أبحاثك.

- بمناسبة أبحاثك، أخبرني عن آخرها لعلي أكون تلميذتك النجيبة.

ترتجف شفتاك قليلاً لتهرب بعينيك مني:

- نظريًا بحثي الأخير خطير نوعًا أفضّل أن أبقيكِ بعيدة عنه، لكن عمليًا هناك بحث آخر لم أشارك فيه أحدًا، ولا أمانع أن تكوني شريكتي فيه.

- حقًا؟!

أهتف بها بفرحة لترد بحماس:

- هيولان.

تتسع عيناي بانبهار وأنا أسمعك تحكي لي تفاصيل حلمك بحماس ينتقل منك إليّ، حلم؟! هو حقًا حلم مستحيل يا يونس.

لهذا أضحك باستغراب هاتفة:
- أشعر أنه خيال.
- كل ما حولك كان يومًا ما خيالاً، أعرف أن «هيولان» هي جنوني الخاص، لكنني أعشق التحليق في سماء الجنون.
- إذًا.. أحلق معك.
أهتف بها داعمة وأنا أشد بقبضتي على ساعدك فتمنحني «شبه ابتسامتك» ثم تغادر المائدة وقد سمعت رنين هاتفك برقم دياب لتضطرب ملامحك قليلاً، تفتح الاتصال وتبتعد عني قليلاً ثم تعود بملامح جامدة لتهتف بعجلة:
- اعتني بنفسك، لا تنتظريني ليلاً فقد أتأخر.
- بل سأفعل، ولن تنام إلا بين ذراعيّ ككل ليلة.
يزداد اضطراب ملامحك لسبب لا أعلمه لكنك تداري هذا بإيماءة رأس قبل أن تغادرني بخطوات شبه راكضة.
أتنهد بحرارة وأنا أرفع الأطباق لأعود للمطبخ، أشرد فيك كعهدي شاعرة بأن قلبي منقبضٌ لسبب لا أعلمه، أفكر أن أهاتفك لكنني أتراجع، طالما تعاملت معك تعاملي مع حقل ألغام أي خطوة طائشة فيه قد تطيح بنا معًا.
لهذا أحاول الاتصال بيافا لعلي أثرثر معها كعهدنا، لكن هاتفها ظل مغلقًا لما بقي من ساعات النهار.
انقباض صدري يزداد لكنني لا أريد الاستسلام لنوبة أخرى من نوبات هلعي، أقرأ وردي من القرآن ثم أشرد من جديد رغمًا عني فيك، لم أرَكَ يومًا تصلي، حاولت سؤالك

لكنك تفعل الشيء الذي تجيده دومًا؛ الهروب، أعلم أن ماضيك قد ترك ندبته في قلبك وأعلم أن خذلانك من ذاك الشيخ قد جعلك تنتكس، لكنني كذلك أعلم أن من مثلك لن تعيده بضع كلمات لرشده، لهذا أرفع كفيّ بالدعاء من جديد لك، قلبي لم يكذبني يومًا يا يونس، قلبي الذي يوقن أنك - وإن كنت غارقًا في ظلامك كما تظن - لكن جذوة النور بداخلك لم تنطفئ، هي فقط تنتظر من يزيح الستار عنها ليعود لها بهاؤها، وسأفعلها، لن أبرح حتى أبلغ.

أنتهي من دعائي فأسمع صوت عودتك، أمشط شعري كما تحبه ثم أهرع إليك لكنني أصطدم بملامحك المتجهمة.

- ماذا بك؟!

- لا شيء، ذهني مشغول، سأبقى في مكتبي، لا تحدثيني هذه الليلة.

تقولها بفظاظتك التي تقلقني أكثر مما تثير ضيقي، ربما لأنني أعلم أنها ليست سوى قناع لوجعك، أتردد في التقدم نحوك لكن باب المكتب المغلق يفصل بيننا.

القلق يعصف بصدري أكثر فلا أدري هل من الصواب أن ألحّ عليك بسؤالي أم أترك لك - كعهدي - مجداف قاربنا توجهه حيث تشاء؟!

أصعد لغرفتنا لأحاول التواصل مع يافا من جديد لكن اتصالاً من رقم إحدى جاراتنا هناك يصلني، ليبلغني بالفاجعة!

- استشهاد يافا ونضال وأسرته في غارة يهودية على غزة.

- لا! لا.

صرختي تختنق في حلقي فلا تصل للساني، تعتصر ما بقي من خفقاتي، قتلوهم؟! قتلوهم كما قتلوا أبي؟! يافا رحلت، رحلت ولن تعودا هكذا؟! هكذا دون وداع؟! دون أن أراها ودون أن أشهد جنازتها وأزور قبرها؟! يافا.

صرخاتي المكتومة تنفجر داخلي كشظايا، أشعر أنني سأسقط مكاني، لكنني أهرع إلى الأسفل بخطوات متعثرة نحو مكتب يونس.

أناملي المرتجفة تهم بطرق الباب، ليصلني صوته المنفعل من الداخل مخاطبًا أحدهم:

- بضع أسابيع فقط يا مختار وسأكون عندكم ريثما أنهي ما تبقى من شئوني، أنا بدأت إجراءات استقالتي من الجامعة، لا تقلق.. اتفاقنا كما هو، سأترك هذا البلد نهائيًا وأستقر عندكم في إسرائيل.

***

BOOKS

(الظلمة التاسعة)

لا عليّا ولا بيّا

***

* يونس *

***

أراقب جسدها المتشدد في وقفته خلف نافذة غرفتنا، لاتزال على حالها هذا منذ سبعة أيام بدت لي وكأنها دهر كامل، صامتةٌ إلا من دموع تسكب حسرتها، لا ألومها وقد سمعت بأذنيها حقيقتي، هوت معي في قاع ظلماتي دون سابق إنذار، ومتى؟! في نفس الوقت الذي وصلها فيه خبر استشهاد يافا وعائلتها! هل أزعم أن الخبر لم يهزني أنا الآخر؟! هل أزعم أنني أحببت يافا رغم قصر عهد علاقتنا؟! لكن.. هذا العالم ليس ليافا ولنجية وجابر، هذا العالم لمن مثل قمر وغريب ومجدي و.. مثلي.

مجدي! لا زلت أذكر ليلتها عندما رأيته مع أمه يجر كرسيها المتحرك في الشارع، ضحكته التي كان يشاركها إياها وهو يربت على كتفها قبل أن يضع شالها الصوفي ليدفئها به، عيناي تجمدتا هناك، الشال فوق صدرها يذكرني بقدمه هو فوق صدر جابر، عيناي تشتعلان بقسوة الذكرى فلا أشعر بنفسي وقدماي تحملانني نحوهما، لأتوقف أمام كرسي المرأة التي ترمقني بنظرة

متوجسة، لكن عينيّ كانتا مسلطتين على عيني مجدي الذي عقد حاجبيه بدهشة للحظة قبل أن تلتمع عيناه بقسوة ساخرة لا تزال تحتل نظراته، لقد تذكرني إذًا.

- دكتور يونس! كنت أنتظرك منذ مدة يا رجل، علمت عن «هديتك» التي أرسلتها لـ«قمر» و«غريب»، وتوقعت أن تصلني مثلها منك في أي لحظة.

كززت على أسناني بقوة كادت تحطمها، الحقير يعلم، يعلم ويستهزئ بي، يظنني ذاك الفتى الذي سحق هامته منذ سنوات، لكنني لن أتراجع عما انتويته.

- والدتك تبدو طيبة، اعتنِ بها.

ترفع المرأة إليّ عينين حذرتين وقد بدت عبارتي على عكس ما تحمله من ود، لتشتعل نظرات مجدي بالمزيد من قسوته الساخرة:

- لا تقلق، أجيد الاعتناء بها، لست كغيري.

الوغد لا يزال يجيد تصويب سهامه المسمومة، لو كان الخيال يقتل لكان الآن ملقيًا كجثة مضرجة بدمائها، لكن ليس بعد، ليس قبل أن أذيقه مرارة ما فعل بي، العين بالعين والبادي أظلم.

- لو كنت أنهيت كلامك فتنحّ من الطريق، أمي تنام مبكرًا.

يقولها بسماجة متحدية وأنامله تتحسس جيبه في حركة ذات مغزى، لكن نظرتي تحمل له ما يفوق فتك الرصاص، أتنحى من الطريق فيضحك ضحكة مكتومة وهو يسير بكرسي المرأة نحو

مدخل بنايته، لكنه يلتفت نحوي أخيرًا قائلاً:

- دور «كونت دي مونت كريستو» هذا لا يليق بك، الصعلوك لن يصير ملكًا، والحصاة لن تكون نجمة، لو كانت نصيحتي القديمة قد أفادتك فهاك الجديدة، اترك هذا البلد لأسياده وعد من حيث أتيت.

سأعود يا مجدي، سأعود، لكن ليس قبل أن أذيقك حرقة قلب تشبه خاصتي.

- يافاااا!!

صرخة ضي المفاجئة ترجني مكاني لتنزعني من ذكرى تلك الليلة، فأهرع نحوها لأضم جسدها المرتجف ببكائه، لكنها تدفعني عنها بقوة كعهدها طوال الأيام السابقة، تضرب صدري بقبضتيها، ثم تنتقل ضرباتها لصدرها هي، تنفرج شفتاها كأنها على وشك الحديث، لكنها تبدو كتائهة فقدت كلماتها فاستبدلتها بالصرخات.

- اهدئي يا ضي! افهمي!

أصرخ بها بلوعة محاولاً احتواء مقاومتها، لكنها تستمر في صرخاتها المتقطعة التي تكاد تصيبني بالجنون.

- اسمعيني، فقط اسمعيني، طالما كنتِ تجيدين فعلها.

صراخي الراجي يبدو وكأنه قد وجد مرفأه على بحر حنانها المعهود، فيرتخي جسدها بين ذراعيّ وصراخها يتحول لنشيج خافت، أدفن وجهي في تجويف كتفها بينما أعتصرها بين ذراعيّ

كأنما أخشى تسربها مني، لأكشف اللثام أخيرًا عن تاريخي الأسود كله.

أحكي، وأحكي.

هأنذا أحكي لك يا ضيّ، أعرّي لكِ يونس بكل سوءات ماضيه، بكل عذابات حاضره، وبكل ضبابات غده.

صمتي أخيرًا يقابل صمتك فيرتعد قلبي في انتظار ردك، أجد الجرأة أخيرًا لأرفع عينيّ نحوك فتواجهني «جنتاكِ الزرقاوان» لا صافيتان كالعادة بل كدرتان غائمتان، شفتاكِ تتحركان بما بدا لي كمعجزة بعد طول صمتك.

- تدري لماذا أحببتك منذ أول مرة رأيتك فيها؟!

أناملي تتلمس سلسلة عنقك في جواب غير منطوق، لكنكِ تنفضين كفي عنها بعنف غريب على طبيعتك.

- ظننتك مثله، روحك تشبهه كما ملامحك.

حسرتك تنسكب بين حروفك فتشعل المزيد من النيران في ظلماتي.

- أنا تفهمت كل عيوبك، سذاجتي جعلتني أظن أن حبي سيكون ضي ظلماتك، لكنني الآن لا أراك إلا وأجد صورة يافا حائلاً بيننا، دمها يلوث كفيك حتى ولو لم تره أنتَ.

- لا تتحدثي هكذا كالبلهاء.

أصرخ بها بثورة وأنا أرجك بين ذراعيّ مردفًا:

- لا خيار يا حمقاء، في هذا الزمان لا خيار، إما أحيا وكفي في كفهم أو أموت وقدمهم فوق صدري.

- الخيار في كل زمان يا «عبقري»، إما نحيا ونحن نقاتل بشرف المؤمنين، أو نموت ونحن نرتجي جنة الخالدين.

ضحكتي العصبية الساخرة تقاطع كلماتك فتنفضين ذراعيَّ عنكِ لتبتعدي هاتفة بمزيج غريب من قوة ووهن:

- سأمنحك آخر فرصة للاختيار، إما أنا أو ظلماتك.

- الاختيار؟! تظنين أنني أو أنتِ نملك حقًا الاختيار؟!

قسوة نبرتي تبذر الخوف في نظراتك فتبتعدين بظهرك لأقترب أنا مردفًا بنبرة أكثر سوادًا:

- منحتكِ فرصة الخروج من كهف ظلماتي من قبل فرفضتِها، والآن لم يعد لك خيار، أنتِ ستبقين معي شئتِ أم أبيتِ.

عيناك تتسعان بذعر وعيناي تدمعان بعجز يناقض كل هذه القسوة التي تظلل حروفي، لم يعد بوسعي تركك يا ضيّ، لمن أتركك؟! وكيف؟!

أراكِ تركضين فجأة نحو الباب المغلق تهمين بفتحه فألحقكِ لأقيد حركتكِ، صرخاتكِ تعلو من جديد فأشدد من قوة ضمتي لكِ بما هو ظاهره القسوة وباطنه الخوف.

- طلقني، واذهب حيث شئت.

- لا أفعلها وفي جسدي عرق ينبض، لا خلاص لك مني إلا بموتي.

- إذًا..

ترفعين كفيكِ كأنما تهمين بالدعاء عليّ بالموت فينقبض قلبي جزعًا.

لكن حروفكِ تنقطع فجأة وأنتِ تخفين دموعك بين كفيكِ بينما تهزين رأسكِ بعجز يشبه عجزي.

أخفف ضغط ذراعي حولكِ فترفعين عينيكِ نحوي من جديد. خوف، ثم احتقار، عتاب، شفقة، رجاء، رجاء يقابله عجزي فينقلب لانتفاضة.

انتفاضة تنتهي برفعكِ لمعصمي، صوت شيء ما زجاجي يتكسر، لأنتبه لشظيتك فوق «بقعتي البيضاء»، تشيرين إليها بأنامل مرتجفة تناقض قسوة عبارتك:

- لا تستحقها.

الألم يجتاحني من نظرتكِ بأكثر مما يفعله جرحكِ، عيناكِ تتسعان للحظة من مرأى الدم كأنكِ لا تصدقين أنكِ فعلتِها، صرخاتكِ تتزامن مع اعتصار أناملكِ المرتجفة لمعصمي فلا أدري هل تزيدين وجعي أم توقفين نزفي.

تسقطين على ركبتيك أمامي فلا أقوى على المزيد من مواجهتك، أغادر غرفتك فأغلقها خلفي بالمفتاح، ثم أنادي الخادمة فآمرها ألا تغادرك وألا تغادري أنتِ غرفتك مهما حدث.

صرتِ سجينة مثلي يا ضي، كلانا صار أسير ظلماتي.

أعالج جرح معصمي بنظرات شاردة، إنها المرة الأولى التي تؤذينني فيها يا ملاكي، لا ألومك، ليت شظيتك نالت قلبي لينتهي

عذابنا معًا، ما بيننا تشوه للأبد، لكن منذ متى لم يكن كذلك؟!

صوت هاتفي يعلو برقم دياب فيختلج قلبي بعنف الترقب، عيناي تشتعلان والخبر يصلني منعشًا، وقابضًا.

هاهي ذي أولى محطات انتقامي من مجدي.

لم أدرِ كيف غادرت قلعتي السوداء نحو المكان الذي ينتظرني فيه دياب، والذي لم يبدُ راضيًا تمامًا عما نفعله، لكنني لم أكترث لهذا وأنا أفتح باب المخزن القديم الذي يحرسه رجال دياب، أتقدم ببطء نحو الكرسي المتحرك الذي تعتليه المرأة العجوز، أواجه عينيها المعصوبتين بحاجبين منعقدين، أسمع رجاءاتها المتوسلة تارة وتهديداتها النرجسية تارة فتتوه مني كلماتها وسط لهيب الذكرى، قدم مجدي فوق صدر جابر الميت.

أتقدم منها أكثر لأنحني جالسًا فوق ركبتي أمامها، المرئيات تتشوش في عينيّ فلا أميز سوى لون الدم، دم جابر، دم يافا، دمي أنا بعد جرح ضيّ، عجلة أدارتها قدم واحدة، وحان وقت القصاص.

أشعر بدياب يقترب محذرًا فأرفع إليه عينين مشتعلتين ولا يزال صراخ العجوز يدوي في أذني فيزيد نشوة الانتقام في عروقي، أناملي تقترب من عنقها أكثر فيعلو صوت صراخها، لكن صوتًا آخر يزاحمه، صوتًا من الماضي، صوت جابر.

– الرجل لا يترك ثأره، لكنه لا يأخذ واحدًا بذنب آخر.

فأجيبه صامتًا كأنه يسمعني:

– هو أخذك دون ذنب.

– لا شأن لي به، أنا أكلم ابني، ابني يونس.

لقد سمعته، أقسم إني سمعته، سمعته يقول إني ابنه، هل تعنيها حقًا يا جابر؟! لا تزال تراني ابنك؟!

كف دياب يحط على كتفي فأنتفض مكاني واقفًا، أتلفت حولي بذهول كأنني أبحث عن طيف جابر، هل أصابني الجنون؟!

أغادر المكان بخطوات راكضة فيلحق بي دياب ليواجهني بملامحه القلقة والصمت بين عينينا يغنيه عن وصف حالي.

- لن تؤذيها يا يونس.

- سأقتلها كما قتل أبي، ولن أنال عقابًا مثله.

- لن تستطيع.

- وكيف استطاع هو؟!

أصرخ بها بكل ما أوتيت من غضب وعجز ليزفر هو مطرقًا برأسه ثم يرفعه قائلاً بحسم:

- أنت لست هو.

صمتٌ ثقيل يسقط بيننا تظلله ضبابات أطيافي من معسكر اليسار؛ قمر، كامل، غريب، مجدي، يقابله معسكر اليمين؛ جابر، نجية، يافا، ضي، كلهم ينتظرون قراري.

- أعدها سالمة وتولّ الأمر.

أهمس بها أخيرًا كـ«رصاصة رحمة» فيبتسم داعمًا وهو يربت على كتفي لأردف أنا بحزم:

- لكنني لن أترك ثأري منه هو.

- حقك.

يقولها بنظرة تجدد العهد بيننا فأتركه شاعرًا بقواي كلها

خائرة كأنني خرجت لتوي من سباق طويل، لا أدري كيف سيتصرف مجدي بعدما كان؟! وماذا يخبئ لي في جعبته؟! لكنني أثق أنني سأخرج من كل هذا فائزًا، سأترك هذا البلد كله خلفي بعدما أشرب كأس انتقامي كاملاً، لا أريد منه سوى ضي، أجل ستأتي معي برضاها أو رغمًا عنها.

أدور بسيارتي بعدها في الشوارع لساعات لا أدري عددها، أعود لقلعتي السوداء فتقودني خطواتي نحو مختبري البسيط في الدور السفلي، أتلمس الصندوق الزجاجي حيث يسبح القنديل المشع بلونه الأبيض فأرفع معصمي المصاب وقد غطت الضمادة الطبية بقعتي البيضاء، لكنني أراها من خلفها تتحرك مثل القنديل، تهز مجساتها المشعة لتصب نورها في دمي، هيولان!

كم أحتاج عالمكم، كم أحتاج حياة تلو حياة أعيشها دون خوف من هلاك أو هرم! ومعي ضيّ!

اسمها يشعرني إلى أي حد افتقدتها لكنني صرت أخشاها، أعلم أنني أخنقها بين كفين يكادان يتضرعان إليها ألا ترحل كمن رحلوا.

أغادر المختبر نحو غرفتنا التي أفتحها لأميز جسدها النائم تحت غطاء يغشاه كاملاً، أقترب بخشية لأرفع الغطاء فتتلقفني المفاجأة، إنها مجرد وسادة!

– ضي!

أصرخ بها بجنون وأنا أتفقدها في كل شبر من البيت، لكن الخيبة تصب نصيبها في كأسي، لقد هربت!

* * *

* ضي *

❊❊❊

الخذلان، فليقولوا ما يقولون عنه، سلوني أنا التي ذاقته بأقسى ما يكون، كغيمة وقف تحتها القلب راقصًا منتشيًا يرجو المطر، ليرجفه رعدها ويعميه برقها فلا ينتبه إلا والسيل الغادر يغرقه.

أجل، أغرقني سيلك يا يونس، مهما ظننت أني استطعت النجاة.

أضم ذراعيّ حولي وأنا أتوجه نحو باب الغرفة الغريبة عليّ لأتأكد من مزلاجه المغلق، لم يعد يمكنني منح ثقتي لأحدهم فمن يلومني؟! أسبوعان كاملان مرّا بي هنا منذ هربت من بيتك، ولا أدري إلى متى سأمكث هنا لكن.. ما البديل؟!

يونس، معشوقي وجلادي، ها قد غادرت قلعتك رغمًا عنك، فهل أشعر بالتشفي فيك أم بالشفقة على حالك دوني وأنا أدرى منك بقيمتي عندك؟! كيف أصف خيبتي، وجعي، خوفي منك وعليك؟! كيف أردك عن طغيانك وقد سلمت زمامك لشيطانك؟! وكيف أكذب زاعمة أني كرهتك برغم كل ما كان؟! ألا أزال أجد لك في جحيم ماضيك عذرًا لانحراف مسارك؟! نعم، ربما لهذا تختلط لعناتي عليك بشفقتي نحوك وبينهما يقف قلبي حائرًا.

صوت هاتفي - الجديد- يقاطع نزف أفكاري فألتقطه ليصلني الصوت الوحيد المؤازر الذي صرت أعرفه في هذا العالم:

- تحتاجين شيئًا؟!

أبتسم ساخرة من سذاجة السؤال، هل يملك أحدهم حقًا منحي ما أحتاج إليه؟!

أشكر الرجل بفتور ثم أغلق الاتصال لأتوجه نحو زاوية الغرفة أؤدي صلاتي التي ما عدت أجد في سواها سلوانًا، أختمها بالدعاء ليافا وعائلتي ورغمًا عني أتمنى لو يعجل الله لقائي بهم، لساني يغافلني بالدعاء باسمك كما اعتدت في أدبار صلواتي فأنخرط في البكاء وأنا لا أدري هل يجوز حقًا الدعاء لمن هو مثلك؟! هل لا أزال أرجو منك عودة عبر سراديب ظلماتك؟!

النوم يغلبني مكاني فألتمس السكينة في موضع سجودي، أرى يافا مع نضال وعائلته يشبكون أكفهم معًا ويتضاحكون مع أبي الذي يلتفت نحوي، فلا أدري هل هي ملامحه أم ملامحك أنت.

أنهض من رقدتي فجأة شاعرة ببعض الارتياح الذي تضاءل مع سماعي لرنين هاتفي.

قلبي ينتفض بقلق لا أدري كنهه والصوت المألوف يصلني غارقًا بصرامة قلقه هو الآخر:

- مهما حدث لا تغادري مكانك، يونس تعرض لحادث أظنه متعمدًا، قد يكون هناك خطر على حياتك أنتِ الأخرى.

كلماته تطيش في أذني فلا أميز سوى بعضها، طلق ناري! طريقه للجامعة! يونس! يونس في خطر!

الهاتف يسقط من يدي وخطواتي الراكضة لا تعرف سوى طريق واحد.

أجل، أنا الهاربة التي عادت بقدميها لعرين الأسد.

خلف العمود الضخم أمام مكتبه في الجامعة والذي اعتاد هو الاختباء خلفه أختفي أنا الآن أراقبه من خلف باب مكتبه المفتوح وقد ازدحم حوله بعضهم، خفقاتي تتلاحق بجنون وعيناي تدوران عليه تتفحصانه بجزع، كيف ذهب حنقي عليه أدراج الرياح فلم تبقَ لي سوى جذور عشقه الراسخة؟!

أشهق بعنف وأنا أراه يلتفت فجأة نحوي فأسارع للاختباء برأسي من جديد خلف العمود، جسدي يرتعد بقوة وقد انتبهت لتوي لما فعلته، لقد أضعت فرصتي في الهروب منه، لا.. ليس بعد، ربما لم يرني، سأعود، سأ...

شهقة أخرى مذعورة تتزامن مع شعوري بقبضته التي امتدت فجأة لتجذب ساعدي نحوه.

عينانا تلتقيان للحظة فينفجر سيل دموعي حاجبًا عني كل ما دونه، فلا أشعر بعدها إلا بباب غرفة مكتبه يغلق خلفنا وحدنا وبذراعيه يطوقانني بقوة من يخشى فقد روحه، كلماتي تنساب دون إرادة وكأنني لست المرأة التي هربت منه منذ أيام بعدما جرحت معصمه:

- كنت سأموت لو أصابك مكروه.

يعتصرني بين ذراعيه أكثر حد الألم كأنه يعاقبني مع همسه المحترق:

- تعلمين أول ما فكرت فيه عندما سمعت صوت الرصاصة؟! خشيت أن أموت قبل أن أراكِ من جديد.

عناقنا يشعل كلينا بهذه النار التي تنير ولا تحرق، يعيدنا كيانًا

واحدًا لا يميز واحدًا من آخر.

- من فعلها؟! ولماذا؟!

أصرخ بها برعب فتقسو نظراته قليلاً ثم تتجمد تمامًا وهو يمسح دموعي ليسألني فجأة:

- أين كنتِ؟!

تتسع عيناي بخوف مما أنا مشرفة عليه وقد شعرت أني أفقت من سكرة عاطفتي لأواجه ظلمته البشعة من جديد.

- كيف هربتِ؟! من ساعدك؟!

همسه يزداد قسوة لكن المكان يمنحني بعض الأمان لأهتف بانفعال بينما أفلت من بين ذراعيه:

- لن يغير هذا مما بيننا شيئًا، لن أعود إليك، آه..

أتأوه بألم وقبضته تعتصر فكي فجأة، وجهه المحتقن بالدماء يناقض برودة صوته القاسية:

- تظنينني لن أسألكِ أين اختفيتِ طوال أسبوعين ومن ساعدك لتهربي من بيتي؟!

أحاول تخليص نفسي منه عبثًا فتتبدل نظرتي لأخرى متحدية:

- تريد أن تعرف؟!

قبضته تشتد أكثر حول فكي فتشتعل نظرتي أكثر بين ألم وعناد:

- عند دياب.

عيناه تتسعان للحظة وكأنني طعنته باعترافي لأردف بالمزيد من التحدي وقد وجدتها فرصتي لغايتي:

- في بيته، على فراشه، آه...

صرختي تختنق في حلقي وقبضته تهوي نحو عنقي، هذه النظرة الذبيحة في عينيه تكاد تثنيني لكنني أكمل:

- لماذا العجب؟! هو الوحيد القادر على فعلها، آه...

صوتي يتحشرج بالمزيد من الألم مدركة قرب النهاية لكنني لا أزال أتشبث ببقايا أمل، هذه النظرة في عينيه تتصارع بين تصديقي وتكذيبي، قلها يا يونس، قل ما أود سماعه، قلها واجعلني أشعر أن لا يزال لي فيك أمل.

- كاذبة!

أتنهد تنهيدة خلاص وأنا أسمعها منك كما تمنيت بالضبط، دموعي تسيل من جديد على وجنتي بينما أشعر بأناملك ترتخي فوق عنقي.

- أنت لا تخونين، دياب لا يخون.

- وأنت، أنت لا تخون.

أهتف بها بين دموعي لأتشبث بياقة قميصك فأهزك مكانك كأنما أوقظك من سباتك:

- أرأيت؟! هذا هو ما يفعله بنا الإيمان، يجعلنا نكذِّب كل جوارحنا ونثق فقط في حدس قلوبنا، أنا أؤمن بك كما تؤمن بي، أنت لن تخون دينك ولا وطنك ولا قلبك.

- اسكتي!

تهتف بها بألم مغمضًا عينيك فأشعر أن كلماتي وجدت صداها في صدرك، ربما لهذا عدت أقول:

- دياب ساعدني حقًا في الهرب لكنه ترك لي بيته كي أكون

فيه وحدي.

- لماذا؟!

تتمتم بها مصعوقًا كمن تلقى طعنة في ظهره، فأهز رأسي بجهل لأراك تبتعد عدة خطوات ثم تعطيني ظهرك ليظللنا الصمت الثقيل لدقائق طالت، وكم وددت في هذه اللحظة لو أخترق عقلك الغامض هذا فأدرك فيم تفكر.

- عودي من حيث أتيتِ.

- ماذا؟!

أسألك بتوجس مصدوم وقد بدت لي كلماتك وكأنها تحمل ما يفوق ظاهرها البسيط، فتلتفت نحوي لتروعني هذه الدموع الحبيسة في عينيك وكلمتك تصيبني فلا أدري كطلقة غادرة أم مفتاح حرية:

- أنتِ طالق!

ONE PIECE
BOOKS

(الظلمة العاشرة)

أنا يونس، ونسيت مين يونس

والدنيا مالت عليا

***

يونس

***

طلقتها، منحتها صك حريتها وعدت وحدي لمثلث ظلماتي، تمامًا كما عادت لي كوابيسي منذ تركتني.

لماذا الآن بالذات فعلتها؟! لأن خوفي عليها غلب كل ما سواه من مشاعر، بعد الطلق الناري الذي طاش تلك المرة ولا أثق أنه سيصيب في مرة قادمة، وفي المرتين التوقيع يحمل اسم مجدي.

خائف؟! جدًا! خائف من الموت ولا أملك شجاعة الاعتراف بالعكس، خائف عندما تنفك أضلاع مثلث ظلماتي أن تلقيني في جحيم الخلود، نجية، جابر، ضي، خائف أن تفرق بيننا الحياة الآخرة كما فرقت بيننا هذه الدنيا، خائف بل أكاد أموت خوفًا لكنني لا أملك سبيل التراجع.

تراكِ تسامحينني يومًا يا ضيّ؟! سأترك لكِ ما يؤمّن لكِ حياتك بعدي، لكنني سأتركك أنتِ فربما كان هذا هو أمانك حقًا.

هاتفي يرن جواري بينما أقود سيارتي نحو قلعتي السوداء فينعقد حاجباي بغضب مستعر، دياب! أخيرًا ظهر هذا الوغد الخائن بعد يومين كاملين من اختفائه غير المبرر، لا أصدق إلى الآن كيف طعنني في ظهري ولماذا فعلها.

- تعال إلى بيتي، أظن بيننا حسابًا يجب تسويته.

أقولها ببرود متوعد لكنه يهتف بي بجزع:

- لا تذهب إلى بيتك يا يونس، أوقف سيارتك مكانها وانتظرني.

- تظنني سأثق فيك بعدما فعلت؟!

أهتف بها بنفس البرود المتعمد وأنا ألتفت لسيارة خلفية تضم حرسًا خاصًا جعلته لي بعد ما كان، ليصلني صوته بصرامة لم أعتدها منه:

- استمع إليّ هذه المرة، أنا في طريقي إليك لا...

كلماته تنقطع في أذني وعيناي يغشاهما ضوء مصباحي السيارة التي توقفت فجأة أمامي، قبل أن أراه يتقدم نحوي، مجدي!

عيناه القاسيتان تتوهجان بتشفٍّ فأترجل من سيارتي لأتقدم نحوه، والنظرات العاصفة بيننا توحي بقرب معركة الخلاص.

- غريب أنت يا يونس، غريب حقًا، الدنيا منحتك فرصة يتمناها الآلاف غيرك، المال، الوضع العلمي، المرأة الـ..

يقطع عبارته بغمزة وقحة فأرفع قبضتي بلكمة نحو فكه

لكنه يتفاداها بمهارة تليق به ليعيدها إليّ مضاعفة فأشعر بالدوار يلف رأسي.

- غبي، عشت غبيًا وستموت غبيًا، تظن أن من هو مثلك قد يهزم من هو مثلي مهما كان؟! تظن صديقك الخائب دياب ذاك سيغلبني أنا في ألعاب الظلام؟! تظنني سأمرر لكما ما فعلتماه بأمي؟

- لم أفعل شيئًا.

أقولها فتمتزج حروفي بنزف شفتيّ ليضحك هو هاتفًا بازدراء:

- لأنك جبان، ترتدي قميصًا لا يناسب مقاسه جسدك الضئيل، تلعب لعبة لست لها، تعلم كم تساوي حياتك الآن؟!

أبتسم بتشفّ وأنا أشعر بسيارة الحرس تتوقف خلفنا ليترجلوا منها فأهتف له:

- لا زلت تراني غبيًا؟!

لكن ضحكته المستفزة تفاجئني وأنا أرى الحرس ينضمون إليه ليشهروا أسلحتهم في وجهي أنا.

- خسارة! العالم العبقري هو في النهاية مجرد غبي آخر.

يقولها وعيناه تشتعلان بقسوتها الباردة فيرتعد قلبي وقبضة الخوف تعتصره أكثر.

- والآن، ماذا تظنني فاعلاً بك؟!

يقولها وهو يشير لأحدهم فيقترب مني مصوبًا نحوي

سلاحه ليردف وكأنه يتلذذ بسادية كلامه:

- هل جربت أن تكون كلمتك سرًا من أسرار الموت؟! بضعة حروف منك تسلب أحدهم حياته؟! فعلتها بأبيك والآن حان دورك.

أغمض عينيّ بقوة على صورة جسد جابر الميت، وقد أيقنت من قرب مصير يشبهه، لن أسأل مجدي عن خوفه من عقاب فمثله لن يعدم طريقة ليسوي بها الأمر.

رجله يقترب منا فأفتح عيني لتتعلق نظراتي المذعورة بمسدسه ورائحة الموت تزكم أنفي، لكن المفاجأة تكون من نصيب كلينا وأنا أرى الرجل يهوي بكعب مسدسه فوق عنق مجدي الذي يسقط أمامي بعدها.

تتسع عيناي بصدمة وأنا أهم بسؤال الرجل عما فعله لكنه يشير لي بكفه بحركة صارمة، ثم يتناول هاتفه ليجري اتصالاً ما لم أفهم فحواه.

أستند إلى مقدمة سيارتي بالمزيد من الخوف وأنا أرى بقية الرجال يتقدمون ليحيطونني في نصف دائرة قبل أن أسمع الصوت المألوف يصدح خلفي:

- خذوه ودعوني معه هو.

دياب!

ألتفت نحو سيارته التي توقفت لتوها فينعقد حاجباي بقوة

وأنا أراه يتقدم لينحني نحو جسد مجدي فينتزع من ياقة سترته شيئاً ما وضعه في جيبه هو قبل أن يتحرك الرجال ليحملوا جسد مجدي ويغادروا به في سيارتهم تاركين إيانا وحدنا.

- أيمكنني أن أفهم ماذا يحدث بالضبط؟!

أصرخ بها بجنون فجّره انفعال الدقائق السابقة ليقترب دياب مني ووجهه تحوطه هالة صرامة حاسمة غريبة عن خنوعه المعهود معي، صرامة امتزجت ببعض الرفق وهو يربت على كتفي بأحد كفيه بينما يرفع بطاقة خاصة بكفه الآخر:

- المخابرات المصرية.

الخوف يختفي لتحل محله صدمة عارمة وأنا أقارن صورته في البطاقة مع اسمه الغريب عليّ، دياب! دياب ليس دياب!

الصدمة ترسم ضحكة عصبية فوق شفتيّ تتلوها أخريات فيزداد انعقاد حاجبيه وهو يعاود تربيته على كتفي، لكنني أزيح كفه فجأة بعنف لأصرخ وأنا أبتعد عنه:

- الآن فهمت، لا داعي لمزيد من الشرح، تلاحقونني لأجل بحثي الأخير لكنني لا أفعل جريمة يعاقبني عليها قانون، حقي أن أمنح حق تمويل أبحاثي لمن أريد، ليست المرة الأولى.

- تعلم أن هذه المرة مختلفة، بحثك الأخير لو اكتمل فسيؤثر على التوازن العسكري للمنطقة كلها.

يقولها بنفس الصرامة الغريبة الممتزجة بالرفق فأشيح

بوجهي دون رد، ليردف:

- علمك هذه المرة طعنة في ظهر بلدك.

فأطلق ضحكة متهكمة تناسب قولي:

- وفر محاضرتك السخيفة فهي إهانة لذكاء كلينا، أظنك بعد كل هذا الوقت تعلم كيف أفكر، يا صاحبي.

- ولأنني أعلم كيف تفكر، يعز عليّ أن تخون، يا صاحبي!

يقولها كأنه يرد لي بضاعتي، فأصرخ بالمزيد من الانفعال وسبابتي تلكز صدره:

- تتحدث عن الخيانة؟! ماذا تسمي ما كان بيننا إذًا؟! واجب وطني؟!

سخريتي المفتعلة تصطدم بجبال تفهّمه ليصمت قليلاً قبل أن تهوي كلماته بيننا:

- في البداية كنت لي حقًا مجرد واجب وطني، لكنني اقتربت منك، احترقت معك بجحيم ماضيك، لمست روحك الكسيرة، لن أبالغ لو زعمت أنني كنت أعذرك في كل ما كنت تنتويه.

أكاد أتهمه بالكذب لكن الصدق الذائب بين حروفه يخرسني.

- يومًا بعد يوم لم يعد قربي منك لأجل مراقبتك فحسب بل لأجل دعمك، لحمايتك من نفسك، أنا ساعدتك في الانتقام لكنني كنت أحرص ألا تتجاوز حدود المحظور، قضية قمر، اختطاف غريب، أم مجدي، لو راجعت نفسك لوجدت أنني كنت أمنحك

نشوة انتقامك دون أن تلطخها بخطأ لا يمكن إصلاحه.

أكز على أسناني بقوة وأنا أشعر أنني حقًا غبي، غبي كما قال مجدي، وهنا أبادره باتهامي:

- لم تتركني أنتقم منه لأنه شرطيّ.

- بل سأجعلك تفعلها، إنما بالقانون.

يهتف بها بحسم وهو يستخرج ذاك الشيء الذي كان مثبتًا في ثياب مجدي مردفًا:

- هو اعترف بفعلته وسينال عقابه، عهدٌ عليّ وأنا لم أخلفك عهدي يومًا.

ضحكة أخرى ساخرة تصاحبها تصفيقة مني:

- والآن ينتهي الفيلم بموسيقا وطنية حماسية، سيادة الضابط نجح في إعادة الابن الضال الذي عرف قيمة الوطن ورفض التعاون مع أعدائه، عظيم.. عظيم.

أهتف بها بتهكم مبالغ فيه ولا أزال أصفق لتشتد ملامحه مع كلماته:

- أنت لم تغادر كي أعيدك يا يونس! لو كنت تفهم نفسك حقًا لعلمت أن الوطن الذي تسخر منه هذا كان دومًا داخلك مهما ظننت العكس، في ابتسامة نجية، وتعاليم جابر، وحب ضيّ.

- لا تذكر اسمها! كفاك ما فعلته معها!

- كنت أحميها، تمامًا كما جال بذهنك وأنت تطلقها.

يهتف بها داحضًا اتهامي فتشتعل ملامحي بنيران انفعالي وأنا لا أدري كيف أتصرف، ممزقٌ بين خوفي الطبيعي من عاقبة موقف كهذا وبين غضبي من كوني كنت مجرد لعبة بين يديه، وبينهما لا يمكنني منع مشاعر امتنان حقيقي لما كان بيننا رغم كل شيء.

أعطيه ظهري مكتفًا ساعديّ فيصلني صوته المفعم بإيمانه:

- طالما تشدقت بمثلث ظلماتك، ولو صدقت نفسك لوجدت أن القدر يمنحك الآن فرصة مقايضته بمثلث آخر، ضي مقابل قمر، يافا مقابل غريب، وأنا مقابل مجدي، الحب، الدين، الوطن، ألا تزال تجد الظلمة حقًا لا يتخللها نور؟!

أقبض كفيّ بقوة جواري لتجتاحني الصور، قمر تتأبط ذراع كامل، رأسي يتوسد صدر ضي، غريب المدعي يطعنني بسكينه فيلوث دمي لحيته الطويلة، يافا التقية فوق سجادة صلاتها ترفع كفيها لي بالدعاء، مجدي يضع قدمه فوق صدر أبي، دياب - أو أيًا من كان هذا- يضع مجدي في السجن.

الصور تتداخل وتشتبك فأشعر بالدوار يلف رأسي لأطلق صرخة عالية وأنا أخبط بقبضتي فوق مقدمة سيارتي لأهتف بانفعال:

- دعوني وشأني، لو كنتم تريدونني بشأن البحث الأخير فسأكفيكم إياه، أعرف جيدًا كيف تتم هذه الأمور، سيقتلونني هم أو تقتلونني أنتم، لهذا سأبتعد عن هذا المجال وأرى غيره، وسأترك لكم هذا البلد بما فيه، لكن دعوني وشأني! دعوني وشأني!

أظل أصرخ بعبارتي الأخيرة حتى أشعر بقبضتي تؤلمني

فيحتمل ثورتي صابرًا، ثم يتحرك ليواجهني بملامحه التي لا تزال تمزج صرامتها بتفهمها:

– صدقني لم تعد تعنيني مهمتي بقدر ما يعنيني أن أعيدك لنفسك، لأجلك أنت يا يونس، أنت تستحق السلام بعد كل هذه الحرب.

ألتفت نحوه بعيني الدامعتين بمزيج غضبي وتشتتي وعجزي، لا أكاد أصدق أن تنقلب الأدوار هكذا فيصير دياب البسيط الذي عاونته وانتشلته من القاع هو الآن من يعلوني سلطة ويقدم لي النصح.

– هل تحتجزني لسبب ما يا «حضرة الضابط»؟ أم يمكنني الآن العودة لبيتي؟

أسأله أخيرًا ليحتكر نظراتي بعينيه القويتين ثم يقول بنبرة ذات مغزى:

– ليس أحب عليّ من أن تعود لبيتك يا يونس، ليتك حقًا تعود!

أضحك بتهكم فظ يمتزج بمرارة حارقة وأنا أتجاوزه لأستقل سيارتي التي أتحرك بها تاركًا إياه خلفي.

قبضتاي تشتدان حول المقود وأنا أزيد سرعة سيارتي حد الخطر لكنني لا أهتم، وكأنما تغلب رغبة تمردي خوفي المعهود، ذكريات الليلة العصيبة تشعل المزيد من النيران في مثلث ظلماتي، نظراتي تصطدم بـ«بقعتي البيضاء» التي ترك فيها جرح ضي

ندبة خفيفة لا تميزها سوى عيني، فتبدو لي كقنديل بحر بمجسّ واحد، هيولان! أحتاجكم الآن بأكثر من أي وقت مضى!

ابتسامتي الساخرة تصفع إدراكي، لكنني أشهق بعنف وأنا أميز هذه الشاحنة الضخمة أمامي، أحاول تجاوزها لكنني لا أستطيع.

صوت اصطدام مدوٍّ ثم ظلام، ظلام، ظلام.

نفق طويل يمتد أمامي لألمح النور في منتهاه.

أصل لآخره أخيرًا وأنا أحاول فهم ما حدث.

أين سيارتي؟! بل أين أنا؟!

عالمٌ أزرق صافٍ ينساب حولي كأنني سقطت فجأة في البحر.

أحاول تحريك قدمي لكنها بدت وكأنها تحجرت أخيرًا.

يداي كذلك خرجتا عن قيود سيطرتي لتبدوا لي وكأنهما مكبلتان بقيد غير مرئي، أدور ببصري حولي فأنتبه لتوي لسجني الذي بدا لي هرميّ الشكل بواجهاته المثلثة شبه الزجاجية التي تتيح لي رؤية ما حولي.

هل هو كابوس جديد؟! لا.. أنا لا أشعر بالخوف، على العكس، الجو حولي يمنحني سكينة غريبة تشبه شعوري في حضن ضي، حتى الرائحة حولي تشبه رائحتها، تراها مثلي سجينة هنا؟!

أهتف باسمها لكن صوتي لا يغادر حلقي، بل يرتد كسهم يؤلم معدتي يحذرني من تكرارها، أتلفت حولي لتتسع عيناي بصدمة وأنا أميز هذا الكيان الذي يقترب نحوي، هيولان! أنتم حقًا هنا!

* هيولان الأولى *
* مملكة النور والخلود *

* * *

- مرحبًا بك أيها المتلاشي، أي شرف نلته؟! وأي ذنب اقترفته حين دعاك شهاب الأعظم لتبقى معنا في هيولان «مملكة النور والخلود»؟!

الصوت ينبعث بداخلي فلا أدري مصدره، لكنني أسمعه بوضوح بينما يقتربون مني بتشريح أجسادهم الذي أعرفه، القرص الشفاف، القوام الهلامي، والأطراف الطويلة التي ندعوها باللوامس أو المجسات، يتحركون بنفس الطريقة التي أعرفها بانقباض أجسامهم ثم فردها بحركة حرة اعتمادًا على تيار الماء، لكن ما وجدته غريبًا هو حجمهم الضخم الذي يقارب حجمي بل يفوقه، وهذا التركيب الذي يشبه المخ البشري والذي يبدو واضحًا خلال الأقراص الشفافة!

- مخ؟! أنتم حقًا هيولان؟!

أهتف بها بذهول فيرتد الصوت داخلي ليبدو كما لو أنه يلكمني في معدتي كما المرة السابقة، تتسع عيناي بذعر وأنا أميز أكبرهم يقترب مني أكثر، والصوت ينبعث داخلي كأنما يسقيني أفكاره:

- أنت بالذات لا يحق لك العجب، ألم تكن تزور عالمنا في أحلامك؟!

- هل هذا حلم؟!

صوتي يرتد من جديد داخلي ليصيبني بألم فتتحرك مجساته بهذه الحركة السريعة حوله ولا يزال يسقيني أفكاره:

- لا تحتاج للكلام أيها المتلاشي فسيؤلمك، نحن نقرأ أفكارك كما نقرِئك أفكارنا، هكذا نتحدث في هيولان، عن طريق التخاطر، لهذا لا مجال للكذب.

التخاطر؟! يالها من طريقة للتواصل!

أعقد حاجبيّ بقوة وأنا ألتفت حولي محاولاً تحريك أطرافي دون جدوى! هل فقدت وعيي بعد الحادث؟! هل أحلم؟!

- وهل يبدو الحلم بهذه الشفافية أيها المتلاشي؟!

صوته يخترقني من جديد فألتفت نحوه ليدور بيننا أغرب حديث دون صوت:

- أين أنا؟!

- في هيولان! ظننت هذا واضحًا!

- كيف؟!

- نحن نختار سجناءنا فقط ممن يؤمنون بنا، الإيمان هو بوابة دخولك عالمنا أيها المتلاشي.

- لماذا تدعوني بالمتلاشي؟!

- لأننا نحن خالدون، ظننت هذا واضحًا.

- ما هذا الهراء؟! من أنتم؟!

لم أنتبه أن فكرتي خرجت كصرخة إلا عندما تراجعوا جميعًا بقفزات مجساتهم اللاسعة ليتوهج القرص الشفاف لكبيرهم بنور أحمر:

- لا تصرخ ها هنا، هنا أرض الحِلم ولا مكان بيننا للغاضبين.

أغمض عيني بقوة ليصلني سيل أفكاره:

- هنا هيولان، مملكة النور والخلود، جدنا الأكبر اختار لنا هذه البقعة في المحيط، كان متلاشيًا مثلك لكنه ترك لنا سر الخلود، نحن نقف على الحدود الفاصلة بين البشر والتيولا، أمخاخنا شبه بشرية كما ترى لكن أجسادنا بقيت على حالها البسيط الذي يتيح لنا سهولة التكاثر بطريقة «التيولا» المعهودة، لم يكن الأمر سهلاً لكن جدنا شهاب الأول فعلها.

- ولماذا لم يخلد هو؟!

أسأله محاولاً فهم التفاصيل الغريبة لما يحكيه فيعاود قرصه الشفاف توهجه الأحمر الواشي بانفعاله:

- نحن لا نموت بصورة طبيعية، لكن القتل يسلبنا أرواحنا ككل المخلوقات، جدنا قتله مساعده ثم فر ليؤسس مملكته على الجانب الآخر من المحيط، هيولان الثانية مملكة الظلام والخلود، وفيما يعتنق أهل هيولان الأولى خصال الخير والمثالية يعتنق أهل

هيولان الثانية خصال الشر والدونية، والصراع بيننا باقٍ أبد الدهر.

يهيأ إليّ أنني قد سقطت في حكاية خيالية من الأساطير القديمة فأبتسم ساخرًا ليقرأ هو فكرتي فيسقيني فكرته:

- لا تدعي الإنكار، لو لم تكن مؤمنًا بنا لما وصلت إلينا.

أصمت محاولاً ابتلاع منطقه لأعاود بثه أفكاري:

- إذن جدكم شهاب الأول، وأنت شهاب الأعظم، لا أحتاج كثيرًا من الذكاء لأدرك أنك كبيرهم.

الوهج الأحمر في قرصه الشفاف يتحول لأزرق رائق مع جوابه:

- كلنا نحمل اسم شهاب مع رقم يميز هوية كل منا عن الآخر، قد يروعك الأمر لأن الأرقام هنا تتعدى الستة أصفار، لكن التخاطر بيننا يسهل الأمور كثيرًا، أما لقب «الأعظم» فهو كما توقعت أنت تمامًا، يخص الحاكم.

- وماذا تريدون مني؟! لماذا تسجنونني هكذا؟!

- لأنك كنت سجينًا في عالمك، نحن نريد تحريرك، فقط لو أردت.

- ياللمثالية!

سخريتي تجعل الوهج الأزرق لقرصه الشفاف يتحول للأحمر الخفيف فأميز أن هذين اللونين مرتبطان بانفعالاته، لتعاود أفكاره اجتياحي!

- تعلم كم عمر الواحد منا أيها المتلاشي؟! تعلم كم حياة

عشناها وكم شهدنا من قرون البشر؟! حروبهم، صراعاتهم، مجاعاتهم، أوبئتهم؟! نراقب كل هذا عن بعد بحسرة من يشاهد الأحمق يقتل نفسه ولا يملك له نفعًا ولا ضرًا، لكن لنا عيدًا في أول كل عام من تقويمنا نسميه عيد الخلاص، طقوسه تتمثل في تحرير واحد من المتلاشين مثلك نقدمه كقربان لجزيرتنا المرجانية المقدسة نظير أن يجد مثلث خلاصه.

غابت عني تفاصيل عيدهم المزعوم هذا مع تفصيلة أخرى شغلت ذهني:

- وكيف يسير تقويمكم هذا؟!

- لا أدري إن كان عقلك سيستوعب هذا لكنني سأبسط لك الأمر، عامنا يبدأ مع ولادة نجم في هذه المجرة وينتهي بموته، تعرف كيف تولد النجوم وكيف تموت؟! النجوم تولد داخل سحب من الغبار نتيجة اضطرابات وتفاعلات تحدث داخل هذه السحب، فعند وجود نسب كافية من الغاز والغبار بسبب قوة الجذب بينها ونتيجة ارتفاع درجة حرارة المركز في هذه السحب، ومع استمرار الغبار في التدفق إلى المركز تزداد كتلته وحرارته، وبعد ملايين السنين تتحول لنجوم أولية، هذه التي تزداد حرارتها بالتدريج ليتكون الهيليوم وتنتج الطاقة، وبعد أن تصل كتلة النجم الأولى إلى حوالي واحد من عشرة من كتلة الشمس يصدر عن النجم تدفقان كبيران من الغبار بعيدًا عن

سطحه الملتهب مما يؤدي إلى استقراره.

كنت أعرف بشيء من التفصيل طبيعة ما يحكي عنه، لكنني بقيت أستمع:

- أما كيف يموت النجم فهو يعتمد على اختلاف كتلته، فاذا كان حجم النجم قريبًا من حجم الشمس فإنه سيتحول لقزم أبيض في نهاية المطاف، أما إذا كانت كتلته أكبر فعلى الأرجح سيتعرض لانفجار كبير ينتج عنه ما يسمى بنجم النيوترون، وفي حال كان مركز الانفجار كبيرًا جدًا ولا يوجد ما يوقفه فسيتشكل ما يعرف بالثقب الأسود، وهو الجاذبية اللانهائية في الفضاء.

- وأي نجم اخترعوه بالضبط؟!

- أبحاثنا وصلت قدرًا من التقدم لم تدركوه أنتم بطبيعة الحال، لن يستوعب عقلك البشري ما أقول، لكن دعني أبسط لك الأمر، لقد اكتشفنا علاقة وثيقة بين استقرار عالمنا هنا وبين مجموعة بعينها من النجوم رصدتها تيليسكوباتنا منذ آلاف السنين، وأسميناها باسم عالمنا هيولان، يولد النجم فيها ويموت فيما يقارب أربعين ألف عام فقط من أعوامكم كبشر.

- العام لديكم بعمر النجم ويساوي أربعين ألف عام فقط من أعوامنا؟!

أسأله بتوجس، فعلمي أن عمر النجوم قد يمتد لملايين الأعوام، لكنه يجيبني:

- عمر النجم يرتبط بحجمه، ونجوم مجموعة هيولان كبيرة الحجم قصيرة العمر.

- دعنا من كل هذا، ماذا تفعلون بـ«عيد الخلاص» هذا؟! وما علاقة كل هذا بي أنا؟!

صوتٌ غريب يرجني بذبذبات أغرب فتتسع عيناي وأنا أرى جماعته يتواثبون بحركتهم المميزة ليقتربوا منه أكثر، فيما يخفت وهج قرصه الشفاف تدريجيًا مع فكرته التي اجتاحتني:

- إنه موعد نوم أهل هيولان، غدًا نخبرك أيها المتلاشي عما تريد معرفته، لا تقلق بشأن غذائك فهذا الهرم الزجاجي الذي يحيطك مصمم للحفاظ على سلامة جسدك البشري وإيفاء جميع احتياجاته.

يقولها ثم يبتعد بحركته المتواثبة تلحقه جماعته فأسقيه فكرتي بسرعة:

- انتظر.. لا تتركني هكذا لأفكاري، أريد النوم مثلكم.

لتنساب فكرته لعقلي قبل أن يختفي من أمامي تمامًا:

- النوم هنا مجرد فكرة قد يحسدنا عليها المتلاشون في عالمك، فقط أغمض عينيك واستدعه، سيأتيك.

* السجين *

❊ ❊ ❊

أفتح عينيّ فجأة لأدرك أنني حقًا قد نمت بمجرد فكرة كما زعم لي كبيرهم ذاك، نومًا بلا كوابيس كذاك الذي كان في حضن ضي. ومن جديد أشم رائحتها حولي، أشعر بها تحوطني حتى أنني أتلفت حولي بحثًا عنها من جديد فلا تصطدم عيني سوى بالمنظر الرائق شبه الثابت، أستعيد ما قاله لي شهاب الأعظم فأتوجس خيفة وأنا أشعر أنني مقبلٌ على كارثة، تبًا! كيف وصلت لعالمهم الغريب هذا؟! وماذا يريدون مني؟!

تتحفز حواسي وأنا أراه يقترب نحوي أخيرًا مع حاشيته بحركتهم المتواثبة المعهودة لتنساب فكرته في ذهني مع توهج قرصه الأزرق:

- لن أسألك إن كنت قد نمت جيدًا، صفاء ذهنك أمامي يخبرني أنك قد فعلت.

- ماذا تنتوون فعله بي؟!

- أنت من سيفعل بنفسه أيها المتلاشي!

تبدو لي فكرته مزيجًا من إشفاق ونبوءة، فأحرك كفيّ المكبلين بقيود غير مرئية لأعاود اجتياحه بفكرتي:

- فك قيودي.

هنا فقط أنتبه لغياب «بقعة معصمي» البيضاء، فيختلج قلبي بخوف مبهم، لكنه يقرأ فكرتي:

- بقعتك هذه كانت نداء رسالتنا لك طوال هذه السنوات، نحن نسِم بها المتلاشي الذي نختاره قربانًا لعيد خلاصنا، أنت لم تولد بها كما تعلم، والآن لم تعد لنا بها حاجة فالقربان بين أيدينا.

- قربان؟! أنا؟!

أسقيه فكرتي المتوجسة، لكن وهج قرصه الأزرق يمنحني بعض السكينة مع جوابه:

- لا تخف، مفهوم القربان لديكم أيها المتلاشون ارتبط بالهلاك، لكنه لدينا يرتبط بالخلاص، بالخلود.

- تعني أنكم ستجعلون مني خالدًا مثلكم؟!

لهفتي تقابل رده الغامض:

- لا مكان بيننا للمتلاشين، الخلود لنا والخلاص لك، لكن دعني أولاً أصطحبك في رحلة لتتفقد عالمنا.

لا أنكر الشغف الذي ملأني وأنا أشعر بسجني الهرمي يتحرك ليسير بي خلفهم، تنفرج شفتاي بانبهار وأنا أراقب لون الماء الذي يتغير تدريجيًا من الأزرق الغامق إلى الأفتح ثم الأفتح حتى يصل لما يقارب اللون الأبيض، فأنتبه لهذه الصخور الضخمة كريمية اللون والتي ارتصت بشكل مهيب لتصنع لنا ما يبدو كممر

طويل يمهد لمدخل فخم، الشعاب المرجانية بألوانها الخلابة تبدو لي وكأنها حدائق زهر على الجانبين، لكنها للعجب كانت تتخذ شكل تيجان ضخمة ملونة في منظر لم أشاهده من قبل.

- مرحبًا بك في ميدان هيولان.

الفكرة تنساب في عقلي فأنتبه لما حولي، العشرات منهم يتواثبون حولنا بحركتهم المعهودة مفسحين لنا الطريق فيبدون بألوانهم البيضاء المشعة ككريستالات ضخمة، أقرأ منهم عشرات الأفكار كلها ترحب بي بحفاوة فيخفق قلبي بانبهار وأنا أرى لون الماء يتحول لماسية متألقة كأنها تسطع آلاف النجوم حولنا.

الشعاب المرجانية بألوانها المتعددة التي أعرفها تبدو لي هنا أكثر توهجًا، أكثر تنوعًا عن أي مما رأيته في حياتي، لكنني ألاحظ أن اللون الأسود ينقصها.

- لا أسوَد في هيولان الأولى أيها المتلاشي، انتزعناه من ألواننا للأبد.

تنساب داخلي فأدرك أنه شهاب قرأ فكرتي ليسقيني المزيد:

- تمامًا كما انتزع أهل هيولان الثانية الأبيض من ألوانهم.

- هل تتقاتلون معهم؟!

- نحن نفوقهم عددًا وهم يفوقوننا شراسة، لكننا نكتفي بالدفاع لا الهجوم، كما أنهم لا يجيدون قراءة الأفكار بنفس النسبة التي يحظى بها آل هيولان، فقد طمست شرورهم بعض

بصيرتهم، لهذا يؤذيهم كيد بعضهم بعضًا.

- ما داموا بهذا السوء الذي تحكي عنه فلا ريب أنهم يتربصون لأي نقطة ضعف منكم.

هنا يهيأ إليّ أن حركة الجميع حولي توقفت فجأة لأدرك أنني قد تفوهت بأمر جلل، خاصة ووهج القرص الشفاف يتحول لأول مرة للأصفر الشاحب، إلامَ يرمز هذا؟! للخوف مثلاً؟!

- اصبر حتى نصل لجزيرة المرجان المقدسة خاصتنا، وسأخبرك بكل ما تريد معرفته.

حركتنا تستمر لأميال لا أدري عددها، وأنا أزداد انبهارًا بما أراه حولي من هذا العالم المشع، كائنات بحرية لا أعرف عنها شيئًا رغم أنه مجال تخصصي، منها ما يشبه الرخويات، نجوم البحر، الأسماك.

لكنها كذلك كانت تحوي كائنات شديدة الغرابة.

هاهي ذي سمكة نابليون أو «سمكة الرأس» كما يسمونها بحجمها الضخم الذي يزيد عن المترين، شفتاها الغليظتان، وهذا السنام المرتفع فوق رأسها والذي يكبر كلما تقدمت في العمر، قرأت أنها يمكنها التحول من ذكر لأنثى والعكس، لكن العلماء لم يتوصلوا للسبب، ترى هل فعلها آل هيولان؟!

تنفرج شفتاي بذهول ونظراتي تتجه لهذا الكائن الآخر الذي قرأت كذلك عنه، هو حيوان «الخيال الشفاف» أو الخيال الزهري،

والذي يشبه علبة زجاجية شفافة يعلوها ما يشبه زهرة قرمزية.

تتسع عيناي بالمزيد من الانبهار وأنا أميز المزيد من غرائب هذا العالم والتي لم أرها يومًا إلا في الكتب، بل وها هو ذا بعضها لم أره يومًا في حياتي.

أسماك شفافة بزعانف كبيرة ماسية تشبه الفراشات، وأخرى فضية اللون تدور حول نفسها وهي تستطيل فاردة زعانفها لتتحول لما يشبه راقصة باليه، ياللروعة!

لو كانوا يتنهجون طبيعة «التيولا» حقًا فلا ريب أنهم بحاجة للحفاظ على توازن بيئة كهذه، هل يتغذون على بيض الأسماك كالتيولا؟! وما تركيب «شبه المخ» الذي يعلو قرصهم الشفاف هذا؟!

تساؤلاتي تثير فضولي حد الجنون، لكن خوفًا بداخلي كان يتزايد، ماذا يعنون بكوني قربانهم؟! وماذا سيكون مصيري هنا؟!

نتوقف أخيرًا لتتسع عيناي بصدمة وأنا أميز ما يدعونه بجزيرة مرجانهم المقدسة هذه، أعرف عن الجزر المرجانية التي تتشكل في قيعان المحيط أسفل البراكين في شكل حلقة كبيرة، لكن هذه كانت تبدو مثلثة الشكل، ما حكاية المثلثات في هذا العالم؟!

أعلم أن هناك دلالة للأشكال الهندسية في الحضارات الإنسانية، ففيها ارتبط المستطيل بالجانب الدنيوي، والمربع بالجانب الديني، فإن المثلث هو الشكل الأكثر ارتباطًا بالمحرمات والمقدسات، لهذا نسمع كثيرًا عن مثلث الشيطان، أو مثلث الرعب، ناهيك

عن استخدامه في علامات المرور الدالة على الخطر.

ضوء ساطع يضرب عيني فجأة قاطعًا أفكاري فيجبرني على إغلاقهما بقوة، لأشعر بهذه الذبذبات حولي تكاد ترجني، أحاول فتح عيني مرة أخرى فأنجح ببعض العسر، أرى مجساتهم اللاسعة تتشابك معًا بينما يتحلقون حول مثلثهم المرجاني هذا والذي كان مشعًا ببريق الماس.

- ترى أرضك أيها المتلاشي؟!

فكرة شهاب الأعظم تجعلني أميز تحول مثلث المرجان لما يشبه شاشة عرض تتوالى فيها الصور، تتسع عيناي بانبهار وأنا أميز أغرب بانوراما وثائقية قد يشاهدها أحدهم، صور حية لحروب بدت وكأنها منذ عهد الإنسان القديم صاحب الكهف ومرورًا بكل العصور حتى تصل لأيامنا هذه.

تنفرج شفتاي رغمًا عني بانبهار وأنا أرى العرض ينتهي لتعود جزيرتهم المقدسة مجرد مثلث ماسي مشع، فيما تتدفق أفكار شهاب في رأسي:

- لا تتعجب، نحن اكتشفنا طريقة خاصة للسفر عبر الزمن، طريقة جعلت بإمكان الواحد منا أن يسافر للماضي ويدرس ثغرات السابقين كي نتفادى أخطاءهم، خبراتنا علمتنا أن جحود المتلاشين هو سبب شقائهم وأن نجاتهم في الإيمان، الإيمان بمعتقداتهم، بأوطانهم، وحتى بمشاعرهم، هذا الدرس

الذي وعيناه جيدًا، لهذا يفوق عددنا عدد أهل هيولان الثانية بكثير إذ يهلكون بعضهم بعضًا، أما عن طقوس عيد الخلاص فقد بدأت لدينا منذ عهد بعيد، أحد أجدادنا الأولين فكر في غزو أرض المتلاشين، ليس غزوًا لأجل السيطرة بل لأجل منحكم هذه السكينة التي نعيشها هنا، حشد جيوشنا بتلك الأسلحة التي لا قِبل لكم بها وكاد يبدأ غزوه، لولا..

أفكاره تتوقف ليعود القرص الشفاف خاصته لوهجه الأصفر للحظات انقطع فيها تواصلنا ليزداد فيها فضولي لما أكمله بعدها:

- لولا أن تدخل أهل هيولان الثانية في المعادلة، حشدوا جيوشهم بدورهم، كنا نعلم أن تدخلهم في شأن المتلاشين سيزيد من بؤس عالمكم، لهذا وجهنا حربهم لهم هم كي نمنعهم، كانت أعظم حرب عرفها عالمنا وضاع ضحيتها الكثير منا ومنهم، حتى استقر حكماء العالمين على هذا الاتفاق بيننا، تعال شاهد هذا.

أفكاره توجهني لمثلث جزيرتهم المقدسة، فأنتبه لهذا الفراغ الذي تشكل في وسطها، فراغ لمثلث أكثر صغرًا، هذا الذي تحدث عنه بدوره:

- هذا الفراغ المثلث هو فحوى الاتفاق بين العالمين، هو ضمان قوتنا وأمانكم، هذا الفراغ الذي اتفقنا ألا يملأه سوى

متلاشٍ من أرضكم في كل عام لنا، يجمع أضلاعه واحدًا واحدًا من ثلاث حيوات مختلفة يعيش فيها بطولة حقيقية، فإن جمعها كان هو عيد خلاصنا وخلاصكم واحتفلنا بعام جديد لنا هنا، وإن فشل وهلك كانت الغلبة لأهل هيولان الثانية يلجمون قوتنا ويغزون أرضكم.

- لا أفهم، وكيف يعيش متلاشٍ مثلي ثلاث حيوات بافتراض أني قربانكم لهذا العام؟!

- انتظر، وسأخبرك.

فكرته تجتاحني بينما أراه وجماعته يعودون لما بدا كرقصة خاصة متحلقة حول مثلثهم المقدس هنا بمجساتهم التي تشابكت لثوانٍ، قبل أن تجذبني أفكاره بعيدًا ليسير بي هرمي من جديد خلفهم حتى يتوقف بنا أمام ما بدا كفتحة كبيرة وسط كهف صخري كانت تنبثق منه موجات مائية صغيرة بسرعة عالية مختلفة عن الحركة الرائقة لتيارات الماء حولنا.

- غدًا يتجمع أهل هيولان الأولى جميعًا قرب سطح البحر يرقبون احتراق نجم وينتظرون ميلاد آخر، آخر قد يولد على يديك، تبدأ الطقوس باغتسالك بماء هيولان المقدس لتكتسب صفة خلودنا طيلة حياتك في زمن الخلاص، هذا الذي يبدأ من دخولك عبر فتحة هذا الكهف والتي سترميك عبر نهر الزمن، ستعيش هناك حياة تلو حياة ما لم يقتلك أحدهم، تذكر أن خلود

«الهيولان» لا يحميه من القتل، لو عشت كل حياة من الثلاث كما ينبغي فستجد في آخرها ضلعًا ماسيًا من مثلثنا المقدس، اجمع ثلاثة أضلاع وعُد بها، ساعتها نحتفل نحن بتمام مثلثنا وبداية عامنا واستقرار عالمنا، وتحتفل أنت بتحررك، تحررك من عالمنا ومن ظلماتك.

- ظلماتي؟!

- لا تظننا اخترناك عبثًا أيها المتلاشي، هو عيد خلاصنا وخلاصك، قربانك ليس لنا فحسب بل لأجلك أيضًا.

- لا أفهم.

- كل من سبقوك لم يفهموا حتى دخلوا التجربة.

- هل نجحوا جميعًا؟! وهل هناك مجال للفشل؟!

- بالتأكيد هناك، بعضهم ناله القتل وبعضهم لا يزال تائهًا عبر الأزمنة يبحث عن أضلاع مثلثه.

- وماذا تفعلون أنتم حينها؟!

- نقبل بخسارة عام من أعمارنا ونرسل الدية لأهل هيولان الثانية كي نمنعهم من غزو أرضكم، فإما قبلوها أو رفضوها، ولحسن حظكم أنهم إلى الآن لم يرفضوها، لكن هناك مرة أولى دومًا كما تعلم.

أشعر بالخوف مما يقوله، ربما لو كان لي قرص شفاف مثله لتلون الآن بالأصفر الفاقع.

- لا تخف أيها المتلاشي، ستنال فرصتك كاملة في عشرات الحيوات عبر الأزمنة، فقط عش ثلاثًا منها مؤمنًا وستنال مثلث خلاصك في نهاية الأمر.

- لا أريد، أعيدوني لعالمي.

تصرخ فكرتي رغمًا عني فيتراجعون جميعًا بحركتهم المتواثبة وقد توهجت أقراصهم الشفافة بالأحمر عدا شهاب الأعظم الذي بقي قرصه على توهجه الأزرق الهادئ كأنه يعذر غضبي هذه المرة:

- فكر جيدًا، هي ليست فقط تجربة مثيرة ستخوضها، هي أيضًا شرف مسئوليتك، دليل إيمانك وسبيل خلاصك.

- لا أريد.

تزداد ذبذبات التوتر حولي ممثلة في الوهج الأصفر لأقراصهم، لكنني لم أكد أقذف فكرتي حتى فوجئت بشعور غريب، الهرم حولي تضيق أضلاعه حتى تكاد تطبق على أنفاسي، والقيود حول معصمي وكاحلي تزداد لي اعتصارًا فلا أملك إلا الصراخ الذي يرتد بداخلي كأنه لكمات موجعة.

- لا تفعلوا بي هذا، أرجوكم.

أقذف فكرتي لكنني لا أتلقى ردًا، فأفتح عينيّ لأصطدم بالأغرب.

تبًا!

ما الذي يحدث هنا؟!

كيانات مشابهة لهيولان الذين عرفتهم لكنهم بلون أسود قاتم، أقراصهم تكاد تكون معتمة و«أشباه أمخاخهم» تبدو أكثر تعرجًا فتثير داخلي الاشمئزاز، هل هم أهل هيولان الثانية؟! هل هي حرب بينهم؟!

الأفكار التي كانت تصلني من شهاب الأعظم رائقة تصير الآن متداخلة، متشابكة، فلا أفهم شيئًا.

خاصة وهم يتصارعون بطريقة غريبة، مجساتهم اللاسعة تتشابك بقوة للحظة واحدة يرتد بعدها كل منهم مصعوقًا بما يوحي بتوازن القوى.

أراقب المعركة بخوف كاسح ولا يزال هرمي يزداد ضيقًا وقيودي تعتصرني أكثر حتى أشعر بالهرم ينقلب فجأة فأنقلب معه.

هنا يفقد عقلي إدراكه لما بقي من المشهد، الهرم ينقلب بي وينقلب عدة مرات حتى أشعر بالدوار، تنفلت مني بضع صرخات عالية ترتد كاللكمات في بطني فأجبر شفتي على الصمت.

وأخيرًا، يعتدل هرمي فجأة لأميز الأجسام السوداء التي تحلقت حوله، هنا فقط أنتبه للون الماء الذي تغير للأزرق القاتم.

مدخل من الصخور السوداء تشبه الجماجم يستقبل هرمي الذي كان ينساب في رحلته كأنه مأمور، قلبي ينتفض برعب حقيقي والهرم يتجاوز بي مدخلهم، لتقصفني الفكرة من كبيرهم أخيرًا:

- لا مرحبًا بك في هيولان الثانية، مملكة الظلام والخلود.

* هيولان الثانية *

مملكة الظلام والخلود

* * *

- لا مرحبًا بك أيها المتلاشي، ذنبك أكبر من الغفران، دونيّتك لن ترقى لشرف، لهذا دعاك الأدهم الأعظم لتكون أسيرنا للأبد.

عبارتهم الترحيبية -لو صح وصفها بهذا- تسير على نفس نمط هيولان الأولى لكنها تقبض القلب، أفكارهم التي تجتاحني لا تنساب ناعمة كأهل هيولان الأولى بل تخترقني كأسواط لاهبة.

يقترب مني كبيرهم الذي دعا نفسه الأدهم هذا فلم أحتج كثيرًا من الذكاء لأدرك أن كلهم خلفه هم دُهمٌ مثله، معلوماتي اللغوية تسعفني ها هنا، الدهمة تشير للسواد، تليق بهم أسماؤهم كما الحال في هيولان الأولى، يبدو أنهم اختطفوني، لكن لماذا؟! كي يقطعوا احتفال آل هيولان الأولى بـ«عيد الخلاص»؟!

- تمامًا.. أيها المتلاشي.

يقذفني بها فأشعر بأمعائي تتقلص مع ثقل أفكاره في ذهني.

- هذا العام سنخترق القوانين ومعنا حجتنا، فالمتلاشي

الذي اختاروه يرفض التعاون معهم، كل ما عليك أن تبقى هنا تحت حراستنا حتى يفوت يوم عيدهم، وبعدها تحضر معنا محاكمة مجلس القضاة بين العالميْن فتشهد أنك لم تكن تريد خوض هذه المغامرة، أنت أول متلاشٍ يرفض عرضهم، وهذه فرصتنا لننقض اتفاقنا.

ترتعد أوصالي بخوف مبرر وأنا أشعر بمجساته اللاسعة تتحرك حوله فيبدو كعقرب أسود ضخم، أنا من أوقعت نفسي في هذه الورطة، لماذا رفضت عرض شهاب؟!

- نادم؟!

فكرته تلسعني كسوط من نار فأكاد أكذب، لكنني أدرك أنه قد لا تكون هناك جدوى من الكذب هنا فلا أدري إلى أي مدى يمكنهم قراءة أفكاري، قرصه المعتم يتوهج بطيف أحمر خفيف فأحاول الفهم، لا ريب أن الأحمر هنا يعني الرضا على عكس هناك.

- كن معنا أيها المتلاشي، عندما يخسر أهل هيولان الأولى عامهم هذا ستكون أول خطواتنا لغزو عالمك، ساعتها سنأخذك معنا، ستكون رمزنا هناك، ولك ما تريد.

الفكرة تثير مطامعي وتجعلني أميل أكثر لهذا المعسكر، لا مجال للمقارنة بين من يريدون رميي عبر الزمن كي آتيهم بما لا أعرف مقابله، وهذا الذي يطلب مني مجرد البقاء معه هنا ثم العودة لعالمي مظفرًا.

ويبدو أن فكرتي التي قرأها أعجبته فقد توهج قرصه المعتم بالمزيد من حمرة الرضا، وكذلك أتباعه الدُهم الذين تحلقوا حولي.

- إذن، تعال معنا في جولة في هيولان الثانية، نمضي الوقت حتى ينتهي اليوم مكللاً بخيبة أهل هيولان الأولى.

ضميري يخزني ببعض الوزر شاعرًا أنني - بطريقة ما- قد خنت شهاب وأتباعه، لكن من هم أصلاً؟! أوَلم يختطفوني من عالمي قسرًا لأكون قربانهم السخيف هنا؟!

لهذا نحيت أفكاري جانبًا وأنا أشعر بهرمي ينساب خلفهم عبر الموج الذي كان يزداد لونه قتامة كلما وغلنا، حتى شعابهم المرجانية كانت تتخذ أشكال الأفاعي والجماجم، عالمهم قد انتزع منه الأبيض حقًا كما كان يقول شهاب، ومع هذا بقي له رونقه الجذاب في عيني، جذاب ولكنه مقبض.

المزيد منهم يتوافدون إلينا فأدرك قلة عددهم حقًا مقارنة بأهل هيولان الأولى الذين سأسميهم «الشهابيين» وسأطلق على هؤلاء «الدّهم»، غدًا عندما أعود لعالمي مظفرًا سأكتب عن كل هذا، سأحكي لضيّ عن هذه المغامرة العجيبة فتلتمع عيناها بحماسها المعهود، مهلاً! لا أشم رائحتها هنا! لكن لمَ العجب؟! هذا العالم لا يليق بها إنما يليق بظلمتي أنا.

عيناي تدوران في المحيط حولي فأتبين المزيد من البحريات الغريبة عليّ، كائنات تبدو وكأنها هجين من نوعين أو أكثر،

كهذا الشكل العجيب الذي يبدو وكأنه أخطبوط ضخم إنما برأس أفعى، والآخر الذي يبدو كنجمة بحر إنما بأشواك مدببة كسيوف صغيرة.

- لا تعجب أيها المتلاشي، هذا هو مجال تفوقنا هنا في هيولان الثانية، التهجين، هيولان الأولى يجرمون هذا ويسمونه تشويه الفطرة وطمس الخلقة، الحمقى، نسوا أننا أنفسنا هجين من النيولا والبشر، يزعمون أنهم رعاة الفضيلة ونسوا أن قانون الخلق الأزلي أن البقاء للأقوى، ونحن الأقوى.

فكرته تشحذ هذا «الجانب المظلم» بداخلي فتتوهج عيناي بحماس يبدو أنه قرأه في أفكاري بينما ينساب هرمي أعمق نحو مياههم التي يزداد لونها قتامة، أنظر خلفي لأميز الأخطبوط المهجن وقد التهم نجمة البحر بعد صراع قصير بينهما لينتهي بهما الأمر وقد لدغها لتموت بسُمّه ويموت هو بطعنة من واحدة من سيوفها المدببة في مشهد قبض قلبي وجعله يلقي إليّ بفكرته:

- دع عنك لين القلب، الموت لمن يستحق الموت، الانتقام يرد كرامة المغدور ويبرد الدماء التي تغلي في العروق.

فكرته توافق هوى في نفسي فأعاود النظر للمشهد خلفي مع فكرتي:

- يكفي أن كليهما قد مات راضيًا وقد نال ثأره.

- تعجبني أفكارك أيها المتلاشي، ستكون خير تابع لنا.

رحلتي تستمر معه عبر عالمهم الذي تزداد عتمته كلما توغلنا.

أشكال الكائنات هنا تبدو مقبضة أكثر، ما هذا؟! تبًا! إنها سمكة «القرش العفريت» بشعة الشكل والنادرة جدًا، قرأت عنها يومًا بخرطومها الطويل الذي يحتوي على مجسات حساسة للمجال الكهربائي المنبعث من فرائسها، لكنها هنا أكثر بشاعة بلونها البني القاتم وهذه الحراشف التي تغطيها، وأخيرًا بلسان الأفعى الذي يخرج من فمها غزير الأنياب.

تنقبض أمعائي بتقزز وأنا أميز كذلك العديد من أسماك «لينفوخ» التي أعرفها والتي تبدو ككرة مغطاة بالدبابيس السامة، لكنها كانت تملك عينين حمراوين كالدم ينزف منهما سائل أخضر لزج.

أدور بعيني يمنة ويسرة فأميز المزيد من الكائنات الهجينة غريبة الشكل، ها هو ذا «خيار البحر» بجسمه اللزج الذي يمكنه تشويهه عندما يشعر بالتهديد، فيمكنه التخلي عن بعض أعضائه الداخلية عن طريق الخروج من فتحة الشرج، ويتم إعادة إنشاء الأجزء المفقودة من الجسم بسرعة عن طريق جداره الخارجي الذي يتكون من نوع خاص من الكولاجين يمكنه من إسالة أعضائه، كل هذا أعلمه لكن ما أراه الآن غريب حقًا وأنا أميز سيلان جسده وإعادة تكوينه إنها لما يشبه عنكبوتًا ضخمًا بأذرع لا متناهية العدد.

أشعر بشيء ما يمس الهرم يبدو كأعشاب بحرية لطيفة المظهر، لكنني أتراجع بعنف وأنا أميز كونها مجرد «تنين بحر مورق»، هذا الذي يموه نفسه بالاختفاء بهذه الطريقة، لكنه الآن كان يتخلص من تنكره ليبدو لي ذيله شبيهًا بعقرب.

المزيد من الكائنات الهجينة بشعة المظهر، الحبارات مصاصة الدماء، الشعاب المرجانية التي تشبه الجماجم.

أي جحيم هذا الذي أجد نفسي فيه؟!

أخيرًا يصل بنا الهرمي إلى جزيرة مرجانية مثلثة تناظر شبيهتها لدي «الشهابيين» إنما كانت أضلاعها تبدو أبنوسية شديدة السواد، هذه المرة تحلقوا حولها، لا لم يرقصوا متشابكي المجسات كالشهابيين، بل كان يلدغ بعضهم بعضًا فيتقافزون بحركات موجوعة، إنما كان صدى ضحكاتهم السادية المتلذذة بما يفعلونه تدوي كالسياط داخل رأسي.

يسقط بعضهم صرعى لكنهم لا يهتمون، وحده الأدهم الأعظم بقي يراقب من بعيد بذكاء، حتى علا صوت فكرته أخيرًا:

- يكفي هذا.

أحدهم يركل أشلاء رفيقه بينما تتعالى ضحكاتهم رنانة من جديد داخلي فتكاد تصيبني بالغثيان، قبل أن يتقدم الأدهم الأعظم ليفعل أغرب ما توقعته.

أحد مجساته اللاسعة يتلوى بسرعة رهيبة أمام عيني ثم

يتصلب فجأة في شكل سيف حاد، هذا الذي كان يهوي به الآن فوق كل ضلع من أضلاع مثلثهم المقدس فيكسره، لتتحول جزيرة مرجانهم المقدسة لأشلاء يركلونها جميعًا بأطرافهم بينما تتعالى ضحكاتهم السادية من جديد.

- لا أقداس في هيولان الثانية، نحن نصنع قُدسنا، نبجله، ثم نحطمه لنصنع غيره، أول طريق القوة أن تتحرر من أغلال عبوديتك لأي شيء! الرأس يغير اتجاه انحناءته حسب صاحب القوة، الولاء فقط...

فكرته تنقطع برأسي وأنا أراه يسقط فجأة أمامنا!

ماذا حدث؟! أحد أتباعه قتله بنفس الطريقة التي شق بها أضلاع جزيرتهم المقدسة منذ قليل.

يرتعد قلبي بهلع وأنا أتوقع غضبة بقية أتباعه، لهذا كانت صدمتي عنيفة وأنا أراهم يتحلقون حول قاتله وأفكارهم يعلو صوتها بداخلي يعلنون الولاء للأدهم الأعظم الجديد.

هو الذي تقدم نحوي وقد توهج قرصه المعتم بالأحمر الظافر:

- أرأيت أيها المتلاشي؟ هذا هو قانون القوة هنا، لا يهم كيف ستصل، المهم أن تصل.

يقولها ليرفع مجساته اللاسعة حوله بشكل مهيب، تدور بسرعة خرافية حوله فتضرب الماء بعنف أمامه، ثم يتحول كل منها لسيف حاد بلون الأبنوس، كل منها يلوح مهددًا في اتجاه،

فينحني الدهم حوله في وضع بدا كالسجود.

حلقي يجف وأنا أرى فيه صورة مجدي، غريب، كامل، قمر، بل وأنا، لو كنت أنتمي لهذا العالم لكنت أدهم بلا جدل.

- بالضبط أيها المتلاشي، أنت منا، ولنا.

فكرته تلسعني كالسوط فأكاد أسقيه فكرتي لولا أن سمعت هذا النفير الصاخب حولنا والذي كاد يصيبني بالصمم، أحاول رفع كفيّ لأذنيّ لكنهما لا يزالان مقيدين فتعلو صرختي رغمًا عني لترتد لكمة بأمعائي، ماذا يحدث هنا؟! أخبروني.

هرمي يزداد تقلصًا حولي حتى يكاد يخنقني وقيودي تزداد اعتصارًا لمعصميّ وكاحليّ، تمامًا كالمرة السابقة هرمي ينقلب وينقلب عدة دورات متتابعة فينتابني الدوار المعهود وأنا لا أدري مصيري، من الذي يفعل هذا الآن؟! هيولان ثالثة هذه المرة؟! هل صرت لعبتهم؟!

أفتح عيني أخيرًا عندما أشعر باستقرار هرمي لأجدني قد عدت إلى هيولان الأولى وبالتحديد أمام كهف الزمن بتياراته المتسارعة فينقبض قلبي بترقب، أمام ناظريّ أجد معركة جديدة تنشب بين الفريقين، الدهم الذين تتحول مجساتهم لسيوف حادة والشهابيين الذين تبدو مجساتهم كصواعق ماسية، الأعداد تتزايد من الفريقين والأفكار من كليهما تتزاحم برأسي فلا أكاد أميز شيئًا.

- ابتعد أيها المتلاشي عن فجوة الزمن، أنت أدهم مثلنا، لن

يجبروك على فعلها. (من الأدهم الأعظم)

- لستَ أدهم، لو كنت كذلك لما دعوناك لتكون قرباننا، خلاصنا وخلاصك هناك، (من الشهاب الأعظم)

رأسي يكاد ينفجر والنداءات من الفريقين لجذب ولائي لأيهما تتزايد.

- لا تفعلها، لست بحاجة للحرب في نهر الزمن، لخوض حرب ليست لك، كن معنا وعد لعالمك غازيًا منتصرًا. (من الأدهم الأعظم)

- أي عار ستحمله على رأسك لو تسببت في هلاك عالمك؟! نقطة واحدة من الخيانة تدنس دمك كله. (من الشهاب الأعظم)

لا تزال النداءات من كلا الفريقين تتوالى على رأسي الذي يكاد ينفجر من فرط ما تلسعني أفكارهم كالسياط وسط هذه الحرب، ماذا أفعل؟! لمن أنتمي؟! أنا يونس الذي غرق في قاع ظلماته للأبد؟! أم..؟!

- معصمك أيها المتلاشي.

فكرة شهاب الأعظم تجتاحني وسط المعركة فأرفع معصميّ لأجد القيود حولها قد تلاشت، البقعة البيضاء تعاود تشكلها هناك فلا أفهم المغزى، مهلاً، بل أفهمه.

رائحة ضي! الآن أميزها حولي من جديد، فيرتج كياني كله وأنا أتابع معركة الفريقين بالمزيد من التشتت والهلع، ورغمًا عني

أرى رؤوس الدهم تتشكل لوجوه مجدي، غريب، كامل، وقمر! فيما تتشكل رؤوس الشهابيين لوجوه جابر، نجية، يافا، ضي، و.. دياب! دياب! هل سامحته على التلاعب بي؟! هل وضعته في هذا المعسكر؟! ماذا عني أنا؟! أي رأس سيحمله وجهي؟!

عيناي تتسعان برعب حقيقي وأنا أرى شهاب الأعظم يسقط أمامي بضربة غادرة من أحد الدّهم فيتحلق الشهابيون حوله يدافعون عنه، فيما أرى رأسه لا يزال يتلون بين وجوه أحبتي.

صوت الصراع يعلو بداخلي أكثر يمزقني بين الفريقين فلا أعلم حقًا لمن منهما أريد الانتماء.

- لن يسعفكم الوقت، يومكم أوشك على الانتهاء دون قربان. (من الأدهم الأعظم)

- سنحيا بالأمل لآخر لحظة. (من الشهاب الأعظم)

- الأمل بضاعة الخاسرين. (من الأدهم الأعظم)

- بل بشرى المؤمنين.

فكرة شهاب الأخيرة تصيبني فأجده لا يزال ساقطًا أرضًا وحوله أتباعه يذودون عنه باستماتة، فتنتفض روحي أخيرًا ليعلو صوت فكرتي وسط المعركة:

- أيها الشهابيون.. أنا معكم.

أشعر بصاعقة تضرب هرمي فلا أدري من فعلها منهما، هرمي الذي عاد للتدحرج بي قبل أن أشعر بهذا السائل الذي

يتدفق حولي فيغمرني حتى رأسي، الغريب أنني لم أكن أشعر بالغرق بل بالتطهر، قيود كاحلي كذلك تتلاشى، فأتطلع لبقعة معصمي البيضاء التي عادت تختفي كأنني ما عدت بحاجة إليها.

- اغتسلت بمائنا المقدس واستعرت منا هبة الخلود، فابدأ رحلتك في نهر الزمن، عد لنا بمثلث الخلاص.

- عليك اللعنة أيها المتلاشي، عسى أن يكتَب عليك التيه في نهر الزمن.

تنساب الأولى داخلي مهيبة حازمة حنونًا فأدرك أنها من شهاب، بينما تلسعني الثانية كسوط حاقد فأدرك أنها للأدهم، لكن أفكاري كلها تتلاشى وأنا أشعر بهرمي يذوب حولي، فوهة كهف الزمن تبدو لي وكأنها تبتلعني، أصرخ رغمًا عني فلا ترتد صرختي داخلي هذه المرة بل أسمعها تدوي حولي، أدور وأدور في دوامات غير متناهية حتى يسقط جسدي أخيرًا فوق أرض يابسة، صحراء واسعة قد خلت من كل شيء.

أرفع وجهي نحو أشعة الشمس التي اشتقتها، فلا أدري هل أضحك أم أبكي.

هي إذن حياتي الأولى هنا، اختباري الأول.

ONE PIECE BOOKS

* في نهر الزمن *

* * *

يا عزيزة يا بنت السلطان، لو يتغير الزمان،
وقابلتيني في أي مكان،
كنت أعشق من غير ما تقولي

* * *

أدور ببصري في الصحراء الواسعة حولي، رمال بيضاء ناعمة، شمس دافئة لا حارقة، رائحة عطرية لا أدري مبعثها، أحرك أطرافي أطمئن لحريتي، فيروعني تضاؤل الحجم الواضح، هل عدت طفلاً؟! تبًا! أنا عارٍ تمامًا! بقعة معصمي البيضاء عادت تختفي وحدسٌ بداخلي يخبرني أنها ستعود بعودتي لهيولان الأولى، لا أشعر بالتعب ولا بالجوع إنما بالعطش الشديد، والحرج من عريي.

خيالٌ قادم من بعيد يجعل شعر جسدي ينتصب بتحفز، إنه كهل معمم طيب الملامح بزي غريب من قطعتين إحداهما تشبه عباءة قصيرة وبأسفلها سروال، قماش ملابسه يبدو لي غريبًا عما اعتدته، وكذلك خفًا قدميه بتصميمها البسيط جدًا والقديم جدًا جدًا، ينحني ليحملني بتعجب محوقلاً ثم يتحرك بي فتختفي الصحراء حولنا تدريجيًا ليظهر العمار، بيوت بتصميم بسيط غاية في القدم لكنها تبدو أنيقة، شوارع نظيفة يتحرك فيها الناس فوق الدواب بثيابهم المهندمة رغم قدم طرازها مع عمائمهم التي علت

رؤوسهم، تتسع عيناي بانبهار وأنا أشعر أنني أعيش فيلمًا تاريخيًا على أرض الواقع، أراقب الوجوه بتمعن حتى يصل بي الكهل لبيته المحاط بحديقة واسعة، تستقبله جواريه فيبادرن لمساعدته في خلع عباءته ونظراتهن الفضولية نحوي لا تقل عن نظراتي المندهشة بهن، لكنه يصرفهن ليهرع إلى زوجته مليحة الملامح ليناولها إياي شارحًا بأسف أنه قد وجدني مرميًا في الصحراء، المرأة العطوف تضمني بحنان فأشعر أن ملامحها تتبدل لملامح نجية، ألتفت نحو الرجل فيهيأ إليّ أنه كذلك صار يحمل ملامح جابر، المرأة تغسلني بنفسها في حمام البيت بالإبريق المعدني الذي ينساب ماؤه دافئًا فوق جسدي، تلبسني هذه الثياب برائحتها المسكية التي تمنحني شعورًا بالحميمية، تطعمني وتغدق عليّ من حنانها فأنام قرير العين بين ذراعيها، لم أعرف هذا الشعور منذ زمن بعيد، لهذا نمت على هذا الخاطر: شكرًا أيها الشهابيون، كنت أحتاج هذا حقًا.

في أي عصر أنا؟! وأي بطولة قد أحققها ها هنا؟!

الأيام تجيب شطر سؤالي الأول بينما تبخل بالثاني.

ها أنذا يكبر جسدي لأجدني في عهد أحمد بن طولون الذي لم أكن أعلم عنه الكثير في حياتي الأصلية، ولم أكن أهتم، لكنني ها هنا أجدني منغمسًا في تفاصيل عهده المزدهر، أبي - المفترض- الذي رباني من كبار التجار في العاصمة الجديدة «القطائع» والتي

بناها أحمد بن طولون على جبل «يشكر» بين الفسطاط وتل المقطم، عشت هذه السنوات التي تلت تولي ابن طولون حكم مصر في عيش رغد بنفس اسمي يونس، أحمد بن طولون كان رجل دولة من الطراز الأول، اهتم بالعمارة والزراعة والصناعة والعلاج، وأنشأ وسط المدينة مسجده الشهير المعروف باسمه للآن، والذي اشتهر بمئذنته الملوية التي تشبه مئذنة مسجد سامراء.

أما عني فقد وجدتني أنشأ مرفهًا كثيرًا، والداي المفترضان اعتنيا بي كأنني ابنهما الحقيقي ولم يبخلا عليّ بعلم ولا بمال، حياتي هنا أكثر هناءة من حياتي الحقيقية خاصة وقد التقيت - لتوي - بضيّ!

لم يخبرني الشهابيون أنني سأراها هنا.

أجل، رأيتها في السوق، تبدو رقيقة الحال تنتقي بعض القماش الرخيص من بائع بدا مثلي مأخوذًا بجمالها، الوقح يراوغها بالسعر وقد بدا لي وكأنه قد مال على أذنها يسرّ إليها بما يسوؤها، فأجد نفسي أتحرك كالقذيفة نحوهما كي أحميها منه، لكنها كانت قد تركته لتسير في طريقها، أراقبها لأجدها تدخل بستان بيت عظيم، لم أكترث وأنا ألف حول السور الذي اعتليته لأهبط داخل البستان، لن أهدأ حتى أراها وأعرف من هي هنا.

أسمع صوت بكائها خلف إحدى الشجيرات، فأتحرك نحوها بخفة لأبتسم وأنا أملأ عيني من ملامحها، فتخرج كلمتي دون وعي مشبعة بمشاعري:

- حبيبتي!

تشهق بعنف وهي تقفز مكانها بعدما سمعتني، تهم بالصراخ لكنني أكمم فمها ببعض الرفق هامسًا:

- اهدئي، لن أؤذيك.

ترمقني بنظرة مذعورة تتسع معها ابتسامتي وسؤالي - الساذج - يسبقني:

- ألا تذكرينني؟! ألا تعرفينني؟!

ترمقني بنظرة مندهشة ثم تهز رأسها بحيرة فأرفع كفي عنها لأسمع صوتها:

- شكلك يبدو مألوفًا، أنت صديق السيد؟!

- أنتِ قريبته؟!

- جاريته.

الضيق يكسو ملامحي لكن الهتاف يعلو فجأة حولنا:

- ضي.. السيدة تريدك.

فتهمس هي بذعر وهي تدفعني بعيدًا:

- ابتعد.. لو رأوك هنا سيقتلوننا معًا.

- لن تكوني بعد اليوم إلا لي.

أقولها لأفي بوعدي بعدها بقليل، فلا يمر الغد إلا وقد اشتريتها من سيدها لتكون لي.

لم تكن جاريتي فحسب في هذه الحياة، بل كانت صديقتي وكاتمة أسراري، عدا سر «هيولان» الذي احتفظت به لنفسي بالطبع، أعتقتها وتزوجتها وعشت معها سنوات لم نرزق فيها بأطفال.

مصر الطولونية كانت أجمل كثيرًا مما تخيلت، وطن أحببت العيش فيه ربما لأن العدل كان يسودهم دون تفريق بين واحد وآخر، أبي - المفترَض- هنا كان شديد التقوى، جعلني أحفظ القرآن في حلقة مسجد ابن طولون، وطالما كان يؤنبني على تفريطي في فروض ديني، لكنني كنت أكبر ويكبر معي هذا الحاجز غير المرئي بيني وبين شعائر الدين، كنت لا أزال أرى وجه الشيخ غريب على ملامح كل إمام وداعية، عملي بالتجارة مع أبي جعل لي العديد من الصلات بالعباس بن أحمد بن طولون - أحب أبنائه إليه- لهذا وجدتني رغمًا عني أنضم لبطانة العباس ممن يثق في حصافة رأيهم.

دخلت قصر الحكم ولا أدري كيف تبدلت أحوالي بعدها، مات أبواي - المفترضان- وقد أوصيا لي بثروة وفيرة، لكنني أهملت التجارة، فعقلي صار مشغولاً بكرسي الحكم.

لدي المال والزوجة الصالحة والذكاء الذي مكنني من أن أكون أهم الثقات في بطانة العباس بن أحمد بن طولون، الأيام تمر بي في بلاط القصر وثقة العباس بذكائي تدفعني للمزيد من

الطموح، أعرف أن مهمتي هنا لأجل «هيولان» تنتظر مني بطولة ما، بطولة أن أعيش حياتي كما يخدم مثاليتهم، أخلص لديني ووطني وحبي، لكن هذه الفكرة توارت رويدًا رويدًا خلف ضبابات من شهوة السلطة التي تملكتني ها هنا، الفكرة تختمر في رأسي لكنني أنتظر الوقت لتنفيذها، أصارح بها ضي وهي بين ذراعي في ليلة دافئة فتنتفض هاتفة باستنكار:

- ما الذي تفكر فيه؟! تؤلب الرجل على أبيه؟!

- لا تفكري في الأمر هكذا، فكري فيما سنجنيه من خلف هذا.

- لا! اتق الله! ستكون فتنة.

- بل غنيمة العمر.

أقولها وقد غلب طمعي كل ما دونه، نشوة السلطة تسري في دمي فأود تجربة هذا الشعور، بينما ترمقني هي بنظرة آسفة طويلة ناسبت قولها:

- تغيرت كثيرًا! ليس في هذا الشأن فقط، سمعتهم يقولون إنك تنتوي الزواج من تلك المرأة.

فأنكس رأسي ببعض الخزي:

- زواجي منها سيعزز علاقتي بالعباس، تعلمين أن قلبي لا يتسع لحب غيرك.

دموع الخذلان تلمع في حدقتيها لكنها تهمس باستسلام عاتب:

- افعل ما بدا لك، ما أنا إلا جارية أعتقتها.

أكاد أهتف بها ألا يليق بها هذا الحديث وأنها بعيني ملكة النساء، إنما يمنعني كبريائي وطمعي فيما أرجوه، فأكتفي بعناقي المتملك لها، لكنها تعطيني ظهرها أخيرًا، ثم تكون هذه آخر ليلة أراها فيها.

أجل، اختفت بعدها تمامًا فلم أعثر لها على أثر، كأنما قد عوقبت بحرماني منها، الأيام تمر بي وحيدًا بعدها إلا من سلطان شيطاني يلوّح لي بالمزيد من الوعود، لهذا لم أكد أعلم عن خروج ابن طولون إلى الشام واستخلافه ابنه العباس مكانه - شريطة ألا يتجاوز أوامر وزيره الواسطي - حتى أوعزت إليه بخطتي، لم أكن وحدي، بطانة العباس كانت إما حاسدة تتمنى زوال نعمته أو جبانة تخاف بطش أبيه، أشرنا عليه بالاستقلال بأمر نفسه والتمرد على أبيه بإتيان برقة ففعلها.

- يونس! أبي علم بعصياني وتمردي على أوامر وزيره الواسطي، منذ عاد إلى مصر وهو يرسل إليّ بالمكاتبات يريد مني طلب الصفح منه والعودة لإمرته.

يقولها لي العباس ذات يوم طالبًا مشورتي لكنني أرد بحماسة:

- إياك أن تفعلها، شأنك ليس بهيّن كي ترضى بكونك مجرد تابع للقائد حتى ولو كان أباك، كن أنت القائد، أنت لها.

أقولها ثم أشير عليه بقصد إفريقية كذلك بدلاً من العودة لأبيه، فيسير إليها محاولاً التمادي في خطتنا للتمرد، لكن جيش

العباس ينهزم أقبح هزيمة ويقتَل من أصحابنا خلقٌ كثير فنضطر للعودة إلى برقة، وأخيرًا أُخِذنا أسرى إلى أبيه ابن طولون.

ماذا فعل ابن طولون؟!

- حبس ابنه العباس في حجرة في داره إلى أن قدم باقي الأسرى من أصحابنا، فلما قدمنا أحضرنا أحمد عنده والعباس معنا، العباس الذي كان يرمقني بنظرة ساخطة تتهمني بدفعه لكل هذا.

- هكذا يكون الرئيس والمقدم؟! كان الأحسن لو أنك كنت ألقيت نفسك بين يدي وسألت الصفح عنك وعنهم، فكان أعلى لمحلك وكنت قضيت حقوقهم فيما ساعدوك وفارقوا أوطانهم لأجلك.

يهتف بها ابن طولون بصوته المهيب المستنكر مخاطبًا ابنه المطرق بخزي فيرتعد جسدي وأنا أشعر بقرب عقابي، لو قتلوني هنا فستكون نهايتي وخزي جديد للشهابيين في هيولان.

- عقابك مني أن تُضرَب مائة مقرعة.

يهتف بها ابن طولون للعباس قبل أن يمضي لتنفيذ حكمه فيه بيده ودموعه التي تجري على حال ابنه تناقض قسوة عقابه هذا، قبل أن يلتفت نحوي وأصحابي مردفًا:

- وأنتم تقطع أيديكم وأرجلكم.

يسقط قلبي بين قدميّ وأنا أرى الجنود يدفعوننا لتنفيذ الحكم فينا، الألم الذي عاناه جسدي لم يكن يساوي شيئًا أمام شعوري

باحتقاري لنفسي، لقد خسرت ضيّ، وخسرت رهان الشهابيين عليّ، السنوات تمر بي ثقيلة في السجن تجتاحني حسرة خيبتي، أسمع بعدها أن ابن طولون قد مات، يهرم جسدي وأشعر أن نهايتي في هذه الحياة قد اقتربت.

- الفاسق يونس يحتضر في زنزانته، أحضروا طبيب البيمارستان.

أسمع أحد الحراس يهتف بها ذات صباح فأوقن أنها محطتي الأخيرة ها هنا، دقات قلبي تخفت رويداً رويداً فلا أكاد أتبينها، أسمعهم يؤكدون موتي، يدفنون جسدي ويهيلون عليه التراب، الرعب يتملكني للحظة لكنني أشعر بلسعة حارقة على عنقي كأنه أحد مجسات الشهابيين الصاعقة، لأدرك وقتها أنها إشارة الإخفاق في هذه الحياة، الدين، الوطن، الحب، لعنة الظلمة في مثلثي لا تزال تلاحقني للأسف، وقد آن الأوان لحياة جديدة، عبر نهر الزمن.

BOOKS

الضال

***

حياة تلو حياة أقضيها هنا عبر نهر الزمن

كلها تبدأ بي طفلاً لقيطًا في صحراء يتشلني أحدهم كي يربيني عنده، لتمضي بي الأيام، فأكتشف أن لعنة ظلماتي تغلب لهفتي للعودة مظفرًا إلى الشهابيين في هيولان.

عشت حياة في عهد الإخشيديين، كيف كانت؟!

من التقطني كان لصًا وقاطع طريق، فتربيت في كنفه لأكبر مثله، يموت ويورثني مهنته، علمت عن مصر الإخشيدية ما لم أكن أعلمه في حياتي الأصلية، كيف أن محمد بن طغج مؤسس هذه الدولة كان تابعًا في بداياته للدولة العباسية، وقد أقر فيها الأمن والأمان وتمكن من درء المطامع الفاطمية بمصر فمنحه الخليفة لقبًا فارسيًا تشريفيًا هو «الإخشيد» تكريمًا له، لكنه ما لبث أن سار على درب ابن طولون فاستقل بمصر عن الدولة العباسية واستولى على أغلب أجناد الشام عدا حلب، ثم ضم

الحجاز كذلك لدولته، وبعد وفاته تولى أبو المسك كافور شئون الحكم وكان مملوكًا حبشيًا اشتراه الإخشيد بثمانية عشر دينارًا كما يزعمون وجعله خادمه الخاص، لكنه انفرد بالحكم بعد موت الإخشيد، فكان أول حادثة في نوعها في التاريخ الإسلامي للخادم المملوك الذي يبلغ قمة الملك.

حياتي في مصر الإخشيدية كانت سلسلة من البغي، كنت أقطع الطرق على المارة الآمنين لأسلب منهم أموالهم، حتى كانت تلك الليلة التي هجمت فيها على تلك القافلة التي بدت لي عظيمة المغنم.

- اهبطوا بهذا الهودج وأحضروا لي كل من فيه.

أهتف بها بين رجالي وأنا أراهم قد أحكموا سيطرتهم على الوضع، لأراها أخيرًا وقد ترجلت من هودجها لتقترب نحوي مع من بدا كأبيها، عرفتها من عينيها رغم أنها كانت تخفي وجهها خلف نقاب وجهها، ضيّ!

أحاول نزع نقابها عنها فتسبقني يدها قبل كف أبيها الذي هوى على وجهي بصفعته ومعه عبارتها:

- أبعد يدك، أنا حرة لا يكشف وجهها.

تضطرب ملامحي بين رغبتي في استعادة هيبتي أمام رجالي وبين ضعفي الطبيعي نحوها، فأنحني لأحملها فجأة بين ذراعي ثم أركض بها نحو خيمتي القريبة وقد كفاني رجالي هَم أبيها الثائر.

- لا تؤذوه، قيدوه فحسب.

أهتف بها بصرامة ثم أدخل خيمتي لأنزلها هي أرضًا إزاء مقاومتها الشرسة، أنزع عنها غطاء وجهها لأملأ عيني من ملامحها الحبيبة، أضمها نحوي باشتياق كاسح لأفاجأ بها تغافلني فتنتزع خنجري من غمده ثم تدفعني بقوة لتضع نصله فوق عنقها بأنامل قوية لا تهتز:

- أموت حرة ولا تدنسني يدك.

أشهق بفزع وأنا أحرك كفي لها مهدئًا:

- ارمي ما بيدك ولكِ مني ما تريدين.

- وكيف أثق بكلمة من مثلك؟!

- أقسم لكِ أنني لن أؤذيكِ، اطلبي أي ضمانة.

تدمع عيناها الصافيتان وقد بدا التردد على ملامحها فأعاود هتافي:

- لو تركت أهلك يعاودون رحلتهم آمنين وأعدت لهم أموالهم فهل تقبلين الزواج مني؟!

- بماذا تهذي؟! أنا ضي ابنة الشيخ المقدسي أتزوج من لص؟!

- لا خيار لكِ، حتى لو قتلتِ نفسك الآن فسأقتل أهلك واحدًا واحدًا بعدك.

أقولها بقسوة طبيعتي في حياتي هذه مدركًا بذكائي أنها لن تلبث أن توافق.

وقد صدق ظني، أبوها قد قبِل زواجي منها فداء لأهله متعجبًا من طلبي الغريب للزواج من ابنته وقد كدت أملكها رهينة، لكنه اشترط توبتي.

والعجيب أنني وافقت، كنت مستعدًا لفعل أي شيء كي أحتفظ بها في هذه الحياة، انتقلت بعدها للعيش معهم قرب مسجد الفقاعي في سفح جبل المقطم، والذي بناه كافور الإخشيدي ليكون وسطه محراب من طوب وهو أول محراب بني في مصر.

الشيخ المقدسي والدها كان تقيًا ورعًا يقصده الناس للفتوى في مسائلهم، ورغم دناءة لقائنا الأول لكنه احترم توبتي وزادتني قدرًا في عينيه، ورغم حبي الشديد لابنته لكن صورة «الشيخ غريب» بقيت حائلاً بيني وبينه، بيني وبين الدين عمومًا، امتنعت عن السرقة والنهب وقبلت العمل البسيط الذي منحني إياه، لكنني كنت لا أزال غارقًا في ظلماتي، أؤدي صلاتي وصيامي رياء وسمعة، فقط لأكسب وده وود ضي.

ضي التي كانت جنتي في هذه الحياة كذلك، حبها الذي أغدقته عليّ بلا حدود تبرره عبارتها:

- كفاني أن ألقى ربي وقد كسبت أجر توبتك.

فأجتر مرارة خذلاني لها محاولاً أن أفهم أي بطولة يمكن أن يحملها لي هذا العالم ويريدها مني الشهابيون في هيولان.

مصر الإخشيدية كانت كمصر الطولونية وطن مزدهر عظيم أحب العيش فيه، لكنه ما لبث أن نخر فيه سوس التناحر بين الحكام، وما زاد الوضع سوءًا هو تدهور الأحوال الاقتصادية إزاء حالة الجفاف التي أصابت البلاد لتسعة أعوام متتالية بسبب نقص فيضان نهر النيل.

الجفاف الذي صاحبه وباء عظيم هلك معه الكثير من الناس كان منهم الشيخ المقدسي و.. ضيّ.

- لا تبك يا يونس، قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، أقسم لي إنك لن تعود بعدي لحياة الضلال مهما ضاق بك الحال.

كانت هذه آخر كلمات ضي قبل أن تموت بين ذراعيّ متأثرة بالوباء، لكنني لم أستطع أن أمنحها قسمي حية ولا ميتة.

المشهد المروع لها ولأبيها ولكل من أصابهم الوباء وهم يحفرون لهم الحفر ويرمون فيها جماعات ثم يردم عليهم التراب بقي يظلل كوابيسي.

شعوري بالحزن ينقلب لسخط عظيم على كل شيء، أهجر المدينة لأعود لخلوتي في الصحراء، أطلب العون من جماعتي القديمة لأعود لسابق حياتي من السلب والنهب، وهل بقي لي من حل سواه وقد ساءت أحوال البلد أكثر؟!

أعلم أنني خنت ضيّ بعودتي لضلالي القديم، ليس ضي فحسب بل والشيخ الذي أقسمت له بالتوبة، والوطن الذي ما

عدت أرى فيه سوى خراب تنعق فيه الغربان، لكنني عاجز عن فعل العكس، سامحوني أيها الشهابيون، لن أنال بطولة هنا.

الأيام تمر بي متشابهات، يهرم جسدي وينقلب عليّ رجالي فيتركونني وحدي، الشيخوخة تنخر بسوسها في جسدي، في خيمتي في الصحراء يبدو الموت ضيفًا منتظرًا يذكرني بخيباتي، أنفاسي تتثاقل وكذلك خفقات قلبي الواهنة في هذه الإشارة المعهودة لانتهاء حياتي.

لأسمع صوت أحدهم يدخل خيمتي يفتش ثيابي، يرفع ذراعي ثم يتركه فيتهاوى مع صوته الآسف:

– جثة، ليس معه شيء.

أشعر بمن يحملني لأجرب شعور الدفن من جديد، شعور مقبض تزيده قسوة إحساسي بهذه اللسعة الحارقة في عنقي مشيرة لفشلي في هذه الحياة كذلك.

حياة أخرى في عهد الفاطميين، كيف عشتها؟!

نفس البداية لطفل لقيط عاري الجسد في الصحراء ينتشلني رجل يشبه ملامح جابر إنما تبدو عليه أمارات الثراء، لم تكن له زوجة تحتمل غرابة أطواره، فرباني وحده لأكبر في كنفه وأدرك أنه عالمٌ شديد الذكاء حد الجنون، احتملت طباعه الغريبة وتجاربه التي كان يجريها خلسة في قبو قصره، ولا أنكر أنه علمني الكثير

عن علوم الفلك والهندسة والرياضيات، كان يعدّني لأكون خليفته في علمه، ورغم أنني كنت أخاف شطحات جنونه لكنه كان يحمل قلب طفل جعلني أحزن حقًا لموته الوشيك بعدها.

مات وترك لي إرثه من العلم والمال، فشعرت أنني أستعيد مجد يونس القديم، كنت أتعمق في دراسة ما علمني إياه، واستهواني علم البصريات لسبب لا أعلمه، حتى انتقل بي المقام في العاصمة الجديدة التي أنشأها الفاطميون وقتها شمال الفسطاط، وأسموها القاهرة.

عشت أيامي في هذه الحياة بين مجالس العلم أراقب تحول مصر السياسي والاقتصادي، العصر الفاطمي شكّل امتدادًا للعصر الذهبي للإسلام، وكان الجامع الأزهر ودار الحكمة مركزين كبيرين لنشر العلم والدين، الدين الذي بقيت على حالي منه فلا أقترب ولا أبتعد بل أكتفي بحاجزي غير المرئي بيننا.

وكعهدي لم أفهم بالضبط دوري في هذه الحياة، لكنها كانت فرصتي الذهبية للعيش كعالم من جديد.

إلى أن علمت بأنه سيأتي للقاهرة، من؟! الحسن بن الهيثم نفسه!

أجل، التقيته في بيته ورأيته رأي العين، غدًا عندما أعود لعالمي الحقيقي سأروي لتلامذتي بفخر عن هذه المغامرة.

كيف جاء ابن الهيثم من البصرة محل ميلاده إلى مصر؟! يقولون إنه قد ذكر يومًا «لو كنت بمصر لعملت بنيلها عملاً

يحصل النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقصان» فوصل قوله هذا إلى الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، والذي دعاه إلى مصر لتنظيم فيضان النيل، وأمده بما يريده للقيام بهذا المشروع.

في هذه الفترة تعرفت إلى الرجل عن قرب لأجده شديد التواضع غزير العلم، الرجل لم يكن عالمًا محدود العطاء، بل كان عبقريًا في علوم الرياضيات، الفيزياء، الفلسفة، الفلك، والهندسة.

ورغم أنه كان شديد التواضع لكنني شعرت بغيرة طبيعية منه وجدتها تتنامى داخل صدري.

هل كان هذا هو اختباري هنا؟! يبدو أنه كان كذلك، فها أنا ألتقي ضي في هذه الحياة، كانت خادمته.

قدمت لي شراب الضيافة أول مرة في بهو بيته، فشعرت بنفس الحب الذي يحمله قلبي لها في كل حياة أعيشها، هذا الشعور الكاسح الذي يفقدني عقلي ويجعلني أهرع فقط لأكون جوارها، أصطنع الأعذار فقط لأراها بأي طريقة.

- تزوجيني.

قلتها لها ذات يوم لتلتمع عيناها بتلك الفرحة كأنها لا تصدق أن يقدم ثري مثلي على الزواج بخادمة مثلها بهذه السرعة، ربما لهذا تناقصت فرحتها لبعض الشك مع جوابها:

- أبي مسافر لبعض شأنه في بلاد العراق، انتظر عودته ثم حدثه بشأننا.

قالتها لتبتعد عني بعدها قاطعةً عليّ أي طريق لرؤيتها حتى كدت أجنّ، لكنني حاولت شغل نفسي بابن الهيثم، تقربت إليه أكثر لتزداد غيرتي منه أكثر وأكثر.

حتى جاءتني فرصتي الذهبية عندما علمت أن الخليفة يطلب منه تنفيذ أفكاره التي زعمها بتنظيم فيضان النيل، لكن ابن الهيثم وقف عاجزًا ليكتشف استحالة تنفيذ أفكاره مقارنةً بضعف الإمكانيات وقتها، فطلب من الخليفة أن يمهله.

التقيته ليلتها في بيته وقد بدا الغم على ملامحه، سألني المشورة فراودتني الفكرة بسرعة:

- ادّعِ الجنون، ساعتها لن يطالبك أحدهم بشيء.

كنت قد قرأت أن هذا ما فعله ابن الهيثم حقًا في زمانه، لهذا لم أتعجب سرعة موافقته على اقتراحي، لكنه ما كاد يفعلها حتى أجبره الخليفة على البقاء في منزله، فكرّس ابن الهيثم حياته لعمله العلمي، وخلال هذه الفترة كتب كتابه «المناظر».

- هل جننت؟! تريدني أن أسرق كتاب سيدي؟!

تهتف بها ضي باستنكار ذات ليلة وقد التقيتها خفية عن الأعين خارج بيت ابن الهيثم لأهمس محاولاً إقناعها:

- ليست سرقة، أريد فقط معرفة ما وصل إليه كي أقارنه بما كتبته أنا.

أقولها كاذبًا، فقد كان كل ما يملؤني وقتها هو الغيرة منه والمبلغ الخرافي الذي وعدني به جاري الصائغ اليهودي لو منحته الكتاب ليعود به إلى بلاده، لتدمع عيناها بمزيج من غضب وخيبة:

- ألهذا طلبت لقائي؟! وأنا ظننتك تريد سؤالي عن عودة أبي؟!

- بالطبع سأفعل، زواجي منكِ لا علاقة له بهذا الأمر، أنا أحبك يا ضي.

أهمس بها بصدق لكنها ترمقني بنظرة أخرى خائبة ثم تولي هاربة تلاحقها نداءاتي التي ترتد مخذولة.

المزيد من الجنون يصيبني فأتحين الفرصة لأقتحم البيت خلسة كي أسرق الكتاب مستغلاً خبرتي بثغراته، ولم أكد أصل لغرفة ابن الهيثم التي يحتفظ فيها بالكتاب حتى ألقى الحراس القبض عليّ متلبسًا بفعلتي لأصطدم بظل ضي المختبئة خلف أحد الأعمدة ترمقني بنظرة مزدوجة بين ذنب وعتاب، فأفهم - حانقًا- أنها من وشت بي، أفر منهم بشق الأنفس لأهرع نحو جاري اليهودي أطلب منه العون فيخبئني في قبو بيت قديم يملكه.

الأيام تمر بي متثاقلة وأنا أشعر بالمزيد من الخزي والغضب، لماذا تخذلني نفسي هكذا في كل حياة؟! لماذا أكون دومًا بهذا السوء؟ وإلى متى سأظل أتخبط في مثلث ظلماتي؟! لم أكن أظن الرحلة عبر نهر الزمن ستكون بهذه الصعوبة.

أفكاري تنقطع وأنا أشعر بهذه الزلزلة في الأرض تحتي، أسمع صوت الانهيار فأدرك ما يحدث، البيت القديم يسقط ليدفنني - حيًا- تحت أنقاضه.

الموت البطيء يسحق هامتي من جديد، واللسعة الحارقة على عنقي تعلن فشلي الجديد في هذه الحياة.

فرصة أخرى أيها الشهابيون! امنحوني فرصة أخرى، أنا مثلكم مللت الخذلان.

وها هي ذي فرصة أخرى في حياة جديدة في مصر الأيوبية، كيف عساها تكون؟!

بمستواي السابق لا أستبعد أن ألتقي صلاح الدين الأيوبي نفسه فأستفزه ليجز عنقي ويعلقه على مقدمة رمحه.

التفاصيل المكررة ذاتها، الطفل اللقيط في الصحراء تلتقطه يد كريمة، لكنها هذه المرة كانت ضي.

أجل، طفلة كانت في العاشرة تقريبًا من عمرها لم تكد تلمحني حتى انحنت لتحملني ثم قبّلت جبيني بحنان لتعيدني مكاني وتعدو هاربة، هكذا ظننتها فعلت قبل أن ألمحها تعود ومعها ذاك الرجل الذي كان يشبه جابر، فلم أحتج كثيرًا من الذكاء لأدرك أنه سيكون أبي المفترض هنا، لكن هل ستكون هي أختي؟!

أكبر في بيت الرجل لتجيب الأيام على سؤالي، الرجل هرب بابنته الوحيدة من القدس بعدما استعمرها الصليبيون ففقد أهله

وزوجته ليستقر هنا بتجارته في مصر، كانت هذه أسعد حياة عشتها ربما لأن ضي لم تفارقني منذ دخلت ها هنا، وربما لأن والدها كفل لي معيشة كريمة، حفزني لدراسة الطب فأجدتها، علمني ركوب الخيل ورمي السهام فنشأت فارسًا لا يشق له غبار كما يقولون، أبي هنا لم يكن تاجرًا ماهرًا فحسب، بل كان تقيًا ورعًا حتى أن أهل الحي قدموه لإمامتهم على أهل وطنهم.

- لم أُرزَق بأبناء سوى ضي، لكنني أشهد الله أنني اعتبرتك ابني منذ تكفلتك، ولا أطلب من الله إلا أن أراك في الجيش الذي يحرر بيت المقدس، شاهدتها في رؤياي بالأمس بعد صلاة الفجر، وظني أنها بشرى خير.

يقولها لي أبي - المفترض- ذات يوم بنبرته الدافئة فتبتسم ضي وهي ترنو نحوي بخجل لتهتف بحماسها العذب:

- عادةً ما تصدق رؤياك يا أبي، ألم تعلم بما حدث؟! الوقح «رينو دي شاتيون» بعدما استقر في حصن الكرك الذي يقطع الطريق بين مصر وسوريا اختتم مصائبه بأن اخترق الهدنة وشنّ غارة على قافلة متجهة من القاهرة إلى دمشق يقال إنها لأخت السلطان صلاح الدين، فنهب بضائعها وسرق أهلها، السلطان صلاح الدين يكاد يحترق غضبًا، وقد طالب ملك القدس «جي دي لوزينيان» بالإفراج عن الأسرى وتعويض الضرر ومحاسبة الناهب، لكن الملك لم يجازف بمسّ تابعه القوي رينو، سمعت

من إحدى صديقاتي المقربات في القصر أن السلطان صلاح الدين قد أعلن الحرب على مملكة القدس.

- الله أكبر! اللهم امدد في عمري كي أشهد صلاة في بلدي وأدفن فيه.

يهتف بها أبي رافعًا كفيه بحرارة نحو السماء فأبتسم بارتباك وأنا لا أفهم حقيقة شعوري، شيء ما بداخلي قد تغير في هذه الحياة، ربما هو خوفي من الخذلان كما فعلت في المرات السابقة، وربما هو شيء قديم دفين بداخلي يثير بعض الحمية نحو بيت المقدس بالذات، وربما هو التحامي الحقيقي بضيّ وأبيها كعائلتي ها هنا، هذا الشعور الذي تضخم عندما بسط الرجل أحد كفيه فوق كتفي والآخر فوق كتف ضي لينقل بصره بيننا للحظات ثم يقول بما بدا كأمر:

- سأزوجكما الأسبوع القادم، لو قامت الحرب فكونا معًا كزوجين.

تشهق ضي بخجل لتهتف باعتراض واهٍ:

- أنا أتزوجه؟! كيف؟! أنا أخته التي تكبره بعشرة أعوام، بل أعتبر نفسي أمه وقد ربيته معك.

أختلس نظرة جانبية نحوها، فما تقوله ظل حاجزًا بيني وبينها طوال هذه السنوات، لهذا لم أصارحها يومًا بحقيقة شعوري مكتفيًا بعلاقتنا الأخوية، لكن الرجل عاد يهتف بمكر حانٍ:

- تظنينني غافلاً عن سبب رفضك للخاطبين طوال هذه السنوات؟!

ابتسامتها الخجول تبدو كشمس اعتراف مشرقة تسطع فوق ملامحي أنا، فأشعر لأول مرة بحرية أن أنظر إليها دون قيود من الذنب. أتزوجها لأقضي معها أهنأ أيام عرفتها قبل أن يذاع الخبر بين الناس أن صلاح الدين يجمع الجيوش لملاقاة الصليبيين.

شيء ما بعقيدتي الدينية في هذه الحياة مختلف، ربما لأن أبي هنا كان يحمل ملامح جابر مع عطر يافا التقية، لأول مرة أعيش حياة في نهر الزمن لا أرى في رجل الدين وجه الشيخ غريب.

لهذا لم يكن عجيبًا أن وجدتني أنتظم في صلواتي وإن بقي في صدري شيء من التيه القديم، لكنني في هذه الليلة توضأت بأحسن مما علمني أبي، صليت ركعتين من القيام بللت فيهما دموعي لحيتي، كنت أشعر أن الظلمة الأولى التي طالما أهلكتني عتمتها تنقشع عن نور طفيف يبزغ بين ضلوعي.

- تبكي يا يونس؟!

يقولها أبي وقد قلق من نومته لأواجهه بملامحي المرتبكة وقد هممت بالنهوض من موضع صلاتي، لكنه يثبتني مكاني.

- ما الذي يؤرقك يا ابني؟! تخاف الجهاد؟!

- أخاف نفسي. وساوسي.

- وبماذا تحدثك وساوسك؟!

أصمت قليلاً مترددًا عن الجواب، مشاهد من حياتي الأصلية تجتاحني بعنف، لتتوقف جميعًا أمام مشهد واحد: قدم مجدي فوق جسد جابر الميت، فأجدني رغمًا عني أسأله السؤال الذي كدّر حياتي الحقيقية بعد هذه الواقعة:

- هل الله عدل؟! أين عدله وهو يذر الظالمين يتنعمون في الدنيا بطغيانهم؟! بينما يموت الأبرياء دون ذنب؟! ما قيمة صلاتنا وصيامنا لو لم يكونا درعًا لنا من مصائب الدنيا؟! ما جدوى الدعاء لو كان سيُرد إليّ خائبًا مخذولاً؟!

دموعي تختلط بكلماتي وجسدي كله ينتفض بهذه اللوعة الحارقة كأنني - التوي- أشهد موت جابر من جديد.

فيهز الرجل رأسه متفهمًا ليربت على ركبتي بجوابه:

- الله عدل؟! ومن أعدل من الله حكمًا يا يونس؟ لكن الدنيا دار اختبار وليست دار عدل، العدل هناك في الآخرة حين ينصب الميزان أمام الخلائق فلا تُظلم نفسٌ مثقال ذرة، صلاتنا وصيامنا وعبادتنا قد لا تكون درعًا لنا من مصائب الدنيا، لكنها تقينا عذاب الآخرة، الدعاء قد يؤخر لحاجة لا يعلمها إلا الخالق، العاقل من يدرك اختباره فيجتازه، والأحمق من تشتته السبل فيضل ويشقى.

- والظلم؟ كيف نمحو مرارة علقمه من الحلق؟

- باحتساب الأجر عند من لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.

يقولها ثم يتلو قول الله تعالى: (الذين قال لهم الناس إن

الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء).

يتوقف هنا عامدًا كأنما يدعوني للتدبر وكأنه أساء تأويل كلماتي لخوف من الحرب، لكنني أشرد في كلماته وأنا أحاول تطبيقها على واقعي الحقيقي، بينما هو يردف بنفس النبرة الغارقة في إيمانها:

- مهما عظم البلاء تأكد أن خلفه رحمة، إن الله العظيم قضى برحمته أن يجعل مع كل عسر يسرين، أليس هو القائل في كتابه «إن مع العسر يسرًا، إن مع العسر يسرا»؟ سُنّة الله في كونه أن يتناحر الحق والبغي إلى قيام الساعة، هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت، فلا يغرنك حلم الله على الظالمين، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار.

- والمظلوم؟! ألا يحق له أن ينعم بثأر؟! أن تبرد ناره بانتقام؟! كيف يثق في عدل الله وهو لا يراه؟!

- كما يتنعم بفضله الذي يراه.

يقولها بحسم ليردف بيقين مؤمن:

- تدري معنى الإيمان؟! الإيمان الذي جعل إبراهيم يترك زوجه وولده في وادٍ غير ذي زرع، الإيمان الذي جعل أم موسى تلقي رضيعها في اليم، الإيمان الذي يملؤك باليقين فيما عند الله بأكثر مما تمسكه بين كفيك، هذا الإيمان الذي يجعلنا نمضي في حياتنا وكل ما يعنينا هو السعي، أما الحصاد فهو فضل الله يؤتيه من يشاء ويصرفه عمن يشاء، فقط تذكرها يا يونس، متى اشتد

عليك البلاء، إيمان قلبك هو كنزك ودرعك، وما دون ذلك رماد تذروه الرياح.

كلماته الصادقة تنير قبسًا بداخلي فأعاود قولي الشارد بتردد:

- لو أحب الله عبدًا ما ابتلاه.

- بل يبتليه ليختبره، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط، يبتليه ليطهره حتى يكاد يمشي على الأرض وليس على ظهره خطيئة، يبتليه لينزع من قلبه حب الدنيا فلا يبقى فيه سوى حب رب الدنيا والآخرة.

ابتسامة خافتة تشرق فوق شفتي وأنا أشعر أن هذه الليلة ستبقى فارقة في حياتي، ليست حياتي هذه فحسب بل لو قُدّرت لي العودة لعالمي، كلماته فتحت لي أبوابًا ظننتها ستبقى موصدة في وجهي للأبد، لهذا عندما قمت بعدها معه لصلاة الفجر - فتعذر هو بمرضه ليقدمني لإمامة الناس في الصلاة- شعرت أن هناك شمسًا ما قد أشرقت في روحي لن تغرب بعد اليوم أبدًا.

- الله أكبر.

حين نطقتها هذه المرة لم تكن باردة مُدّعاة كما سبقتها في حياتي هذه أو ما سبقتها من حيوات، لكنها كانت حارة، مزلزِلة، كأنما أسمعها تدوي داخلي بصدى مهيب.

الله أكبر من جهلي، من ضلالي، من هواجسي، ومن ظلمتي.

ولأول مرة منذ غادرت هيولان ألمح «ضلع المثلث الماسي»، أجل، عندما عدت من الصلاة وأويت لمخدعي وجدته فوق

وسادتي، لكنني عندما مددت يدي نحوه اختفى.

هل يعني هذا أنني على الطريق لكنني لم أنتهِ بعد؟!

الأيام التالية كانت شديدة التلاحق في سرعتها، كان صلاح الدين قد فتح باب التطوع في مصر لمحاربة الصليبيين، فالتحقت بالجيش كطبيب وتطوعت معي ضيّ وأبي رغم كبر سنه، عرفت «صلاح الدين» عن قرب لأدرك أي قائد عظيم كان، أول ما فعله كان توحيد المسلمين إما باللين أو بالقوة، قبل أن يشرع في اجتياح قلعة الكرك، عبرنا نهر الأردن ثم سرنا إلى تل كفر سبت، وحاولنا الاشتباك لكن الصليبيين رفضوا القتال، فاستولينا على طبرية قاطعين على العدو طريقه إلى الماء.

أجواء معركة حطين الحقيقية اختلفت بحرارة أحداثها عما قرأته في الكتب الباردة، هأنذا أراني مع جنود المسلمين نحرق الأعشاب والشجيرات في ساحة المعركة ونستولي على عيون الماء عملاً على تعطيش الصليبيين وإجبارهم على الاشتباك الذي كانوا يرفضونه، فلما وصلوا إلى السهل بين لوبيا وحطين هجمنا عليهم ففروا إلى التلال القريبة، ليشرق الصباح التالي علينا وتبدأ المعركة في قيظ شديد ونقص في مياه الشرب، يلتحم جيشانا بالسهام أولاً ثم السيوف والرماح، جيشهم يتهاوى ويستسلم منهم الألوف، يلجأون لمناورة فيخترقون صفوفنا بما ظنوه ثغرة لدينا فاندفعوا إليها لتطوقهم جيوشنا بجسارة، وينهزموا هزيمة كارثية.

وأخيرًا فُتحت لنا الأبواب، وخفقت راية صلاح الدين

الصفراء فوق القدس.

أتحدث عن جيشنا بضمير الجمع رغم أن دوري لم يتجاوز تطبيب الجرحى، هل يمكنني الاعتراف أنني - ولو أتيحت الفرصة- لم أكن سأشارك في القتال؟! جبان؟ ربما هو خوفي الطبيعي من أن أقتل في هذه الحياة فأفنى للأبد، وربما لم يبلغ إيماني بديني ووطني هذا الحد الذي يدفعني للمجازفة.

- الحمد لله الذي مد في عمري وأعادني لوطني مظفرًا.

كانت هذه آخر كلمات أبي تلتها الشهادتان وهو يلفظ آخر أنفاسه، ورغم الحزن الذي تملكنا أنا وضي بعدها، لكن عزاءنا أن الرجل حقق أمنيته ومات في وطنه بعد تحريره.

- دعنا نبقَ هنا يا يونس، نفسي لا تطاوعني أن أترك أبي وحده في قبره.

تقولها لي ضي وقد همّ جيشنا بالعودة لمصر، فأكاد أجيبها لمطلبها لكنني أتذكر ضلع مثلثي المفقود فأقول بما ظننته الأصلح:

- عاهدت أبي أن أكون خادمًا لجيش وطني، متى يحتاجني يجدني.

تتردد قليلاً لكنها تطيعني فنعود مع الجيش لمصر، أعيش معها حياتي هنا بوضع يقارب المثالية، ولا أزال أبحث عن ضلع مثلثي، حتى يتوفى صلاح الدين.

- يا لحسرتي على حال البلاد بعده! تقسمت دولته بين أبنائه وأخيه العادل بعد وفاته، وصاروا يناطح بعضهم بعضًا.

تقولها لي ضي ذات يوم وهي تودعني عند باب بيتنا الجديد حيث استقر مقامنا بينما تساعدني في ارتداء عباءتي وتناولني عصاي، فأبتسم لها وأنا أتأمل ضفائرها التي غزاها المشيب، أول حياة نشيخ فيها معًا، وليت العمر الحقيقي يمنحنا هذه الفرصة، أتفكر في حديثها قليلاً، الملك العادل جعلني طبيبه الخاص منذ ذاع صيتي في أواخر أيامي كأمهر طبيب في مصر والشام، الرجل كان يثق برأيي كثيرًا خاصةً وقد داويته بأفضل مما فعل من سبقني.

- يونس! أنت في طريقك لبيت الملك العادل والرجل يثق بك، اصدقه النصيحة فلا خير فيك إن لم تقلها ولا خير فيه إن لم يسمعها، ذكّره أن أخاه صلاح الدين رحمه الله لم ينتصر إلا عندما وحّد المسلمين حوله، حذره من الفرقة والتناحر بينه وبين أبناء أخيه.

- تتحدثين وكأنني وزيره، مالي أنا وحديث الملوك والسلاطين؟! أنا طبيب عجوز لا يفقه إلا علوم الداء والجسد.

ترمقني بنظرة عاتبة لا أحتملها، فأميل عليها لأمنحها قبلة تشبه الاعتذار قبل أن أتركها لأغادر نحو قصر الملك، حديثها يشغلني طوال الطريق، لكنني لا زلت أتخفى خلف درع جبني، تراها هذه هي المشكلة؟! لهذا لم أعثر على ضلع مثلثي بعد في هذه الحياة؟!

تُفتح لي أبواب القصر ليجد لي الملك مكانًا بين بطانته، يصرف الجمع ثم يتكئ على كرسيه فأفتح صندوقي لأستخرج

أدواتي وأتفحصه، ثم أقول مطمئنًا:

- أطال الله في عمرك يا مولاي.

لكنه يتنهد بحرارة ثم يقول بنبرته المهيبة:

- تعلم بالتأكيد عن النزاع بيني وبين أبناء أخي! بعد كل ما قدمته للدولة يكون هذا فقط نصيبي من إرث أخي صلاح الدين؟! هل هذا عدل؟! لن أفرط في حقي ولو تطور الأمر لحرب بيني وبينهم.

تنفرج شفتاي وأنا على وشك الاستماع لنصيحة ضي، فأكاد أصدقه الرأي، لكن خوفي يكبلني فأتنحنح لأنافقه بقولي:

- نعم الرأي رأيك، الله ناصرك ومؤيدك.

يرمقني بنظرة راضية ثم ينادي حاجبه فيأمر لي بالمزيد من المال الذي أتناوله برضا، أغادر قصره شاعرًا بالذنب، لن أخبر ضي عن جبني وتخاذلي، رأيي لم يكن ليشكل فارقًا من الأساس، من أنا وسط الملوك والقادة؟! حشرة ستطؤها أقدامهم.

أفكاري تنقطع وأنا أشعر بألم حارق في صدري، دقات قلبي العجوز تتقافز حد الجنون وجفناي ينسدلان رغمًا عني، هل هي النهاية؟! هل سأموت هكذا في هذه الحياة دون أن أنال ضلع مثلثي؟! وحدي في الطريق دون ضي؟! أسقط مكاني لأترقب التسلسل المعهود ككل مرة، أشعر بهم يدفنونني ثم يهيلون فوقي التراب، أتلقى اللسعة الحارقة على عنقي تصفعني بفشلي بحسرة مضاعفة هذه المرة وقد كدت أصل، كدت أصل.

مثلث الأقداس
(الضلع الأول)

***

نفس التراب الناعم في صحراء واسعة يتلمسه كفي المنمنم، فأكاد أبتسم وأنا أشعر أنني - ربما- فهمت المغزى من أن يكون هذا المشهد الثابت بداية كل حياة، يروح الناس ويأتي الناس، يذهب ملك ويخلفه غيره، لكن يبقى تراب الوطن هو هو، ليس ملكًا لأحد ولا رمزًا لشخص بل هو قدسٌ منزّه تفتديه جميع الأرواح.

هذه المرة يلتقطني رجلٌ ما يرتدي ثياب العبيد ليتوجه بي نحو بيت سيده، يبدو أنها ستكون حياة قاسية.

عوملتُ معاملة الأرقاء تنقلني الأيادي من يد ليد، من بيت لبيت، لا ملامح لجابر ولا لنجية في هذه الحياة، رأيت من صنوف المهانة ما رأيت، لكنني بقيت أصبّر نفسي أنني لن أخسر ضلع المثلث في هذه الحياة مهما كان الثمن.

هذه الفترة من حكم مصر كانت شديدة التقلب، سقطت الدولة الأيوبية بعد الفرقة بين أبنائه وإخوته وانقسموا لدويلات يحارب بعضها بعضًا، فهزلت صورتهم أمام الصليبيين من

الغرب والتتار من الشرق، ووصل بهم الأمر إلى أن يستعينوا بهم على إخوتهم، واستمر الأمر كذلك إلى أن انتهت الدولة الأيوبية وبدأت دولة المماليك، اشتراهم الملك الصالح أيوب وعلمهم فنون الحرب والقتال ليقوّي بهم ملكه، لكن نفوذهم ازداد يومًا بعد يوم حتى صاروا أمراء الجيش وقادته.

ذات يوم كنت جالسًا في تلك البقعة القصيّة البعيدة عن العمران والتي أختلي فيها بنفسي كلما ضقت ببطش سيدي الذي يزداد يومًا بعد يوم، ظهري يئن بأثر جلداته التي وصمني بها بالأمس عقابًا لي على أمر تافه، هذه الحياة تبدو أصعب حياة عشتها، فقر وعبوديّة ومهانة، بلا جابر ولا نجية ولا ضي.

- لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

لا أدري كيف جرت على لساني هكذا بيسر وكأنها أقولها طوال عمري، أبتسم برهبة وأنا أرفع وجهي للسماء الصافية في هذا الوقت من النهار، عيبٌ عليك ألا تذكرها سوى الآن وأنت المسمّى «يونس».

قلبي يرتعد بخشية وأنا أبتهل بدعاء خاشع لم أعرفه منذ كنت في جيش حطين، اللهم الثبات، اللهم الهداية، لا تكلني لخذلان نفسي هذه المرة.

صوتٌ ينبعث جواري كأنه صليل سيفين يتقارعان يجعلني أنتفض مكاني لأهرع نحو مصدره، فأرى فارسين يقتتلان،

أحدهما ملثم ضئيل البنية مقارنة بصاحبه، لكن ضرباته تبدو شديدة القوة حقًا، أقف مكاني مختبئًا خلف شجرة ما ومكتفيًا بمراقبة القتال بينهما والذي تشتد ضراوته حتى يستطيع الضخم الإطاحة بسيف صاحبه الضئيل، فيسقط الأخير أرضًا ليسقط معه لثام وجهه.

- امرأة! كنت أقاتل امرأة!

يهتف بها الضخم بغيظ وعيناه اللتان تقدحان الشرر لا تستران إعجابه الغامر بها، نفس الشعور الذي كنت أشاركه إياه بالضبط، فقد كانت ضي.

- دعني لشأني وخذ الصندوق.

تهتف بها بشراسة فتية مشيرة لما فوق جوادها القريب والذي بدا وكأنه ما دفع هذا اللص لمطاردتها من الأساس، ليرد ساخرًا:

- منذ تولت شجرة الدر الحكم وقد تجرأت علينا النساء، صدق ملوك الأيوبية لما عيّرونا بقولهم إن كنتم عدمتم رجالكم فأخبرونا نرسل لكم من رجالنا.

لكنها تعيد عبارتها بصرامة:

- دعني لشأني وخذ الصندوق.

فيتقدم منها ملوحًا بسيفه:

- ولماذا أكتفي به ما دام يمكنني امتلاككما معًا؟!

يقولها بخبث وهو يميل عليها فلا أستطيع الصبر أكثر،

أستغل عنصر المفاجأة لأباغته فأقفز فوق ظهره لأسقطه أرضًا، أنتزع منه سيفه ثم أثب واقفًا لأسلطه فوق عنقه.

- لا تقتلني! خذ الصندوق وسأكتفي بالمرأة.

يهتف بها لاهثًا بخوف فأصدر صوتًا ساخرًا لأرد له بضاعته:

- ولماذا أكتفي بواحد ما دام يمكنني امتلاك الاثنين؟!

أقولها وأنا أرفع السيف بحركة تهديد مردفًا:

- لو رأيتك بعد العد لثلاث فسيرتوي هذا الرمل بدمك.

ينهض ليعدو هاربًا وتهم هي بفعل المثل مستغلة انشغالي به.

- انتظري.

أهتف بها برفق فتلتفت نحوي بعينيها.

يومًا ما سأخبرها أنني عشقت عينيها في كل حياة، أنني أحببتها كل مرة وكأنها أول مرة.

- اتقِ الله! أنا امرأة حرة اضطرتني الظروف للسفر، لو تركتني فلن أنسى صنيعك.

- أخبريني فقط أين تقيمين.

أقولها مسقطًا سيفي كي أطمئنها فتتنهد بارتياح ثم تعيد اللثام لوجهها هاتفة من خلاله:

- لا يمكنني إخبارك.

تقولها ثم تعتلي ظهر حصانها برشاقة لتجذب لجامه نحوها وتنطلق يلاحقها هتافي:

- قلتِ أنكِ لن تنسي صنيعي، كيف سأجدكِ؟

- أنا سأفعل.

هتافها يطرب أذني قبل أن تختفي من أمامي فأبتسم بسعادة وأنا أراها أول فرحة حقيقية لي في هذه الحياة، لكنني أطلق صيحة ذعر وأنا أنتبه لمرور الوقت، سيدي سيقتلني.

بضع جلدات قاسية نالها ظهري من جديد هذا اليوم، لكنني كنت راضيًا أنني رأيت سيدة قلبي، هي وعدتني أنها ستجدني، ترى هل ستفعل؟

الناس في مجلس سيدي يتحدثون كعهدهم، فلا همّ لهم سوى الثرثرة عن شئون الحكم، كانت شجرة الدر أرملة السلطان الصالح أيوب قد تولت الحكم بعد وفاة زوجها، فأثار ذلك حفيظة الأيوبيين لكونها امرأة، وكي تستقيم الأمور تزوجت الأتابك عز الدين أيبك، وتنازلت له عن الحكم، لكن بقيت لها كلمتها خلف الستار، واليوم قُتِل السلطان أيبك وصار الملك لابنه الصغير المنصور.

- وهل سيحكمنا طفل؟!

يهتف بها سيدي باستنكار، بينما أصبّ له كأس شرابه ليرد صاحبه بتهكم:

- حكمتنا النساء ثم الأطفال، لكن لا أظن الوضع سيبقى هكذا، قطز نائب السلطان لن يبقى مجرد مساعد.

- مللت هذا البلد بتقلباته، كيف تنشط تجارتي في هذه الظروف؟ سأصفي تجارتي هنا وأسافر للشام.

يهتف بها سيدي بسخط ثم يركلني بلا سبب، فينسكب الإبريق من يدي فجأة على الأرض لتنالني لعناته، أمضي لأنظف الأرض وقد راودني خاطر مزعج، هل سيأخذني معه إلى الشام؟

لكن الفرج جاء بأقرب مما توقعت، الرجل صفّى تجارته وباع بعض عبيده قبل سفره إلى الشام، وقد كنت أنا ممن باعهم.

من عساه سيدي الجديد؟ يا الله! إنه العالم العز بن عبد السلام نفسه!

لم أصدق نفسي وأنا أراه لأول مرة بملامحه السمحة ونظرته التي تمزج الحزم بالرحمة، أستعيد تاريخ الرجل المجيد الذي أعرفه، كيف اشتهر بمناصحة الحكام، ومعارضتهم إذا ارتكبوا ما يخالف الشرع، وقد قاده ذلك إلى الحبس بعدما كان خطيبًا في الجامع الأموي بدمشق، لكنه هاجر إلى مصر واستقبله الملك الصالح أيوب بحفاوة بل وعيّنه قاضي القضاة، كما تولى الخطابة في جامع عمرو بن العاص، لكنه سار على نفس النهج كما كان في دمشق لا يخشى في الحق لومة لائم مهما كلفه الأمر، وله في مسألة بيع أمراء المماليك شأنٌ جلل.

- ما اسمك؟

يسألني العز مقاطعًا أفكاري بصوته الوقور، فأتقدم نحوه مأخوذًا بهالة هيبته:

- عبدك يونس.

- أنت حر لوجه الله.

يتهلل وجهي للمفاجأة، فأكاد أنحني لأقبل كفّيه لكنه يسحبهما بسرعة قائلاً:

- هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ أخبرتني قريبتي عما فعلته لأجلها ذاك اليوم إذ أنقذتها من بطش ذاك اللص.

ضي! ضي قريبته! لكن كيف عرفت مكاني؟!

- لا أريد الرحيل من بيتك يا شيخنا، دعني معك هنا خادمك وتلميذك.

أهتف بها برجاء يتقبله الرجل بسماحته لتتسع ابتسامتي وأنا أشعر بمزيج الفخر ولذة المغامرة.

- وعدتك أن أجدك وقد وفيت.

تقولها لي صبيحة اليوم التالي وقد التقيتها في حديقة بيت العز، كانت تغطي وجهها بلثامها لكنني كنت أحفظ كل تفاصيله، فأسألها بدهشة:

- كيف عرفتِ مكاني؟!

- ومن غيره يسِم عبيده بالنار؟ لعنه الله!

تقولها مشيرة لهذه العلامة في جبيني والتي وسمني بها سيدي القديم المشهور ببغيه فأشعر بمزيج من الحرج والخزي، لكنها تردف بنبرة أرق كأنها تواسيني:

- إنما العبودية عبودية القلوب، كم من حرّ استعبده قلبه، وكم من عبد يرفرف قلبه حرًا، وما رأيت منك إلا قلبَ حرّ.

أبتسم لها بكل ما أوتيت من عشق، وبجرأة غريبة على وضع كوضعي في هذه الحياة أجدني أهتف لها بحرارة:

- لو كان لمثلي أن يتقدم للزواج بمثلك، فأي مهر تطلبين؟

تتسع عيناها للحظة وكأن جرأتي صدمتها، لكنني ألمح ابتسامتها في نظرتها وجوابها المقتضب:

- صليل سيفٍ في سبيل الله.

تختفي بعدها عن ناظري فأبتسم وأنا أنذر لنفسي أن أمنحها مهرها مهما كان الثمن.

تمر الأيام بي بعدها سريعة فتتوطد علاقتي بالشيخ العز، أستغل علمه الوافر فأسأله عما استشكل عليّ من أمور الدين، أشعر أن تلك الثغرة التي خلفها الشيخ غريب في حياتي الحقيقية يسدها العلم المستبصر رويدًا رويدًا، حتى يهيأ إليّ أن «الندبة الهلالية» التي تركها يومًا على صدري لم تعد موجودة.

- تبدو مهمومًا يا شيخي.

أقولها للعز ذات ليلة وأنا أساعده في تبديل ثيابه عقب عودته من الخارج، فيتنهد بحرارة ليجيب:

- الملك الجديد قطز جمعنا اليوم لمشاورتنا بشأن حرب التتار، بيت المال خالٍ من الأموال والملك يريد فرض ضرائب باهظة على الشعب، وقد طلب فتواي.

- وبمَ أفتيته؟

- قلت له إنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على العالم قتالهم وجاز له أن يأخذ من الرعية ما يستعين به على الجهاد ولكن بشرط، أن يبيع الخاصة من قادة الجيش وأمرائه ما لهم من الذهب والآلات النفيسة، ويقتصر الجندي على سلاحه ومركوبه فيتساوون مع العامة، أما فرض الضرائب على العامة مع تنعّم الجنود بالمال والسلاح الفاخر فلا.

أبتسم معجبًا بجرأته رغم أن موقفه هذا ليس بغريب، أو ليس هو الذي وقف من قبل في وجوه الأمراء من المماليك وأفتى بأنهم لا يزالون في حكم الرق ولا تصح ولايتهم، كانت أزمة كبيرة، فقد جن جنونهم وقتها زاعمين أنهم ملوك الأرض، فكيف يباعون كأرقاء؟ لكنه ظل على فتواه حتى بيع الأمراء جميعًا في مزاد كبير ودفع ثمنهم السلطان أيوب وردّه إلى بيت مال المسلمين ليصرف في وجوه الخير، ثم أعتق رقابهم ليصيروا أحرارًا، هذا الرجل لن يكف عن إبهاري.

- الحرب قادمة يا يونس، أدعو الله أن يجعل لي في الجهاد نصيبًا.

- أريد التطوع في جيش الملك المظفر قطز.

أهتف بها بحماسة فيربت على كتفي برضا لتكون هي بداية بطولتي في هذه الحياة، خمسة أشهر تقريبًا احتاجها إعداد الجيش وتجهيزه وجمع المتطوعين كي تبدأ المعركة.

وأخيرًا أخرج مع شيخي العز في جيش المسلمين بقيادة قطز

الذي كان قد أخذ الفتوى من العلماء بعزل السلطان الصغير وتولي أمور البلاد مكانه بعدما استفحل خطر التتار.

وها أنذا أرى الملك المظفر قطز وقد قادنا خروجًا من الصالحية شرق مصر إلى سهل عين جالوت في فلسطين.

هذه المرة لم أكن أخشى الموت رغم يقيني أنه سيكون نهايتي الحقيقية ولن تكون لي فرصة في حياة جديدة، لكنني ولأول مرة منذ دخلت نهر الزمن أتمنى شهادة في سبيل الله، لعله تأثير العز بن عبد السلام الذي أثرت فيّ صحبته طوال هذه الأيام، أو لعله هذا الشعور الغريب الذي ملأني بالقوة وأنا أجاهد تحت لواء ملك كقطز قطع رؤوس رسل أعداء التتار وعلقها فوق بوابة المدينة في رسالة أرهبت قلوبهم وملأت قلوبنا نحن بالعزة.

سيفي في يدي يبطش بأعداء الله والوطن يمنة ويسرة، ولأول مرة لا يعنيني أن أجد ضلع مثلثي، فقد وقرت بطولتي في قلبي ولم أحتج لدليل.

وبينما أنا وسط جنود جيش الميسرة وقد تعرضنا لضغط شديد في بداية المعركة يزلزلني النداء:

- وا إسلاماه! اللهم انصر عبدك قطزًا على التتار.

يصرخ بها قطز بحماسة وهو يخلع خوذته ليرميها في الهواء ثم يهجم بنفسه قبلنا على جنود التتار فيشتعل قلبي بالحماسة وأنا أزيد من قوة ضرباتي.

نرى جيوش التتار تتراجع نحو بيسان فنتعقبهم، لكنهم كانوا قد استطاعوا تجميع قوتهم من جديد، يصدموننا بهجومهم الطاغي، فتأتي صرخة المظفر قطز ثانية لتزلزل الأرض تحتنا:

- وا إسلاماه! يا الله! انصر عبدك قطزًا على التتار.

هذه المرة كانت دموعي تملأ عيني وأنا أصرخ بها خلفه، أكررها كأنني لم أعد أفقه من الكلام سواها، السيف يتكسر في يدي من فرط قوة ضرباتي فأتناول غيره، الدم ينزف من جسدي لكنني لا أبالي، اللهم ديني ووطني! ديني ووطني! ديني ووطني!

لا أدري كم سيفًا تكسر في يدي ولا كم جرحًا احتمله جسدي، لكنني أسمع أخيرًا هتافات النصر وأدعية شيخي العز بن عبد السلام تبشرنا بالغلبة.

هزمْنا التتار، أول هزيمة ساحقة يتلقونها على أرض مفتوحة توقف توغلهم للشرق.

بل إننا تتبعنا فلولهم ومضينا في انتصاراتنا حتى استطعنا تطهير الشام كله منهم وتوحيد مصر والشام تحت دولة واحدة بقيادة الملك المظفر قطز.

- قتلوا قطزًا؟!

أصرخ بها ذات يوم والخبر يصلنا في مخيم الجنود.

كنا في طريق عودتنا من دمشق إلى القاهرة ولم يمضِ أكثر من خمسين يومًا فقط على انتصارنا.

يقولون إن بعض الأمراء قد تآمروا عليه، بعض الشائعات تنسب الأمر لبيبرس لرفض قطز أن يوليه إمارة حلب، وبعضها يبرئ بيبرس زاعمين أن من فعلوها كانوا ينتقمون لأقطاي ملكهم الذي شارك قطز يومًا في اغتياله فتعرضوا هم للتشرد والاضطهاد بعده، لكن ما يعنيني بمن قتله؟ الكارثة أنه قد قُتِل، ورغم علمي أن هذا ما كان سيحدث له مما أذكر من معلوماتي التاريخية، لكن معايشة الحدث أرعدت قلبي، مات المظفر! مات غدرًا في عز انتصاره!

- كل نفس ذائقة الموت، لعل موته شهيدًا خيرٌ له من أن يعيش مفتونًا.

يقولها لي شيخي العز مواسيًا، فأتدبر معانيها، لكن حزني على البطل لا يفارقني لأيام بعدها حتى أنني غفلت عن البحث عن ضلع مثلثي.

نعود لمصر فتستقبلني ضي بين فرحتها بانتصارنا وحزنها على قطز، لم أجرؤ أن أفاتح الشيخ بشأن زواجنا، فقد كانت صدمتي بمقتل المظفر غدرًا توجع قلبي، تعيد لذهني مشهد جابر وقدم مجدي فوقه.

يستلم الظاهر بيبرس السلطة فيستدعي العلماء والأمراء لمبايعته، هنا كان دوري لأشهد بطولة جديدة لشيخي العز الذي وقف في وجهه دون خوف قائلاً:

- أنا أعرفك مملوك البندقدار.

يعني أنه مملوك ولا يجوز له تولي السلطة، فأحضر بيبرس ما يثبت أن البندقدار كان قد وهبه للملك الصالح أيوب الذي أعتقه بعدها، وهنا فقط تقدم شيخي ليبايعه.

أقضي ليلتها في غرفتي الصغيرة التي خصصها لي الشيخ وقد اعتزمت أن أحدثه غدًا بشأن زواجي من ضي، شيء ما قد وقع في صدري وجعلني مترددًا بشأن البقاء في جيش الظاهر بيبرس، لكن..

- الدين، الوطن، الولاء لهما يا يونس وليس لأي شخص، لو بقيت في العمر دقيقة واحدة فانذرها لهما فحسب.

أخاطب بها نفسي بحسم وأنا أضرب بقبضتي على صدري موقنًا أنني قد وعيت الدرس.

أصلي الفجر بخشوع صار يلازمني بحلاوة وجدتها في قلبي ثم أنام فلا أشعر بشيء، دقات قلبي تتثاقل بهذه الوتيرة التي صرت أحفظها، هل سأموت الآن؟! هكذا بسرعة دون أن أتزوج ضي؟

يبدو أن هذا ما سيحدث فعلاً، فها أنذا أشعر بهم يدفنونني ثم يهيلون التراب فوقي، لكنني هذه المرة أجده مشعًا فوق صدري يحتضنه ذراعاي بقوة.

إنه هو، حصلت عليه، أخيرًا حصلت عليه.

ضحكتي تدوي بين ضلوعي وأنا أتذوق لذة المغنم الأول.. الضلع الأول.

(الضلع الثاني)

***

تراه نفس المشهد المكرر للصحراء حولي؟

لا أدري، أنا لا أرى شيئًا.

كفي المنمنم يتلمس التراب الناعم تحتي حتى أشعر بأحدهم يحملني، يسير بي فلا أعلم وجهتي، لكنني أشعر أخيرًا بالماء يغسلني، بملمس قطني يحتوي جسدي، بهذه الرائحة العطرية الدافئة، وبصوت امرأة تهتف بلهجة قروية ممطوطة النهايات:

- بارك الله لك يا شيخ «جابر»، من يدري ما الذي كان سيصيب المسكين هذا لو بقي ملقيًا هكذا في الطريق.

- أنا قلِقٌ بشأن آخر، حركي كفكِ هكذا أمام عينيه.

يقولها الرجل بتوتر فيعصف القلق بي من جديد وأنا أدرك أنني حقًا لا أرى شيئًا.

- كفيف؟! وماله يا شيخ، كلهم بركة، بالله عليك دعنا نعود به إلى قريتنا، نربيه مع البنت ولنا الثواب.

أسمع الرجل يوافق بعد صمت قصير لأشعر به بعدها يميل على جبيني بقبلة دافئة، لكنني كنت حقًا أشعر بالهلع.

سأخوض هذه الحياة كفيف البصر، لماذا تفعلون بي هذا أيها

الشهابيون؟ لماذا تصعبون عليّ الأمور أكثر؟!

تمر بي سنوات طفولتي ومراهقتي في هذه القرية التي عرفت اسمها، قرية هرية رزنة بمحافظة الشرقية، لم أعرف سبب اختيار هذه القرية بالذات إلا عندما توطدت علاقتي بذاك الصبي الذي انجذب نحوي دونما سبب ليختارني صديقًا رغم ظروفي المعقدة، صبي عرفته باسم أحمد الحسيني عرابي.

والده كان عمدة قريتنا، توفي بداء الكوليرا الذي تفشى وقتها وعرابي في الثامنة من عمره، تعرفت إليه أول مرة وقد شرع الصبية في القرية يقذفونني ببعض الأحجار بينما أمشي في الطريق وحدي متجاهلاً أوامر أبي الذي كان ينهاني عن الخروج دونه، لكن عرابي الصغير نهرهم ثم أمسك كفي ليسألني عن بيتي ويعيدني لأمي، كان قد فقد أباه لتوه فشعر بأن مأساتنا مشتركة، ربما لهذا توطدت صداقتنا سريعًا وزادتها الأيام قوة.

كنت أكبره ببضعة أعوام، وبينما تلقى هو تعليمه في الجامع الأزهر في القاهرة، كنت أنا قد حفظت القرآن الكريم في مسجد قريتنا على يد أبي الشيخ جابر الذي لم يبخل عليّ بعلمه، وقد أعدني لأكون خليفته في المسجد، خاصةً وهو لم يُرزق من الأولاد إلا بفتاة توفاها الله بعدما وجدني، فاكتفى بي من الولَد هو وأمي.

لم أرَهما بطبيعة الحال، لكنني كنت أتحسس وجهيهما فأتبين ملامح جابر ونجية، كذلك فعلت بعرابي الذي كان نافذتي على هذا العالم، ملامحه لم تكن باردة متعجرفة كما تظهرها الصور، إنما

عرفته طيب القلب خفيف الظل.

حياتي - ككفيف- علمتني الكثير، زرعت فيّ الصبر وحب التأمل، عودتني أن أستمع لحدسي وأرى الناس ببصيرتي، خففت حدة طباعي المعهودة وجعلتني أكثر حلمًا، لهذا لم أستشعر ضيقي بهذه الحياة رغم كل شيء.

- بارك لي يا يونس! عينوني ضابطًا في الجيش!

يهتف بها عرابي وهو يدخل عليّ مقامي المعهود في المسجد، فأضحك مستبشرًا وأنا أفسح له مكانًا جواري، كان هذا أمرًا جللاً وقتها، فقد كانت التفرقة عظيمة بين المصريين والشركس في الجيش، لكن الخديوي محمد سعيد باشا كان قد أمر بإلحاق أبناء المشايخ والأعيان بالجيش ضمن جهوده للتسوية بين المصريين والشركس.

- يومًا ما سآخذك معي لـ«المحروسة»! يجب أن تراها.

يقولها وهو يضع في حجري هداياه التي لا ينسى نصيبي منها كلما عاد إلى القرية، فأرد ساخرًا ببعض المرارة:

- أراها؟!

لكنه يربت على كتفي هاتفًا:

- تراها بعيني يا يونس، أجمل بلاد الأرض.

أبتسم لحماسته وقد وقع هذا الأمر في قلبي موقع التمني، أتوق لرؤية القاهرة أو كما يسمونها المحروسة في هذه الحقبة من الزمن، وأتوق أكثر لمعرفة دوري في هذه الحياة كيف سيكون.

يغيب عرابي عني طويلاً هذه المرة لأسمع أنه قد استفاد من نظام الترقي بالامتحانات فوصل إلى رتبة ملازم ثاني بعد أربع سنوات فقط من الخدمة، ثم ارتقى سلم الرتب العسكرية بسرعة حتى وصل إلى رتبة قائمقام «عقيد حاليًا» وهو لم يكمل عشرين عامًا.

- فخّم «الصاد» يا فتى، وإلا صارت كـ«السين»، هيا انطقها، تصير.

أخاطب بها أحد تلامذتي صبيحة ذات يوم في زاوية المسجد حيث صار مقامي في تحفيظ القرآن خليفة لأبي، فيكررها الصبي خلفي ليقاطعنا نداؤه:

- افتقدتك يا يونس!

- عرابي!

أهتف بها مستبشرًا وقد سرني سماع صوته بعد كل هذه الغيبة، فأنهي درسي مع الصبي بسرعة لأسمع صوت عرابي يخفق بسعادة:

- سعيد باشا صار يثق بي كثيرًا، تصور أنه أهداني هذا!

يقولها وهو يضع في حجري ما تلمسته بأناملي ليردف هو بفخر:

- كتاب عن تاريخ نابليون مكتوبٌ بالعربية.

- يا الله! بارك الله يا صاحبي! تستحق الخير كله.

- لا زلت على وعدي بصحبتك للقاهرة، انوِ أنت فقط واستأذن الشيخ جابر.

لكن أبي توفي في هذه الفترة لتمرض بعدها أمي مرضًا شديدًا، إحدى قريباتنا تستجلب لنا فتاة تساعدنا، لم تكن خادمة بالمعنى المعروف، لكنه ضيق الحال.

- تريد شيئًا يا شيخ يونس قبل رحيلي؟!

ضيّ! إنه صوت ضي! تبًا لظلام عيني هذا الآن! أقاوم بشدة أن أهرع نحوها كي أتحسس وجهها، فأسألها بصوت مرتجف:

- ما اسمك؟!

تمنحني الجواب المتوقع فأزدرد ريقي بانفعال مع قولي:

- هل نامت أمي؟!

- نعم بعدما تناولت طعامها.

- أين تقيمين؟!

أسألها محاولاً مد جسور الحديث بيننا ليصلني صوتها الخجول:

- بيتنا على أطراف القرية، جوار المسجد الذي تصلي فيه.

أبتسم أروع ابتسامة عرفتها منذ دخلت هذا العالم وأنا أتمنى في هذه اللحظة فقط لو أعرف كيف يبدو لها شكلي هنا، لا يعنيني كيف يكون شكلها هي، أنا متيم بها على أي حال.

- هيّا يا ضيّ، عفوًا يا شيخ يونس! لم أنتبه أنك هنا.

يهتف بها الرجل الذي استنتجت أنه والدها قبل أن يأخذها معه ويرحل فأدرك - كعهدي- أن رحيلها يأخذ معه قطعة من روحي.

أكاد أتقدم للزواج منها كما أفعل في كل حياة ألتقيها، لكن هذه المرة كانت مختلفة، إشفاقي عليها غلب عاطفتي، وكيف لا وأنا أدرك أي حياة صعبة أعيشها هنا؟!

- تزوج يا يونس! أبوك قد مات وأشعر أنني لاحقُته، من سيعتني بك بعدي؟!

تقولها لي أمي كل صباح قبل مغادرتي للبيت فأبتسم ببعض الحسرة وأنا أحاول أن ألهي نفسي بشئون أخرى، شئون هذا الوطن مثلاً!

مات سعيد باشا ليخلفه الخديوي إسماعيل فتعود التفرقة بين المصريين والشراكسة، ترى كيف حالك يا عرابي؟!

- مخذول يا يونس!

يقولها لي عرابي ذات يوم عقب عودته وقد جلسنا على شاطئ الترعة ليفضي إلي بما يسوؤه:

- فصلوني من الجيش.

يحكي لي كيف وقع خلاف بينه وبين أحد اللواءات الشراكسة، والذي سعى لإقالته بدعوى شراسة الخلق وقدمه بسببها للمحاكمة العسكرية، وانتهى الأمر بفصل الخديوي إسماعيل له.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، وماذا ستفعل؟!

- سألتحق بوظيفة في دائرة الحلمية، لكنني سأبقى أرفع مظالمي للخديوي لعله يقبلها.

يقولها ليتحول يأسه لغضب هادر:

- إنها بلدنا نحن، نحن لا هم، أحوال الجيش لا تسر أحدًا.

- اصبر ولا تجزع، عسى الله أن يُحدِث بعد ذلك أمرًا.

أقولها له مطمئنًا ثم نفترق على لقاء قريب، ولم يدُر بخلدي أن يكون اللقاء في عزاء أمي.

رحلت الغالية وتركتني وحدي في هذه الحياة، حتى ضيّ لن أتمكن من لقياها بعد اليوم، بأية ذريعة؟!

- تعال معي إلى المحروسة يا يونس، أحتاجك جواري.

يقولها لي عرابي وهو يشد على كفي فأتنهد متسائلاً:

- وماذا سيصنع مثلي هناك؟!

- تحفّظ القرآن للصبية كما تفعل هنا، سأتولى لك هذا الأمر، لا تقلق.

أتردد قليلاً لكنني أستشعر بحدسي أن دوري في هذه الحياة يقتضي السفر للعاصمة، لهذا أمنحه موافقتي لنبدأ في تدبر الأمر.

حتى إذا جاءت ليلة السفر وجدت أبا ضيّ يزورني ليساعدني في حزم أغراضي كعهده منذ وفاة أمي، ترددت قليلاً ونفسي تسوّل لي أن أهمّ بطلب الزواج منها، لكنني فكرت، هي تستحق الأفضل، ربما كان هذا ما يميز حياتي هذه، المزيد من أنانيتي يُدفَن تحت أطلال الواجب.

ليلتها أويت إلى فراشي ليخدش سمعي صوت بكاء خفيض قرب النافذة، توكأت على عصاي لأتحسس طريقي إلى هناك

لأميز الصوت أكثر.

- من؟!

صوت البكاء يتوقف مع شهقة خافتة، وقلبي يميز رائحة حضورها رغم صمتها:

- ضيّ! ماذا تفعلين هنا في هذا الوقت؟!

صمتٌ مشحون يظللنا وتنهيه عبارتها الراجية:

- لا ترحل.

أتنهد بحرارة وحروفها تشبعني باعتراف عشق غير منطوق.

- لابد أن أفعل.

- إذن، خذني معك، لن أجد أفضل منك أعرض عليه الزواج.

عبارتها تدهشني حد الصدمة، فقد كانت المرة الأولى التي أصطدم بهذا الوجه الجريء منها.

- أقسم بالله العظيم أنني لن أكون لغيرك حتى لو رفضتَ، يشهد ربي أنني لم أتجرأ على قولها إلا خوفًا عليك، لن أهنأ بمقام وأنا لا أعرف من سيعتني بك بعدي.

- وهل تتزوج المرأة الرجل لأنها تريد العناية به؟!

- بل.. لأنها تحبه!

يا الله! أروع اعتراف بالحب أناله منها في كل هذه الحيوات، والمصيبة أنني لا أراها! تبًا لكم أيها الشهابيون! بل.. شكرًا، شكرًا لكم!

- عودي لبيتك يا ضيّ!

- هل ترفضني؟!

سؤالها يبقى معلقًا بيننا للحظات تسيء هي تأويلها فأسمع حفيف خطواتها تبتعد، لكنني أرفع صوتي قليلاً:

- سأؤجل سفري ريثما أقابل والدك كي نُتِمّ الأمر.

ضحكتها الخجول تداعب أذني فلا يكاد صداها يفارقني طوال أسابيع بعدها، حتى تزوجتها.

لن تنسى أناملي مذاق ملامحها التي تحسستها أخيرًا، قبلتي لعينيها حبيبتيّ، حتى وإن كنت لا أراها تبقى صورتها نقشًا على حدقتيّ لا يُطمس.

ألحق بعرابي في المحروسة لأدرك أن عدوى الزواج قد أصابته، ها هو ذا يقترن بأخت الخديوي توفيق - فيما بعد- من الرضاعة، ومن هنا تكون وساطة بعض المقربين من زوجته لاستصدار أمر العفو عنه من الخديوي إسماعيل وإعادته للجيش برتبته التي خرج عليها.

وجد لي عرابي عملاً شرفيًا بأحد المساجد حيث همي بتحفيظ القرآن وعلوم الدين كما أوجد لي مسكنًا جواره، عرابي الذي يزداد سخطه على أوضاع البلد يومًا بعد يوم خاصة بعدما أصدر ناظر الجهادية «وزير الدفاع حاليًا» عثمان رفقي عددًا من القرارات المجحفة للضباط المصريين في الجيش، منها منع ترقيتهم واستبدال مواقعهم القيادية بأخرى للشراكسة.

سألني عرابي المشورة فاقترحت عليه ترجمة غضبه والضباط لمذكرة يرفعونها لرياض باشا رئيس النظار يتظلمون فيها من انحياز رفقي للشراكسة، والمطالبة بالمساواة بين جميع الأجناس في الجيش وزيادة عدده، لكن الخديوي لم يتقبل هذه المطالب بل وألقى القبض على عرابي وأصحابه بتهمة التآمر.

تم اعتقالهم فعليًا لبرهة، لكن الضباط المصريين قاموا بتحريرهم بالقوة، تدخل القناصل الأجانب لفض الاختلاف وإصلاح ذات البين فاستجاب الخديوي لمطالبهم أخيرًا.

- تبدو مهمومًا يا صاحبي!

أقولها له ذات ليلة وقد استقبلته في بيتي ليرد بضيق:

- ألا ترى الأمور تزداد سوءًا؟! التدخل الأجنبي في شئوننا يزداد، لجوء رياض باشا للعنف الزائد مع المصريين، سوء الأحوال الاقتصادية، كل هذا يزداد وطأة.

- إذن قلها ولا تخف! كلمة حق في وجه سلطان جائر.

- نعم الرأي يا صاحبي!

وكانت الثورة العرابية التي التف فيها الضباط حول عرابي ليرفض الخديوي توفيق مطالبهم زاعمًا أنهم عبيد إحسانه، ليقول عرابي عبارته المشهورة:

- لقد خلقنا الله أحرارًا ولم يخلقنا تراثًا أو عقارًا، فوالله الذي لا إله إلا هو لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم.

يلتف الشعب حول عرابي فيرضخ الخديوي توفيق لمطالبنا.

- شكلوا حكومة جديدة برئاسة محمود سامي البارودي وجعلوني ناظرًا للجهادية.

يهتف بها عرابي ذات يوم وهو يزورني في بيتي كعهده بفرح أشاركه فيه شاعرًا بقيمة ما أنجزه الرجل وصحبه، لكنني كنت أتوجس خيفة من القادم، وقد صدق ظني.

فقد تفاقمت الأزمة بين الخديوي وعرابي، واستغلت الأطراف الجانبية هذه الأزمة فسعت كل من إنجلترا وفرنسا لإرسال أسطول مشترك في تهديد واضح للحكومة المصرية.

كنت جالسًا في صالة بيتنا الجديد أحاول استعادة معلوماتي عن هذه الفترة من ذاكرتي الحقيقية لكنها كانت مشوشة تمامًا، هل ستنجح ثورة عرابي؟! هل سنهزم إنجلترا وفرنسا؟!

رائحة عطرها تقاطع أفكاري فأبتسم فاتحًا ذراعي لها.

- الشاي.

- سلمت يدك يا ضي.

أتناوله منها شاكرًا فتجلس جواري لتمسك كفي بين كفيها:

- أنا حامل.

تزف إليّ بشراها فينتفض قلبي بفرحة حقيقية، إنها أول حياة تحمل هي فيها طفلاً مني، يا الله! كيف أصف فرحتي بها.. بهما؟!

أضمها نحوي لتهديها قبلاتي عالمًا من زهور، هذه الحياة مختلفة، مختلفة تمامًا!

تمر الأيام وعرابي الشريف يكافح وحده مع أصحابه، الخيانة تأتيه

من كل صوب، فالخديوي منحاز للإنجليز المتربصين على سواحل الإسكندرية، وها هو ذا الخديوي يأمر بعزل عرابي لكنه لا يمتثل.

هنا كان دوري لأعلن فتواي دون خوف والتي وافقت فتوى شيوخ الأزهر، بمروق الخديوي عن الدين لانحيازه للجيش المحارب لبلاده، ومن هنا تبطل أوامره ولا طاعة له.

أتحرك مع عرابي كظله نجمع ما يمكننا من الرجال والسلاح من القرى والعزب والكفور، قاومنا مقاومة عنيفة لمدة شهرين متواصلين في معركة كفر الدوار، والتي تنتهي بخسارة بريطانيا وانسحاب أسطولها نحو الإسكندرية.

لكننا لم نكد نهنأ بالنصر حتى عاد نهر الخيانة يتدفق، العرابيون يواجهون الإنجليز في معركة التل الكبير فيخون الخديوي توفيق، يخون ديليسبس صاحب شركة قناة السويس الذي يسمح للإنجليز بالدخول، يخون بعض بدو الصحراء فيطلعون الإنجليز على مواقعنا، يخون السلطان العثماني فيعلن عصيان عرابي ويحرض الناس ضده، بل ويخون بعض ضباطنا فيطلعون الإنجليز على ثغراتنا.

كلهم خانونا.

يضيق صدري ولا ينطلق لساني، الهزيمة تمرر حلقي وأنا أرى بسالتنا لا تمنحنا النصر، يدخل الإنجليز القاهرة ويبدأ الاحتلال البريطاني لمصر.

يُحتجز عرابي في السجن ويحكمون بإعدامه، لكن الحكم

يُخفف للنفي إلى سيريلانكا.

- هوّن عليك يا يونس!

تواسيني بها ضي فأغمض عيني قائلاً:

- يعز عليّ فراق صديق العمر عرابي، يعز عليّ أن يُحتل وطني ولا يزال في جسدي عرق ينبض.

لأول مرة أجرب حرقة الهزيمة رغم جهد السعي، لكنني لم أفقد إيماني أنها ليست آخر المطاف.

دقات قلبي تتثاقل بهذه الصورة التي ألفتها فأوقن قرب النهاية، لا! بالله عليكم أيها الشهابيون ليس الآن! لم أشهد انتصارًا بعد.

أكتم تأوهي وأنا أتلمس بطن ضي البارز لأبثها وصيتي:

- أسميه يونس، اسقه حب الدين والوطن قبل لبنك، اجعليه يكمل الطريق، كلنا عرابي، كلنا أحرار.

جفناي ينسدلان في إعلان للنهاية، أشعر بهم يدفنونني ليهيلوا فوقي التراب، ينتفض قلبي بترقب وأنا لا أدري كيف أبليت في هذه الحياة، لقد أجدت السعي لكنني لم أحصد النجاح.

والجواب يصلني في «الضلع الثاني» الذي وجدته مشعًا فوق صدري لتدوي ضحكتي بوجداني عالية.

لم يبقَ سوى ضلع واحد وأعود للشهابيين بمثلثهم، وحريتي.

(الضلع الثالث)

***

تراب الأرض تحتي صار يعرفني وأعرفه، هنا، هنا وطني الذي احتضن جسدي إذ ولدت وسيؤويه حين أموت، ولو عشت ألف حياة.

هنا مصر التي صرت أعرفها كما لم أفعل من قبل، لم يقهرها غازٍ ولم تنحنِ لطاغية، تتبدل عليها الوجوه ويبقى وجهها هو الثابت، وجهٌ بعيني عاشقة وأنف ملكة وابتسامة أم وحجاب حرة.

هذه المرة يلتقطني رجل تبدو عليه ملامح الصرامة مع الطيبة، ينحني ليحملني فأرى فيه وجه جابر.

يتحرك بي الرجل ليتوجه بي نحو بيته في ذاك الحي الشعبي ببورسعيد؛ لألتقي بزوجته التي تحمل ملامح نجية.

أستبشر بحياة تجمعني بهما معًا.

أبي كان يمتلك مطبعة صغيرة، ورغم كونه أميًا لكنه علمني قيمة الكلمة، كيف تكون سهمًا لا يخطئ هدفه.

عشت طفولة رائعة في الحي الذي يعبق بروح مصر القديمة، أما مراهقتي فصادفت ثورة يوليو.

مصر بعد الثورة كانت تشبه أميرة ليلة عرسها، الناس فيها بدوا وكأنهم يكتشفون حقهم في أرضهم لأول مرة، الشوارع كانت تنبض بأنفاس العزة وضحكات المستبشرين بغد جديد يمحو عنهم مذلة الأمس.

لم ألتحق بمدرسة، لكن جارنا الشيخ الأزهري تولى تعليمي بنفسه فكان معلمي الأول، وأبي الثاني.

ضي؟! كانت رفيقة الطفولة والصبا، ابنة الجيران، قطعة السكر التي يتهافت الجميع لنيل رضاها، لكن عينيها الحبيبتين لم تكونا تتوهجان إلا لأجلي.

- «الريس» سيلقي خطابًا!

كلمة السر تدوي في الحي والتي كانت وحدها تكفي ليتحلق الرجال حول المذياع في مقهى الحي متربصين بما سيسمعونه.

ورغم علمي بما سيقوله الزعيم ناصر بحكم ذاكرتي الحالية، لكن معايشتي للحدث كانت ذات صدى آخر.

- قرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية شركة مساهمة مصرية.

- الله أكبر!

يضج المقهى بالهتافات فأبتسم شاعرًا بالحماسة وأنا أهتف معهم.

تلتقيني ضي على السلم في بيتنا بعدها، فتسألني بفرحة لا تخلو من قلق:

- لماذا تظنه فعلها؟!

فأبتسم ابتسامة الخبير محاولاً كسب انبهارها:

- أظنها فرصته الوحيدة للحصول على التمويل اللازم لبناء السد العالي.

- وهل سيتركوننا لحالنا؟!

تسألني بنفس القلق، والجواب يأتينا سريعًا في الأيام اللاحقة، فيما أسموه «بروتوكول سيفرز» وأطلقت عليه إسرائيل اسم «معركة قادش» نظرًا لما يعتقده بعض الباحثين اليهود بأن مدينة «قادش بارنيا» (بالإنجليزية: Kadesh Barnea) المذكورة في التوراة، تقع في منطقة شمال سيناء، وهي آخر موقع على الحدود المصرية خرج منه اليهود مع موسى إلى الشتات، فكان الاسم رمزًا لبداية العودة إلى النقطة الأخيرة في هذا الشتات، بينما عرفناه ببساطة حديثًا باسم «العدوان الثلاثي».

إذ قررت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل وضع خطة لاستخدام القوة العسكرية ضد مصر، آملين بذلك تحقيق مصالحهم من تلك الضربة، فعلى الصعيد البريطاني كان الهدف التخلص من عبد الناصر الذي هدد النفوذ البريطاني بتحقيق الجلاء وتحالف مع السوفيت وأمّم القناة التي تمر منها المصالح البريطانية، وعلى الصعيد الفرنسي كانت فرصة للانتقام من عبد الناصر الذي ساند ثورة الجزائر وأمّم القناة التي كانت تحت إدارة فرنسية، في حين وجدت إسرائيل فرصتها لفك الخناق المحكم على سفنها في قناة السويس وخليج العقبة، وتدمير القوات المصرية في سيناء

التي كانت تشكل تهديدًا صريحًا لها.

طبقًا لبروتوكول سيفرز وفي ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ هبطت قوات إسرائيلية في عمق سيناء، واتجهت إلى القناة لإقناع العالم بأن قناة السويس مهددة، وفي ٣٠ أكتوبر أصدرت كل من بريطانيا وفرنسا إنذارًا يطالب بوقف القتال بين مصر وإسرائيل، ويطلب من الطرفين الانسحاب عشرة كيلومترات عن قناة السويس، وقبول احتلال مدن القناة بواسطة قوات بريطانية فرنسية بغرض حماية الملاحة في القناة، وإلا تدخلت قواتها لتنفيذ ذلك بالقوة.

- «الريس» لن يوافق، لن يعيد لهم القناة من جديد.

تهتف بها ضيّ بنبرتها الثورية مخاطبةً أمي التي استقبلتها في بيتنا، لترد الأخيرة بقلق وهي تدير مؤشر المذياع باحثة عن أي خبر:

- هو لن يوافق وهم لن يسكتوا، يارب سلّم!

ثم تنظر إليّ مردفة:

- اذهب لأبيك في المطبعة، لا تدعه وحده.

أغادر بسرعة لتلحق بي ضيّ على السلم:

- خائفة يا يونس.

كنت أشاركها خوفها إنما ليس على نفسي بل عليها هي وعليهم جميعًا، ارتباطي بهم في هذه الحياة صار أقوى مما عرفته في حيواتي كلها.

- لست خائفة من الموت، بل من العجز! من أن أشهد حقي يُغتصب ولا أملك القوة كي أدافع عنه.

- لا تخافي، الحق لا يضيع عندما يُغتصَب قسرًا، بل يضيع عندما يسكت عنه أصحابه، ونحن لن نسكت.

أعلنت مصر بدورها رفضها احتلال إقليم القناة، وفي اليوم التالي بدأت الغارات الجوية على القاهرة ومنطقة القناة والإسكندرية، ونظرًا لتشتت القوات المصرية بين جبهة سيناء وجبهة القناة أصدر عبد الناصر أوامره بسحب القوات المصرية من سيناء إلى غرب القناة، وبدأ الغزو الأنجلو- فرنسي على مصر من بورسعيد التي تم ضربها بالطائرات والقوات البحرية تمهيدًا لعمليات الإنزال الجوي بالمظلات.

- ظلمة، لعنهم الله! أحرقوا حي المناخ بأكمله بالنابالم، ودمروا منطقة الجمرك بحي العرب.

يهتف بها أبي لاهثًا وهو يدخل البيت ممسكًا بصدره وقد كانت هذه آخر كلمات نطقها.

أجل، سقط ميتًا من فوره لتشتعل أعماقي بالغضب.

غضب أسود جامح جعلني شعلة لن تنطفئ حتى آخذ بثأره.

هنا كان دوري لأكون في مقدمة صفوف المقاومة الشعبية في بورسعيد، والتي كبدت القوات المهاجمة خسائر فادحة في حرب شوارع تم التخطيط لها وفقًا لتنظيم محكم من قيادات الجيش المصري وقتها.

- ماذا ستفعل يا يونس؟!

تسألني ضيّ عقب عودتي من إحدى المسيرات التظاهرية التي كنت أقودها يوميًا فأشير لمطبعة أبي في الجوار:

- كل ما يمكنني فعله، من ناحية سأستمر في طبع المنشورات وتوزيعها لأحرض الناس على المزيد من المقاومة، بل سأطبع جريدة أفضح فيها أفعالهم القذرة، ومن ناحية أخرى سنستمر في حربنا المنظمة ضدهم.

- خالتي تعمل ممرضة في عيادة طبيب شهير هنا كما تعلم، اقترحت عليها أن نحول العيادة لمخزن للأسلحة والذخائر ننقله للفدائيين، كما يمكننا أن نؤوي الضباط المصابين هناك بعد أن نلبسهم زي المرضى.

- عظيم! نحن نعد لهم كذلك مفاجأة سارة، سنرد بها كرامة أسرانا.

- ماذا ستفعلون؟!

- غدًا تعلمين.

أقولها لأمضي ليلتي في طباعة منشوراتي:

- لا تلقِ سلاحك.

- سنقاتل.. سنقاتل.

- ارفع رأسك يا أخي.

ولم يكد الصبح يشرق حتى سعيت مع جماعتي لتنفيذ ما عزمنا عليه، ناديت الصبي الصغير الذي كان واقفًا ينتظرني على مقدمة الحي:

- تعرف ما ستفعله؟!

- لا تخف! رجل من ظهر رجل.

يهتف بها الصبي بفتوة وهو يخبط بقبضته على صدره فأشد على عضده ليتركني فيركب دراجته، أشير لأصحابي فنتبعه بسيارتنا وقد ارتدى اثنان منا زي الشرطة، وأخيرًا نراه.

«أنتوني مور هاوس» الضابط الإنجليزي الشهير بعدائه للمصريين وابن عمة إليزابيث ملكة إنجلترا.

الصبي يستفزه بسبابه كما خططنا ثم يعدو بدراجته فيتبعه أنتوني ونحن خلفه، الصبي يرتبك فيسقط أرضًا ليلحق به أنتوني، لكننا نتوقف فنقترب منهما وقد نجحنا في إقناع الأخير أننا من الشرطة، أختطف أنا سلاحه بسرعة فيما يقوم أحد أصحابي بليّ ذراع أنتوني ثم وضع إصبعه هو في ظهر الرجل كأنه مسدس فانهار الأخير تمامًا.

أبتسم لبساطة التدبير ونحن ننجح في اختطاف الرجل الذي سيكون مغنمًا كبيرًا في سبيل مبادلته بأسرانا، نذهب لما يسمى بـ«بلوكات النظام» حيث اعتدنا خطف الخونة من المصريين الذين يتعاونون مع الإنجليز.

- جرّده من متعلقاته الشخصية، الكارنيه، نوتة المذكرات هذه، هيا بسرعة.

أهتف بها مخاطبًا صاحبي فيستغل أنتوني الفرصة كي يشاغلنا ويهرب، لكننا نكمم فمه، نقيد قدميه ويديه ثم نضعه في صندوق

لنتحرك به في سيارتنا.

- انقلوه لسيارة أخرى للتمويه، هذه الخاصة بعمليات خدمة المياه ستفي بالغرض.

أهتف بها ونحن نتحرك بغنيمتنا، وأخيرًا نستقر به في أحد البيوت بشارع أحمد عرابي حيث نخفيه في الدور الأرضي.

- الدنيا مقلوبة يا يونس، منذ علم الإنجليز عن خطف ضابطهم وهم يحاصرون المنطقة بالسلاح بعدما وجدوا فيها السيارة المستعملة في الخطف، بل إنهم طوقوها بالأسلاك الشائكة أيضًا.

تهتف بها ضي بتوتر لأشيح بوجهي هاتفًا بقلق:

- الأغبياء سيتسببون بقتله هكذا، لن يخاطر أحد بالذهاب إليه لتقديم طعام أو شراب.

وقد صدق ظني فقد مات الرجل في صندوقه لأشعر بوخز في ضميري، فلم تكن نيتي قتله بهذه الطريقة، لكن الخبر الذي شاع يبذر الخوف في قلوب القوات المعادية، خاصة وقد استمرت حركة المقاومة في حصد الرؤوس.

اغتيل جون جون ويليامز رئيس مخابرات القوات البريطانية، وهاجمنا الدبابات البريطانية بالصواريخ في شوارع بورسعيد بتعاون مع مجموعة الصاعقة بقيادة البطل الملازم إبراهيم الرفاعي، كما تمكنّا من مهاجمة مقر كتيبة بريطانية، في مبنى مدرسة الوصفية نهارًا، ومهاجمة الدوريات الراكبة والسائرة لقوات

العدوان بالقنابل اليدوية، وهو ما كبد القوات المهاجمة خسائر كبيرة، تسببت في فضيحة عالمية للدول المهاجمة.

- أين يونس؟! افتحي الراديو يا خالتي.

أخرج من غرفتي صباح ذات يوم بعدما سمعت صوت الجرس يعقبه صياح ضي الملهوف، تهرع أمي لفتح المذياع قبل أن تطلق زغرودة عالية ترددت مثلها من نساء الحي.

- تزغردين يا أمي؟!

أهتف بها بصوت مرتجف وبنبرة هي أقرب للوعة منها للاستنكار، لكن أمي تنظر لصورة أبي المعلقة على الحائط لتقول بين دموعها:

- اليوم فقط يمكننا أخذ العزاء في أبيك، ثاري بردت يا يونس.

أضمها بين ذراعيّ بقوة لتمتزج دموعي بدموعها فيما تراقبنا ضي بملامح تتصارع فوقها ابتسامة نصر بالدموع.

تم وقف إطلاق النار بعد ضغط دولي كبير على الدولتين إنجلترا وفرنسا، ساندتنا فيه الدول العربية التي قامت بنسف أنابيب البترول.

- أُنزِل العلم البريطاني من فوق مبنى قناة السويس، انسحبت القوات الإنجليزية والفرنسية من بورسعيد، تسلمت السلطات المصرية مدينة بورسعيد، عادت لنا القناة.

أكتب آخر مقالاتي بمجلتي الجديدة التي عدت لإصدارها، كانوا قد دمروا مطبعتي لكنني عدت أبنيها من جديد فقد أدركت

قيمة الكلمة.

أتزوج ضي لتنجب لي طفلاً، يونس آخر أصرّت أن تسميه على اسمي، الحياة الأولى التي أشهد لي فيها طفلاً منها، أراقب نموه يومًا بيوم، أعلّمه بنفسي أقداسه الثلاث، الدين، الوطن، الحب.

- شقيقتي وضعت طفلتها، ستسميها ضيّ على اسمي.

تهتف بها لي ذات يوم ضاحكة فأمازحها بقولي:

- عرفت، وعرفت أن يونس ابننا كان أول من حملها، قلبي يخبرني أن التاريخ سيعيد نفسه، قصة حبنا ستعاد طباعتها في إصدار آخر.

- إذن توافق أن ننتقل معها للسويس؟! لأجل خاطري يا يونس، شقيقتي هي كل من تبقى لي من أهلي.

تقولها مكررة رجاءها الذي تلح فيه منذ شهور، وبالتحديد بعد وفاة أمي، فأرمقها بنظرة مترددة لكنني أحسم قراري خاصة وقد عرض عليّ زوج شقيقتها مشاركتي في مطبعة أكبر هناك.

ضحكاتنا تمتزج ليس لهذا اليوم فقط، بل لسنوات تلته.

ثم.. الخامس من يونيو عام ١٩٦٧.

نكستي أنا كانت مزدوجة، فقد ماتت ضيّ ذاك اليوم.

قلبها الثوري الذي طالما توله بحب الوطن لم يحتمل أن يدنس اليهود ترابه.

ماتت ضي، لكن إيماني بعدها لم يمت، نكستي لم تولّد انتكاسة، بل أشعلتني بالقوة، لست وحدي بل كل من معي.

عضم اخواتنا
نلمّه نلمّه
نسنّه نسنّه
ونعمل منّه مدافع، وندافع!
فات الكتير يا بلدنا
ما بقاش إلا القليل،
بينا ياللا بينا
نحرر أراضينا،
نجيب النصر هدية لمصر،
وتحكي الدنيا علينا.

الهتاف ينطلق بصدورنا قبل حناجرنا، يريدون تهجيرنا من الأرض خوفًا علينا لكنني أرفض، أبقى مع قلة قليلة معي، دوري الذي بدأ في المقاومة الشعبية ببورسعيد يجب أن يكتمل هنا في السويس.

لا أريد الحديث عن النكسة، سأختزل رواية ست سنوات في مرارة ستبقى في حلقي ما حييت، ليأتي نصر السادس من أكتوبر كرشفة عسل تعوض بعضًا من علقمه.

لكن هذه لم تكن النهاية.

السويس من وجهة النظر العسكرية لم تكن عرضة لأي خطر بعدما عبر جيشنا القناة واجتاح خط برليف، لهذا لم يتخذوا

أي تدابير عسكرية شاملة لحماية المدينة، كان هذا عندما فوجئنا في يوم الرابع والعشرين من أكتوبر بجحافل العدو المدرعة تقتحم شوارع مدينتنا.

- خائف يا يونس؟!

أسأل طفلي وأنا أحتضنه بقوة فيهز رأسه نفيًا لكنني أعلم أنه كذلك.

الطائرات الاسرائيلية تقوم بغاراتها على شركة النصر للأسمدة فتشتعل الحرائق حولنا، لم يكتفوا بالحصار البري لنا وقطع جميع الطرق المؤدية إلينا ولا بالحصار البحري بقطع الطريق المائي المؤدي للخليج والبحر الأحمر، بل اعتمدوا أسوأ وسائل الحرب النفسية، قطعوا ترعة السويس التي تمدنا بالماء العذب، دمّروا شبكة الضغط العالي التي تحمل لنا التيار الكهربي، قطعوا أسلاك الهاتف التي تربطنا بالعالم الخارجي.

- يظنوننا سنواجههم بالأعلام البيضاء! لا والله! نموت شهداء ولا نحيا جبناء!

أصرخ بها في رفقتي حولي ونحن نسمع وابل الصواريخ يضرب المدينة حولنا، المئات بل الآلاف من الشهداء يسقطون، لا أخاف، لم يعد يعنيني مثلث هيولان، لم أعد أهتم أن أعيش بقدر ما أهتم كيف سأموت.

قوات دفاعنا الشعبية تتكون من منظمتين: إحداهما تدعى منظمة سيناء تكونت بعد النكسة وتلقّى أعضاؤها تدريبًا خاصًا

عن طريق مكتب المخابرات الحربية في السويس، والثانية تدعى فرق حماية الشعب وقد أنشئت تحت إشراف لجنة الدفاع الشعبي للقيام بالدفاع والحراسات وقت الطوارئ، وهذه ما كنت أنتمي إليها.

نجتمع في إحدى المدارس ليسلحونا بالبنادق ويقسمونا لمجموعتين تتناوبان الحراسة.

المعركة تقوم بيننا، قذائفنا تنال من دباباتهم، أسلحتنا خفيفة وقنابلنا يدوية الصنع لكنها تثير الرعب في نفوسهم، يغادرون دباباتهم مذعورين يحاولون الهروب، لكن لعنتنا تحصدهم، المعركة تستمر لصالحنا، وتنتهي بتكبيدهم خسائر فادحة بين قتلى وجرحى، فيضطرون للانسحاب عاجزين عن اقتحام المدينة والاستيلاء عليها.

- هزمناهم يا أبي!

- هزمناهم يا عمي!

الأولى من يونس - ابني - والثانية من ضي الصغيرة، فأفتح لهما ذراعي وقد وقفا يستقبلانني على أول الطريق.

بعض الحروق البسيطة نالتني لكنها لا تساوي شيئًا أمام فرحتي بدوري ها هنا.

- سمعتهم في المذياع يعلنون خسائرهم، وددت لو كانت أمي معنا!

يقولها يونس الصغير فتدمع عيناي وأنا أرفع وجهي للسماء التي شعرت أنها ازدادت ضياء في هذا الوقت من النهار:

- هي معنا، دومًا معًا!

دقات قلبي تتثاقل بهذه الطريقة التي عهدتها فكأنها هي مطرقة النهاية على منصة العدل.

أبتسم بشجن وأنا أملأ عيني من ملامح يونس الصغير.

أسقط على ركبتي ولا زلت أضمه والصغيرة لصدري.

أنفاسي تتلاحق فأقرب وجهه من وجهي كأنني أبثه وصيتي:

- الدين، الوطن، الحب.

تتسع عيناه الصغيرتان بخوف، لكنني أمسك كفه لأشبكه بكف الصغيرة بجواره، أنقل بصري بينهما لأودعه.

- ضم! يونس! عدني أن تكونا دومًا معًا! دومًا معًا!

جفناي ينسدلان رغمًا عني فتمتد أناملي لتقبض على حفنة من التراب تحتي وقد شعرت أنها المرة الأخيرة لي في هذا العالم.

احفظ ملمسه يا يونس، تيمم به لعلك تزيل عنك دنس وزرك القديم، وتستعد لصلاتك الجديدة في عالمك الحقيقي.

المشهد المعهود لجسدي يواريه التراب، الضلع الثالث يتوهج مشعًا فوق صدري، لكن فرحتي الآن يشوبها الكثير من الشجن، ألا ليتني بقيت أطول!

عيد الخلاص

***

دوامة خلف دوامة تدور بي حتى أخرج من فجوة نهر الزمن لأجد جسدي يستقر داخل هرمه شبه الزجاجي من جديد، لكنني لم أكن واقفًا هذه المرة بل جالسًا على ما يشبه عرشًا ماسيًا.

يداي وقدماي لم تعد مقيدة، أضلاعي الثلاث تستقر في حجري بينما أرتدي حلة بيضاء.

رائحة ظيّ حولي تعود لتؤنسني، كيف أزعم أنني اشتقتها وهي لم تفارقني لحظة في رحلتي؟!

- مرحبًا بعودتك مظفرًا أيها المتلاشي.

- افتقدتك أيها الشهاب الأعظم.

أسقيه فكرتي بحنين حقيقي لا أدّعيه وأنا أراه يقترب بحركته المتواثبة مع أصحابه، أفكارهم التي تصلني واضحة تبث داخلي المزيد من الفخر لكنني أشعر ببعض القلق من فشلي في الثلاث حيوات الأولى:

- تأخرت؟!

- قليلاً، لكنك وصلت قبل الموعد.

أبتسم ببعض الدهشة ولا أصدق أنني عشت سبع حيوات

ووصلت قبل انقضاء يومهم هذا.

- فلنبدأ الاحتفال.

فكرته تشعل الحماسة في الأجواء بينما يسير الهرم بي في الطريق الذي حفظت معالمه، اللون الأزرق يتحول رويدًا للأبيض المشع بينما نتوغل أكثر نحو جزيرة المرجان المقدسة، لحن غريب ينبعث من مكان ما فلا يشبه أي عزف عرفته؟! أي آلة هذه؟! لا يبدو كقرع الطبول ولا كعزف الناي، مزيج عجيب متضافر بينهما.

الهرم يصل بي لجزيرتهم المقدسة فأشعر بهذا السائل يغمرني من رأسي إلى قدمي ولا زلت في جلستي الملكية.

- آن الأوان أن نستعيد هبة خلودنا منك أيها المتلاشي، هذه أول طقوس الاحتفال.

أبتسم ببعض الأسف وأنا أحس أنني أودع عزيزًا، أشعر بالجفاف أخيرًا فأرفع عيني نحوه لأرى قرصه الشفاف يتحول لأرق درجات الأزرق، قبل أن يمتد أحد مجساته ليضرب هرمي ضربة خفيفة، ولم يكد يفعلها حتى لحقه كل من في المملكة بنفس الحركة الغريبة وكأنهم يؤدون طقسًا ما.

ولم يكد ينتهي آخرهم بعد وقت مر عليّ كدقائق - رغم كثرة عددهم - حتى شعرت بفتحة الهرم فوقي تُفتَح ببطء شديد.

أشعر ببعض الذعر من تدفق الماء لداخل الهرم لكن...

- صرتَ منّا، مياه هيولان لا تُغرق أهلها.

عرشي يرتفع بي تزامنًا مع انفراج فوهة الهرم شيئًا فشيئًا، فتتسع عيناي بانبهار وأنا أراني وقد انتهى بي المقام جالسًا أمام

جزيرتهم المقدسة.

- انظر لما جنته يدك.

ينعقد حاجباي بدهشة وأنا أرى مثلث جزيرتهم يتحول لشاشة عرض كما رأيتها من قبل، إنها «البانوراما» هذه المرة كانت تخصني أنا.

أبتسم ببعض الخزي وأنا أشهد حيواتي الثلاث الأُوَل التي فشلت فيها، خزي يتحول لبعض الاعتزاز وأنا أراقب حياتي الرابعة، اعتزاز يتعاظم في كل حياة تلتها حتى يصل للسابعة.

- سد الثغرة أيها المتلاشي، مثلث الأقداس في يدك.

فكرة شهاب الأعظم تجعلني أنتبه لعودة المثلث لحاله بهذه الفجوة داخله، فينتفض قلبي برهبة وأنا أرفع الأضلاع الثلاثة لأضعها مكانها واحدًا واحدًا.

اللحن الغريب حولنا يعلو صوته تدريجيًا حتى يلهب حماستنا، مثلث الأقداس يلتصق أخيرًا فيتوهج بضوء ماسي أخاذ يكاد يغشي بصري.

أراهم جميعًا يتحلقون حولي بعددهم الهائل، تتشابك مجساتهم في تجاورهم فيصنعون دائرة كبيرة حولي، دائرة تتسع ثم تضيق مرة بعد مرة فيما بدا كرقصة احتفال.

- الطقس الأخير، ولادة نجم هيولان.

فكرة شهاب تدوي في رأسي فتنحل الدائرة حولي لأجدني أسبح معهم، نرتفع، نرتفع، نرتفع، فلا أدري أين سنصل.

رأسي يرتفع أخيرًا فوق سطح الماء فأطلق شهقة هائلة وأنا

أشعر بغرابة التنفس.

- أغمض عينيك أيها المتلاشي، لن ترى نجم هيولان مفتوح العينين.

أرفع رأسي للسماء وقد أغمضت عيني كما أمرني فيخفق قلبي بجنون، أنا أراه، حقًّا أراه.

يلتمع بوهج لم أره في حياتي من قبل، فيبدو كماسة مشعة وسط عتمة السماء.

- هاهو ذا نجمكم، بورك عامكم.

فكرة شهاب تسطع داخلي فأبتسم ولا زلت مغمض العينين، لكنني أفتحهما أخيرًا لأدور ببصري في المشهد المهيب حولي.

سطح الماء كله قد تكدس بزحام من أقراصهم المشعة التي ازداد توهجها حد الإبهار وسط ظلمة الليل حولنا.

ضحكاتهم تدوي داخلي فأشعر بالفخر لأنني كنت سببها.

- ميقات العودة.

النداء يدوي حولي فأشعر بجسدي يهبط من جديد، أحرك ذراعي حولي بسلاسة أتعجبها، فلا أذكر أنني كنت يومًا أجيد السباحة، لكن، ألم يقلها الشهاب الأعظم؟! أنا صرت شهابًا مثلهم.

يستقر بي المقام فوق عرشي داخل الهرم من جديد، فأرفع رأسي لأجد فوهته تغلق فوقي.

- أنت أيضًا حان وقت عودتك لعالمك أيها المتلاشي.

- وددت لو عشت المزيد من الحيوات، لو استمرت بي الرحلة أكثر!

- بطولاتك لم تنتهِ، لا تزال تملك الكثير في حياتك الحقيقية.
أهز رأسي بتشتت وقد بدت لي حياتي هنا هي الأصل بينما حياتي الحقيقية تبدو لي كحلم بعيد.
- عساك تعلمت شيئًا منا.
- الإيمان!
قرصه الشفاف يتوهج بزرقة الرضا عن جوابي فأبتسم وأنا أرفع معصمي حيث بقعتي البيضاء:
- لا تمحها، دعها لي تذكارًا منكم.
- لك هذا.
- هل.. سأراكم من جديد؟!
- من يدري؟! ربما!
يسقيني فكرته الغامضة فتتسع ابتسامتي وأنا أود لو كان يجوز لي أن أمنحه عناقًا، أدور ببصري حولنا للشهابيين فتصلني أفكارهم مفعمة بالود.
- وداعًا أيها المتلاشي! عد لعالمك.
اللحن الغريب حولنا يختفي فجأة فأشعر بالصمم، ضوء ساطع يغشي عيني فيجبرني على إغلاقهما، صداعٌ عنيف يكتنف رأسي وأنا أشعر بجسدي يقتحم حلقة خلف حلقة.
دوار، دوار!
صوت صفير غريب يخدش أذني فأنتفض مكاني للحظة، قبل أن أشعر بجسدي يسكن أخيرًا، وينتهي كل شيء.

ضي

***

عامٌ طويل مر عليّ بعد وفاة يونس.

يقولون إن البعيد عن العين بعيد عن القلب، لكنه لا يزال ملء العين وملء القلب بل ملء الروح.

صدمة فقده بعد يافا كانت أكبر من احتمالي، لكن ما خففها عليّ أنه مات قبل أن يلطخه المزيد من وحل الخيانة.

دياب أخبرني بالحقيقة كاملة، أخبرني عن طبيعة عمله وكيف أنقذ يونس من مجدي، مجدي الذي لا يزال حبيسًا على ذمة القضية التي يتولاها دياب كي يحاسب على جرائمه.. والتي يبلي فيها محامي مجدي بلاءً حسنًا محاولًا تخفيف العقوبة عنه.

لن أنسى تلك الأيام الطويلة التي قضيتها جوار يونس في المشفى في غيبوبته بعد الحادث، كانوا يزعمون أنه يشعر بي، أنه يتحسن، أنه سيفيق في أي لحظة، لأفاجأ بخبر موته يأتيني كطعنة غادرة.

ورغم أنه رحل بعدما طلقني، لكنني كنت أتفهم لماذا فعلها، خوفه عليّ غلب رغبة تملكه لي.

طلقني! بعد كل هذا الوقت لا زلت أزعم أن الكلمة غريبة على أذني، من أين أتوا بهذا الوصف الذي تحمله الكلمة من حرية إذا كنت أشعر بعدها أنني صرت في سجن كبير؟!

وددت لو رحل ولا زلت على ذمته، لكن منذ متى تثبت هذا مجرد أوراق؟!

دقات قلبي المرهونة باسمه، نبض روحي التي التقت فيه توأمها، عقارب ساعتي التي توقفت بعده، كل هذا لا يزال يشهد أنني على ذمته، حيًا كان أو ميتًا.

لقد حاولت نسيانه، صدقًا حاولت، تذرعت بكل سبب يمكن أن يبذر كراهيته في روحي، لكنني عجزت! يونس لم يكن فاسدًا، هو كان ضالاً، وشتان بينهما شتان.

آه! أتحسس قلادة صدري التي صارت تحوي صورته مع أبي، فأشعر ببعض من وخز ضميري، كيف أساوي من مات شهيد الوطن ومن مات خائنه؟! لكنني أدافع بكل ما أوتيت من حب، دياب أخبرني أن «الملاعين» موّلوا له أبحاثه الأولى عادية الطبيعة فحسب، لكن بحثه الأخير الأخطر كان لا يزال قيد الاختبار، يونس لم يبعه لهم، هو فقط كان ينتوي، لكن.. أوليست الأعمال بالنيات؟! أنا سمعته بأذني يصرّح برغبته في السفر إليهم لولا أنه قد...

اكرهيه يا ضي! اكرهيه! رفقًا بنفسكِ افعلي! لعلكِ تكملين حياتك بعده.

- شاردة كالعادة!

أشهق شهقة عالية وأنا ألتفت نحو مديري في العمل، كالعادة تربكني نظراته التي يناقض ودّها هذه الخشونة الغريبة في صوته:

- الحقي بي إلى مكتبي.

يرمقني زملائي في المعمل بنظرات مشفقة اعتدتها منذ تسلمت هذا العمل، فأطرق برأسي وأنا أسير خلف الرجل إلى مكتبه، هل سيطردني؟! ليست سابقتي الأولى في ضبطي غافلة عن عملي متلبسة بشرودي، ماذا لو فعلها؟ وظيفتي هنا في شركة الأدوية هذه تعتبر معجزة لا أظنني كنت سأحصل عليها لولا مساعدة دياب، لو تنازل الرجل عن خدماتي فلن يمكنني مطالبة دياب بالبحث عن عمل آخر.

- اجلسي.

يقولها الرجل بنبرة أرق فأجلس أمام مكتبه مشبكة كفيّ في حجري لأغمغم بارتباك:

- أنا آسفة، أعرف أنني مقصرة كثيرًا في عملي هنا، لكن...

لا أملك القدرة لأسرد أعذاري مع هذه الغصة التي استحكمت حلقي، ولا حتى لرفع عيني نحوه، لكنه يزفر ليقول بصوته الغريب الذي يحمل بحّة مميزة:

- أعرف أنكِ مررتِ بظروف عصيبة خاصةً لامرأة في

سنك، لكن ألم يئن الوقت بعد لتستعيدي تماسكك؟!

خيطٌ من الدموع يخونني فأمسحه بسرعة خشية أن يراه ليردف:

- أنا لا أتحدث بحكم كوني مديرك فحسب، ولا يعنيني العمل بقدر ما تعنينني أنتِ.

كلماته تدق ناقوسٍ خطر بروحي كعهدي كلما تحدث إليّ، منذ تسلمت عملي هنا وأنا أشعر بنظرات إعجاب في عينيه تطوقني، لا.. لم تكن قميئة مهينة كنظرات خطّاب، بل دافئة واعدة كتلك التي كان يحملها لي يونس، ربما لهذا تصاعدت دقات قلبي مع استطراده:

- لا تتعجبي، أنا أعرف كل شيء عنكِ، وأعرف أنكِ أقوى كثيرًا مما تبدين عليه.

أخيرًا أجد بعض الجرأة لأرفع إليه عينيّ، فلم تبدُ لي كلماته متحرشة بقدر ما بدت داعمة، ورغمًا عني أجدني أقارن ملامحه بيونس.

لحيته المهذبة تفضح تدينًا لا أظنه يدّعيه، الشركة كلها تتحدث عن التزامه وتقواه وعن هذه الأعمال الخيرية التي يرعاها، ملامحه وسيمة مريحة على عكس ملامح يونس التي كانت تحمل شيئًا من الشراسة، شعره ناعم يناقض شعر يونس المجعد، ابتسامته تبدو راضية مقابل «شبه ابتسامة» يونس التي كانت دومًا منغمسة بالتوتر، أناقته بسيطة تناقض تكلّف يونس المبالغ فيه.

ربما يشبهه في هاتين العينين السوداوين، كلاهما يحمل «مرآة روح مشروخة» لا يمكنني تبين صورها.

لكن مالي وشكله؟! فليسامحني فحسب على تقصيري وليتركني أذهب لحالي أو ليطردني وليدعني لخيباتي.

هنا أجدني أتحسس قلادة صدري بقوة كأنني أستغفر يونس من نظرة منحتها لغيره.

- ألا يعجبكِ عملكِ هنا؟

يسألني باهتمام لأبتسم بمرارة تناسب جوابي:

- على العكس، يعجبني لأنه يذكرني بزوجي.

أقولها صادقة بشجن وأنا أتذكر كم كان يونس يرغب في مشاركتي إياه أبحاثه، ليرد هو بنبرة ضائقة:

- الراحل.

هنا كان دوري لأرمقه هو بنظرة ضائقة، بينما يردف باستنكار:

- ما علاقة شركة الأدوية خاصتنا به؟! أعرف أنه كان عالم بحريات، ويزعمون أنه كان عبقريًا في مجاله.

- ليس زعمًا، بل حقيقة.

يطيل النظر إليّ بعد عبارتي المنفعلة فأشعر برجفة جسدي وأنا أتعجب هذا الضيق الغامر على وجهه، ليسألني أخيرًا:

- اعذريني لو بدا سؤالي شديد الخصوصية، أنا أعلم أنه قد

طلقكِ قبل الحادث الذي أودى بحياته، فلماذا لا تزالين متأثرة هكذا بعد كل هذا الوقت؟

ورغم طبيعتي الخانعة لكن سؤاله يستفزني ويجعلني أنتفض مكاني لأهتف بنبرة عصبية غريبة عليّ:

- يمكنك توبيخي على شرودي في عملي بل وفصلي منه كذلك، لكن لا حق لك في التدخل في شئوني الخاصة.

يزداد الضيق على ملامحه فأوقن أن قرار طردي آتٍ لا محالة، لكنه يفاجئني بقوله:

- ربما لسؤالي هذا ما يبرره.

أرمقه بنظرة متسائلة متوجسة وأنا أكذّب كل الإشارات التي يحملها لي حدسي الأنثوي والذي كان - للأسف- صادقًا، فها هو ذا يصرح بها:

- أنا أرغب في الزواج منكِ.

***

- لا! لا! لا!

لا أدري كم قلتها له في وجهه، كم مرة صرخت بها داخلي، كم مرة أوقفت بها انهيار دموعي وأنا أجمع حاجياتي من مكتبي موقنةً أنه يومي الأخير هنا.

أغادر مبنى الشركة وقد شوشت دموعي المرئيات حولي، لم يكن عرض الزواج الأول الذي أتلقاه منذ وفاة يونس ممن

يطمعون في أرملة جميلة صغيرة وحيدة، لكنني سأعترف لنفسي أنه الأفضل.

هل هذا سبب انهياري هذا؟ إن الرجل حقيقةً هو صورة من كل ما تمناه عقلي في رجل أحلامي، نفس الصورة التي كانت تناقض يونس، أخلاقه التي يحكون عنها ورأيت منها جانبًا في معاملته إياي، التزامه الديني الواضح وعطاؤه الخيري الذي يحكون عنه، مركزه المرموق وتفوقه في عمله، طبيعته الهادئة الحليمة التي تمزج ودها بحزمها، ومع كل هذا أرفضه! أرفضه وأشعر بالغضب منه لأنه فكر في ما ليس له، لأنني لا زلت أعشق يونس، النسخة المضادة، أجل، أعشق يونس بكل إخلاص وبكل غباء.

يونس! أحتاج الآن لأي مكان يحمل رائحته، بيته؟! بأي صفة أذهب؟ الجامعة؟ نعم، لن يمنعني أحد من الذهاب إلى هناك، يمكنني أن أستقل سيارة أجرة لكنني أجدني أركب الحافلة العامة وكأنني أستعيد الأيام الخوالي.

(بيعز عليّ أغني يا حبيبي،

ولأول مرة ما بنكون سوا).

دموعي تعاود جريانها على وجهي وأنا أستعيد كلمات غنوتنا، أقسى الناس أثرًا من يهجرون الجسد ويستوطنون الروح وأنت كنت قاسيًا جدًا.. جدًا يا يونس!

قدماي تحملانني لمكتبك الذي لم يعد لك، شغله آخر يكبرك سنًا بكثير، فأشعر وكأنهم اغتصبوا مني وطني من جديد، كل ما يخصك كان يومًا وطني يا يونس.

أدور بعيني حولي لأستعيد ذكرياتنا فتبدو لي الوجوه غريبة، الجدران غريبة، الأعمدة غريبة، كأنها إشارة أخرى من القدَر أنك ما عدت لي وطني كما أزعم.

الآن صرت وحدي تمامًا خاصة بعد زواج حبيبة وسفرها مع زوجها، لتسقط آخر ورقة في شجرة أحبائي.

أغادر محمّلةً بخيباتي لتحملني خطواتي نحو بيت يافا القديم الذي هدموه، كأنها يتقصني جلد الذات هذا.

أقف أمام البناية الحديثة التي أقاموها مكانه فأشعر بغصة حلقي تمرر روحي كلها، افتقدتك يا يافا، افتقدتك حتى وأنا أعيش بنفس طقوسك التي علمتني إياها، لا زلت أعيش بكِ يا يافا فمثلكِ لا يموت، أبدًا لا يموت.

- ضيّ! ما كل هذه الغيبة؟! كيف حالكِ يا غالية؟

صوت المعلم عطوة يأتيني كنسمة باردة وسط كل هذا القيظ فألتفت نحوه بابتسامة حقيقية.

- أحلى عصير لـ«ست البنات» يا ولد، بسرعة.

- لا داعي يا عمي.

- معك حق، العصير والغداء عندي في البيت، زوجتي ستطير فرحًا عندما تراكِ.

يهتف بها بترحاب فيلتف حولي رجال الحي الطيبون، مشاعرهم الصادقة ترمم بعضًا من شروخ قلبي، لكنني أشعر أنني بحاجة للمزيد من الهروب من هذا المكان بكل ذكرياته.

- دعها ليوم آخر يا عمي، أنا اليوم متعجلة.

- أخبريني عن أحوالك، كيف أنتِ في عملك الجديد؟

يسألني بإشفاق حنون فيردني سؤاله لما حدث منذ قليل لكنني أرد باقتضاب:

- الحمد لله.

يكرر دعوته لي من جديد إلى بيته لكنه يبدو وكأنه قد تذكر شيئًا جعل عينيه تلتمعان بقلق غامض لم أفهمه، أرفض دعوته بتهذيب فيدور برأسه حوله قبل أن يترجل بحانوته المعهود:

- انتبهي لحالك يا ابنتي، ولو احتجتِ شيئًا «رقبتي سدادة».

أضحك بتكلف، وأنا أشعر بنفس القلق الغامض على ملامحه لكنني أتخطى شعوري هذا مكتفية بعاصفة الحب التي اجتاحتني من أهل الحي حتى غادرته.

أصل أخيرًا لبيتي الذي كنت قد اخترته قريبًا من مكان عملي، عملي الذي فقدته لتوي ولا أدري ماذا سأصنع.

الوجع يسكن كل شبر فيّ، بداية من قدمي اللتين أرهقهما السير مرورًا بقلبي الذي أدماه الفقد، وانتهاء برأسي الذي يكاد يفلقه الصداع.

رنين جرس الباب يزيد الطين بلة، لا ريب أنه صاحب البيت يريد الإيجار، إنه موعده، كيف سأدفعه الشهر القادم؟ وهل سأكون هنا؟

أبتلع هواجسي المريرة وأنا أنهض لأفتح الباب فيفاجئني الوجه البغيض الذي كدت أنساه:

– خطّاب!

***

– ضربته، أنا ضربته يا يونس، لم أعد ضعيفة كما كنت تدعوني في الماضي.

أهتف بها بسعادة وأنا أراه يفتح لي ذراعيه، يقبّل رأسي قبل أن يغمرني في كتفه، يعتذر لي عن رحيله، عن طول خذلانه، يقسم لي إنه يحبني، أنه لم ولن يعشق امرأة سواي.

– دع لي نصيبي من العناق يا ولد.

تهتف بها يافا خلفه فأضحك وأنا أتوجه نحوها لأعانقها بقوة، افتقدت رائحتها هذه.

– أبي!

أصرخ بها بفرحة وأنا أراه يتقدم نحونا ليغمرني عناقه، ها هي ذي أمي كذلك، نضال وعائلته، كلهم حولي، كلهم جاءوا إليّ، أم تراني أنا من ذهبت إليهم؟

- ضي.. أفيقي.

الصوت الغريب يقتحم جنتي هذه فأقاوم سماعه لكنهم يرحلون تباعًا ليتركوني ويتبقى يونس.

- إذًا ابقَ أنت معي يا يونس.

- ضيّ! أخبريني فقط أنك تسمعينني.

الصوت الغريب يقتحمني من جديد فتتشوش الصورة ويتلاشى يونس.

أفتح عيني لأصطدم بالجدران البيضاء فأعاود إغلاقهما بسرعة، لكن يونس كان قد اختفى تمامًا.

- لا، لا، عد يا يونس، بالله لا تكن حلمًا، عد، عد.

- اهدئي يا ضي، هل أستدعي الطبيب؟

أستسلم لدموعي خلف عينيّ المغمضتين للحظات كأنما أرجو أن أعود لجنة حلمي، ولما يئست عدت لأفتحهما كي أرى الوجه المألوف أمامي والذي ظننتني لن أراه بعد ما فعلته معه في الشركة:

- ماذا حدث؟ أين أنا؟!

أقولها بتشوش وأنا أحاول التذكر، آخر ما أعيه هو وجه خطاب البغيض يواجهني بعدما فتحت له باب الشقة الذي أغلقه هو خلفنا بعدما دفعني، نظراته التي ازدادت وحشية وهو يخبرني أنه كان ينتظر أي خبر عني كي ينتقم لسجنه بسببي،

أنه تتبعني بعد زيارتي لحيّنا القديم إلى هنا، وأنه سيصفي معي حساباته كاملة.

كفه الضخم يكمم شفتي وهو يلصقني بالحائط القريب، قلبي الذي تقافزت خفقاته يلهج بالدعاء لله أن يجيرني منه، قطرات العرق الغزير تبلل جبيني وأنفاسي تتلاحق كعهدها فأتمنى أن تتوقف تمامًا قبل أن تدنسني يده، أتذكر يونس فتجتاحني قوة لا أدري مصدرها، أدفعه لأحرر صرختي، أصفعه، لكنه يرد لي صفعتي، يخبط رأسي بعنف في الحائط، الدوار اللعين يصيب مني، فلا أذكر ما حدث بعدها.. بل أذكر، يونس عاد، عاد واقتحم البيت، أوسعه ضربه وحررني منه، ضمني إليه ثم حملني ليعدو بي مبتعدًا، هل كان حلمًا هو الآخر؟

- لا تبكي.. أرجوكِ.

صوته المميز يرتجف الآن بانفعال خانق بين غضب ورجاء وهو يمد أنامله نحوي كأنما يهم بمسح دموعي لكنه يقبض كفه فجأة جواره، فأتمالك مشاعري لأسأله:

- أنت أتيت بي إلى هنا؟ كيف عرفت بما حدث؟

عروق جبهته النافرة تكاد تقفز من مكانها ولغة جسده تبدو لي أكثر حرارة من كلماته:

- لا يهم! لا تفكري كثيرًا، المهم أنك بخير الآن، دومًا، دومًا ستكونين بخير، الله لطيف بعباده، إن الله يدافع عن الذين

آمنوا، سيجعل الله بعد عسر يسرًا.

تتسع عيناي ببعض الدهشة وأنا أعود رغمًا عني لمقارنته بيونس، كلماته المنطلقة بحرية تناقض اقتضاب يونس المعهود، خاصة بغلالة الإيمان التي تلفها هذه.

لماذا أقارنه دومًا بيونس؟ لماذا أشعر أنني عشت معه هو موقفًا كهذا من قبل؟ رباه! عيناه! عيناه تحملان نظرة عاشق لا يمكن أن أخطئ تأويلها، نظرة رأيتها من قبل في عيني يونس، إنما مقيدة مختنقة مكتومة، لكن هذه حرة طليقة صارخة.

ما هذا الهراء الذي أهذي به؟!

- ماذا فعل بي؟

أسأله بخزي وقد عدت لأغمض عيني هربًا من نفسي ومن نظراته ليرد بغضبه المكتوم:

- لم يفعل شيئًا أكثر مما رأيتِه، أنا شعرت بالقلق عليكِ عندما غادرتِ الشركة في ذلك الحال، السيد دياب كان قد منحني معلومات كاملة عنكِ، لهذا لم أجد حلاً سوى زيارتك في بيتك وقد أغلقتِ هاتفك، سمعت صوت صرختك فقرعت الجرس ثم اقتحمت البيت، أنا انشغلت بكِ والجبان هرب.

- كنت أنت؟!

الخيبة التي تفيض بين حروفي - وأنا أستعيد ما ظننته حلمًا- تجعله يسألني بنفس الغضب المكتوم:

- ظننتني يونس؟!

سيل دموعي الصامت يمنحه جوابي فيزفر بقوة ثم يتراجع في مقعده أمام فراشي ليعاود قوله بنبرة أرق:

- سمعتكِ تحدثينه في هذيانك!

- طالما كان يلومني على ضعفي في الماضي، كان يقول لي كوني قوية بي أو بدوني، لهذا وددت لو كان معي اليوم لأخبره عما فعلته بخطاب، لأحكي له أنني لم أخف، أنني صفعته، أنني حقًا صرت أقوى.

غصة حلقي تمنعني المزيد فأشيح بوجهي ليسودنا صمت قصير قبل أن أتحسس معصمي فجأة لأهتف بهلع:

- ساعة أبي!

يرمقني بنظرة دافئة وهو يستخرجها من جيبه قائلاً بنبرة ذات مغزى:

- إنها سليمة، معي.

يقولها وهو يمد أنامله بها ليضعها برفق في موضعها فوق ذراعي دون أن يمسه تاركًا لي حرية ارتدائها، فأشعر بضيق خفي من حركته هذه التي بدت لي حميمية مع ما تمثله هذه الساعة لي.

صمتٌ مشحونٌ يظللنا من جديد وتقطعه كلمته التي بدت لي غريبة في موقفنا هذا:

- تزوجيني.

أكاد أصرخ بالرفض القاطع لكنّ رجاءه الحار يسكب الوجع في شراييني:

- أقسم لك بالله العظيم أنني لن أتعجلك ما لا تريدين منحه، أبقني بعيدًا غريبًا فيما بيننا كما تريدين، فقط امنحيني صفة أحميك بها من ذاك الوغد كي لا يعود ويؤذيكِ، أرجوكِ يا ضي، أرجوكِ!

- لن أتزوج رجلا وقلبي معلق بآخر.

- الآخر قد رحل.

- بعضهم لا يرحل أبدًا، يبقى أثره في القلب نقشًا لا يطمسه النسيان.

الصمت المشحون يظللنا من جديد فأعاود اختلاس نظرة نحو جانب وجهه لتروعني ملامحه التي امتزج فيها الغضب بالعجز:

- لن تبقي هنا للأبد، ولن أسمح لكِ أن تعودي لشقتكِ ما دام ذاك الوغد حرًا.

- سأجد مكانًا آخر أبيت فيه.

- وما يدريكِ أنه لا يراقبك الآن ينتظر الفرصة ليستغل وحدتك من جديد؟

يهتف بها بنفاد صبر فتعاود دموعي جريانها ليردف هو بإلحاح أكبر:

- اطلبي كل ضماناتك، اعتبريني مجرد حارس شخصي لكِ، لن أسامح نفسي لو أصابكِ مكروه، أرجوكِ.

شعورٌ غريبٌ ينتابني وعيناه تسحبانني لهذه الدوامة من جديد، إلحاحه كان ليصيبني بالتوتر في موقف آخر لكنني الآن أشعر بالغرابة، لماذا يتشبث بالبقاء جواري إلى هذا الحد؟! حب؟! بهذه السرعة؟! وهل يفعل الحب بالمرء هذا؟ عجبًا يا ضي! أنتِ التي تسألين؟!

أناملي تمتد دون وعي لقلادة عنقي فأكاد أهتف برفض قاطع لكنني أتردد، هل هو خوفي من عودة خطاب ليفترسني وحدي؟ أم أن الأمر يتعلق بهذا الرجل الذي لا أنكر ارتياحي نحوه؟ ارتياح لا يجعلني أشعر أنني أخون يونس.

لا أفهم نفسي، لأول مرة أشعر أنني لا أفهم نفسي.

- وافقي وأعدكِ ألا تندمي أبدًا.

رجاؤه الحاني يمسني وعيناه معلقتان بأناملي على قلادة عنقي، أوافق؟ أتزوجه؟ أتزوج رجلاً غير يونس؟

- لي شرط.

أهمس بها بوجل فيهتف دون تفكير:

- أعرفه وأوافق دون تحفظ.

أرفع إليه عيني وأنا أشعر أنني لا زلت أحلم، أي رجلٍ هذا الذي يريد الزواج مني وهو يعرف أنني أحب غيره فقط

ليحميني؟! هل عاد زمن الفرسان؟! ما يدريني أنه لن يخلع قناع لطفه هذا عندما يتملكني بعقد رسمي؟ والجواب يمنحه لي حدسي الذي طالما وثقت به، يافا كانت تخبرني دومًا أن حدسي لا يخطئ، يونس كان يسخر مني في البداية عندما كنت أخبره عن هذا لكنه عندما عايشني بنفسه قالها لي يومًا «أغبطكِ على قلبٍ كهذا يبصر قبل عينيك».

يختلج صدري من جديد للذكرى وأنا أدور بعيني في المكان حولي، أين أذهب؟ ولمن؟ فأحسم أمري أخيرًا لأهمس مستسلمة:

- إذًا أنا أيضًا أوافق يا سيد «شهاب».

***

- ادخلي، لا تخافي.

يهمس لي شهاب أمام باب بيته الذي سيضمنا لأول مرة فيرتجف جسدي برهبة الإدراك، كيف فعلتها؟! كيف وافقت على هذه الزيجة؟! كيف ائتمنته بهذه السرعة؟!

- لا تخافي.

يكررها للمرة التي لا أدري عددها منذ خرج معي من المشفى، بهذه اللهجة التي تسطع فيها عاطفته كألف شمس، هذه التي طالما تمنيتها من شخص واحد، يونس.

أتحسس قلادتي بقوة كأنها ألتمس منها دعمًا ثم ألج للداخل فيغلق الباب خلفنا لأنتفض مكاني وأنا أنظر إليه بوجل، أستعيد

كل ما أعرفه عن هذا الرجل الذي صار زوجي، وللأمانة لا أستبصر إلا خيرًا، دياب بارك زواجنا منذ قليل بترحاب، بل إنه كان شاهدًا على العقد، وقد قالها لي صريحة عندما اختلى بي أنه رغم ملابسات هذه الزيجة لكنه يتمنى لو أمنح شهاب فرصة، وقد آن الأوان أن أغلق صفحة يونس للأبد، وليت الأمر بهذه السهولة التي يدّعيها.

أنظر للبيت حولي ورغمًا عني أقارنه ببيت يونس، بداية من موقعه في هذا الحي العتيق الأثري من القاهرة على عكس قلعة يونس المنعزلة، مرورًا ببساطته الحميمية الأنيقة على عكس فخامة الآخر المقبضة نوعًا ما، وانتهاء بكونه بلا حراس، بل هذا الركن القصيّ فيه والذي يبدو وكأنه قد أعدّ ليكون مكانًا للصلاة ببساطه الأنيق، هذا الحاجز الخشبي المفرّغ الذي يفصله عن بقية الشقة، حامل المصحف الذي يستقر في زاويته، وهذه الرائحة لبخور عطري تنبعث من فواحة جانبية تزينه.

الرائحة التي تتغلغل داخل خلاياي فتهدهدني بمزيج من سكينة وشجن.

- اذهبي وتوضئي، أريد أن نبدأ حياتنا هنا بالصلاة.

الدهشة تجتاح ملامحي لأرمقه بنظرة مصدومة، ليست فقط هذه الثقة التي يتحدث بها عن «حياتنا» هنا، لكنه المعنى الخفي بالأمان الذي منحته لي كلماته، ابتسامته بقيت معلقة بعيني مع

هذه النظرة الغريبة في عينيه والتي تذكرني بتوأمها في عيني يونس، هذا الذي حاولت تجاهله وأنا أغادره بخطوات مرتجفة نحو الحمام القريب لأتوضأ، أختلس نظرة نحو المرآة أمامي فيروعني منظر هذه الكدمة البشعة جوار فكي، خوفي من خطاب يعاودني فأشعر بالمزيد من الامتنان لقراري بهذه الزيجة، الآن على الأقل.

أعود إليه لأجد ملامحه بأروع ما رأيتها يومًا، هذه الابتسامة على شفتيه تحكي وكأنه قد ملك الدنيا وما فيها، أنا جربت الحب يومًا وأزعم أنني أفهم ما تعنيه ابتسامة كهذه، فهل أتيه فخرًا أم أبكي ذنبًا وأنا العاجزة عن منحه ما يتوق إليه؟!

أقف خلفه ليؤمني في الصلاة، يطيل تلاوته بهذا الصوت الشجي الذي يجد مكانه في قلبي، كل خوفي يتبعثر، يتلاشى كأن لم يكن، ويستحيل لطاقة من نور تكاد تشرق بين ضلوعي، اهدئي يا ضي، هذا الرجل لن يؤذيكِ، بل خافي عليه أن تفعلي أنتِ.

يسلم من صلاته فيلتفت نحوي، هنا تنهار كل مقاومتي لأجهش فجأة في بكاء صامت، هل هو شعوري بالصدمة؟! بالوحدة؟! بالخوف؟! بالذنب؟! أو ربما لأنني تمنيت موقفًا كهذا بالضبط ليلة زفافي إلى يونس.

كفه يمتد ليحتضن كفي، لكنني أنتزعه منه ببعض العنف، فيرفع راحته في وجهي معتذرًا مطمئنًا ثم يعتدل في جلسته ليصير قبالتي تمامًا:

- تذكرتِ يونس؟!

يهمس بها بمزيج من تعاطف وضيق فأرد منكسة الرأس:

- لا أنساه كي أذكره.

لا أكاد أتفوه بها حتى أشعر بالذنب في وضعي الجديد فأعاهد نفسي ألا أعيد ذكر يونس بيننا لولا أن يقول هو بنبرة غريبة:

- حدثيني عن رجل جعلكِ تحبينه إلى هذا الحد حتى بعد موته، هل كان مثاليًا إلى هذه الدرجة؟

أطبق شفتي كاتمة مرارة سخريتي، فيمد أنامله بحرص ليتفحص قلادتي بصورتيها.

- يشبه والدك كثيرًا، لهذا أحببته؟

أشعر بالارتباك وأنا أرى كفه يحتضن قلادتي فأبتعد بظهري لأجبره أن يحررها من يده لكنه يهمس بحذر:

- لا تريدين الحديث عنه؟

- ليس أحب إليّ من الحديث عنه، أنا فقط أراعي وضعنا الجديد.

- أنا الذي أطلب منك، كلميني عنه يا ضي، لعلكِ حين تخرجينه إلى لسانكِ تلفظينه من قلبك.

فأهز رأسي لأصمت قليلاً بيأس ثم أغمض عيني هامسة:

- المرء لا يختار وطنه والقلوب لا تنتقي ساكنيها، لكننا نؤمن بكليهما معًا مهما تعذبنا بهما، طالما كنت أخبره أنني مؤمنة

به كإيماني بوطني وديني، ربما لم يكن قديسًا، لم يكن ملاكًا، لكنه كان هو، هو بكل عيوبه التي تفهمتها قبل ميزاته، ربما لو كنت حاسبته بعقلي لرجمته أنا بيدي حتى الموت، لكن حدسًا بداخلي كان يرى دومًا فيه ضيًّا يشبه اسمي، ضيًا يجاهد للتسرب عبر شقوق جدرانه المظلمة، وددت لو عاش أطوّل، لو وجد جنته التي عاش محرومًا منها، لو تذوق السكينة التي ظل يبحث عنها، لو عرف لذة الإيمان لعلها كانت تنسيه مرارةً شوهت روحه.

الصمت يسودنا لدقائق طويلة بعدها وكأنه يترك لي مساحتي الخاصة مع ذكرياتي وقد عجزت عن مواجهته بعينيّ، لكنه يتنهد أخيرًا لينهض:

- كفاكِ ما كان اليوم، اذهبي لغرفتك واستريحي.

غرفتي؟! الكلمة تبدو غريبة على مسامعي، وأي شيء ليس بالغريب ها هنا؟! أسير خلفه نحو الغرفة المنشودة التي فتحها لي.

غرفة بسيطة أنيقة تشبه ذوقي، لكن، ما هذا؟!

- صورتي! كيف حصلت عليها؟!

أسأله مصدومة وأنا أجد صورتي مؤطرة على أحد الجدران، مرسومة بخط اليد باللونين الأبيض والأسود فحسب، فيبدو لي وجهي مضيئًا كالقمر وسط ليل أسود، هو رسمها؟!

أرمقه بنظرة متسائلة فيبتسم لي ابتسامة تليق بجوابه:

- لم أكن لأعرض عليكِ الزواج متقبلاً كل شروطك إلا وأنا أهيم بكِ حبًا.

تتخضب وجنتاي بحمرة خجلي وانفعالي، منذ تسلمت عملي في شركته وأنا أشعر بنظرات إعجابه لكنني لم أتصور أن تصل عاطفته إلى هذا الحد.

أدفن وجهي بين كفيّ هربًا من طوفان المشاعر الذي يجتاحني هذا بين دهشة وخوف وذنب، فيصلني صوته ببحته المميزة:

- لا تفكري كثيرًا، نامي الآن ولا تخافي.

أزيح كفي عن عيني ببطء لأختلس نظرة وحيدة نحو عينيه، لو كنت أملك الجرأة لأخبرته أنني لا أريد أن أحيد بنظري عنهما فقط لأنهما تشبهان عيني يونس.

الوزر يثقل كتفي فأنكس رأسي من حديد بخزي لأشعر به يبتعد مع عبارته التي أظنه يتعمدها كي تبث الأمان دافئًا في عروقي:

- لا تخافي!

***

صباح جديد يشرق عليّ في بيته.

شهر كامل مرّ بي هنا معه، لا نزال غريبين تحت سقف واحد، لكن شعوري الحقيقي أنه ليس غريبًا عني، سمعتهم يتحدثون كثيرًا عن تآلف الأرواح، ربما هذا ببساطة ما أعيشه

معه، هذا الذي يدفعني أكثر في دوامة تكاد تبتلعني، إنه يعاملني بنفس الطريقة التي تمنيت لو يعاملني بها يونس، يخاف عليّ خوفه على قارورة ثمينة شديدة الهشاشة، يطلق مشاعره نحوي حرة في بوح كلماته، كلماته التي تشعرني أنه يعانقني وإن لم يمسسني، يتقبل نوبات غرابتي، بكائي، شرودي، بل يكتفي أحيانًا بالجلوس جواري دون حديث كأنه يفهم متى يدعمني بصمته ومتى يفعل بكلماته.

يحدثني كثيرًا عن وطني، فلسطين، ويطلب مني أن أحدثه عنه، بل إنه سافر معي لغزة كي نزور قبر يافا وقبور عائلتي، هذا الذي كنت أحتاجه حقًا ولم أكن لأجرؤ على فعله وحدي خشية انهياري.

الغريب أنه لا يحدثني عن نفسه وأنا أستحي من سؤاله، لا أزال أتعامل مع زواجنا على أنه أمر مؤقت سيزول بمجرد اطمئناني بشأن خطاب، لكنني لا أرى له عائلة بل العديد من الأصدقاء، أصدقاء من جميع الأعمار والطبقات فلا أكاد أصدق تجانسهم معه، طبيعته المرحة مع أصدقائه تدغدغني بشعور غريب، فأكررها لنفسي للمرة التي لا أدري عددها: ربما لأنني تمنيت مثل هذا ليونس.

أتنهد مقاطعة نزيف أفكاري لأغادر غرفتي نحو صالة البيت، فيستوقفني مشهده الصباحي المعهود وقد أتم صلاة الضحى ليجلس مكانه قارئًا ورده من القرآن، ابتسامتي تتأرجح على شفتي

برضا ونفس الشعور الغريب نحوه يعاود اقتحام حصوني، كيف يمكن أن يكون بكل هذا القرب، وبكل هذا البعد؟!

- صباح الخير.

صوته الغريب ببحته المميزة يأتيني مع رفعه لرأسه نحوي وهو يغلق مصحفه برفق ليضعه مكانه، فأتقدم نحوه ليردف ونظراته تغمرني بعاطفته كالعادة:

- أحب رؤيتكِ ترتدين هذا.

يقولها مشيرًا الثوب الفلسطيني صنيعة يد يافا والذي لا زلت أصر على ارتدائه في البيت إحياءً لذكراها، فأبتسم ببعض المرارة وأنا أستعيد ذكرى مشابهة ليونس، مشابهة؟! بل مناقضة.

- هل أعد الفطور؟!

أسأله هاربة من فوضى مشاعري فينهض مكانه قائلاً:

- نعده معًا.

يسير جواري نحو المطبخ حيث نعد الطعام، لا تزال عادتي في تناول «المناقيش» و«الفول» قائمة، لكنني صرت أحظى بمن «يحب» مشاركتي فيها.

نتناول طعامنا وهو كعهده يحاول اجتذابي للثرثرة، لكنني لا أزال أتشبث بأسوار مقاومتي.

- اليوم إجازة، ما رأيك لو أصطحبكِ في نزهة بعدما أمر على «الأولاد»؟

- أولاد؟!

أغمغم بها بتوجس يردني لحقيقة أنني لا أعرف شيئًا عنه فيضحك ضحكة رائقة وهو يرد:

- تعالي معي، شاهديهم بنفسك.

أحاول قمع هذا الشعور الضائق الذي اكتسحني بعدها وأنا أبدل ملابسي لأغادر معه، لم أعلم أنه كان متزوجًا، لكنني لم أسأل.

- لماذا توقفت هنا؟

أسأله وأنا أدير بصري في المكان الذي استقرت فيه سيارته، دار تحفيظ للقرآن، بسيطة مع أنها تبدو أنيقة، لكن ما لفت انتباهي حقًا هو هذه الآية الكريمة التي كتبت في مدخلها:

(وذا النون إذ ذهب مغاضبًا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين).

تدمع عيناي فلا أدري هل هي مصادفة، أم أن روحي تجتذب دون وعي لكل ما يذكرني بيونس.

صياح الأطفال يقاطعني وهم يندفعون نحونا منادين شهاب الذي وقف يستقبلهم بترحاب، يستمع لحكاياتهم ويسألهم عما أتموه من الحفظ فيستعرضون مهاراتهم باندفاع طفولي ليتلقوا منه هداياه.

ابتسامة اعتزاز تجتاحني وأنا أراقبه جوارهم، روحه لا تبدو مختلفة كثيرًا عن أرواحهم النقية وإن تباينت الملامح، تعلم يا

شهاب؟! لو كان الحب بالعقل لاخترت أن أحب رجلاً مثلك، لكن ما حيلتي في هذا الأحمق بين ضلوعي؟!

- من هذه «القمر»؟!

يهتف بها أحد الصبية فيلتفت نحوي شهاب بنظرته الغامرة مع جوابه بفخر استشعرته جليًا:

- زوجتي.

- ذوقك حلو.

- تأدب يا ولد! سأخبر شيخك أنك تعاكس زوجتي.

يهتف بها بمرح وهو يخبط الصبي على مؤخرة رأسه فأضحك رغمًا عني والصبي يبالغ في تأوهه ثم يتخذ وضعًا قتاليًا مباعدًا بين ساقيه ورافعًا قبضتيه المضمومتين ليتخذ شهاب وضعًا مشابهًا:

- هي الحرب إذًا؟!

ضحكاتي لا تنقطع والصبية يتحلقون حولنا مشجعين فيما بدا كمباراة تعمد فيها شهاب الخسارة كما يبدو إرضاء للصبي الذي غمزني بعدها بخفة ثم تقدم مني ليقول بجدية:

- اعتني به، هو طيب و«ابن حلال».

ضحكتي تمتزج بدمعة حقيقية وأنا أرى الأدوار قد انقلبت والصبي هو الذي يوصيني به، لكن الجلسة استمرت بعدها لأدرك أي مكانة يحملها شهاب لدى هؤلاء الأطفال، مكانة متوسطة تمامًا بين الوالد والمعلم والصديق، ربما لهذا هم متعلقون به إلى هذا الحد.

- وهذا شيخي وصديقي.

يقولها شهاب مشيرًا لذاك الرجل الذي خرج لتوه نحونا، بجلبابه الأبيض ولحيته الطويلة وشاربه المحفوف، والذي غض بصره عني ليدعو لنا بالبركة فيخاطبني شهاب بقوله الغارق في امتنانه:

- أدين له بالكثير لو تعلمين.

- أنت تحفّظهم القرآن؟!

أسأله عقب مغادرتنا وقد ركبنا السيارة ليرد:

- لا أملك العلم الكافي لذلك، أنا فقط أتعاون مع مدير المكان، وأدفع التكاليف.

- يبدو أنهم يحبونك جدًا.

- أنا أيضًا أحبهم، وأتمنى لو أملك أن يحفظ كل طفل في هذا البلد القرآن، لا حفظ تلقين بل حفظ فهم وتدبر، أغلب وسائل الإعلام تصدّر صورة المتدين كإرهابي، وبعض دعاة الدين يقتنصون ولاء الشباب لخدمة أغراضهم السياسية، وبين هذا وذاك جيل مطحون بينهما يبحث عن هوية حقيقية وسط الزيف، لهذا أتمنى لو كان بيدي أن نجيد تربيتهم فيتشبثون بأصول دينهم الحق، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا».

أرمقه بنظرة اعتزاز لأجدني أقول دون وعي:

- عمتي يافا كانت لتحبك كثيرًا لو رأتك.

فتتوهج عيناك بنظرة آسرة:

- أنا أيضًا كنت لأحبها، كثيرًا، كثيرًا.

يخفق قلبي بقوة وأنا أشعر بدوامة عينيه تجتذبني للصراع من جديد، كل ذرة داخلي تستصرخني أن أستجيب لهذه «النداءات الصامتة» من رجل رائع مثله، لكن.. لا يزال بيننا عائقٌ ها هنا بقلبي، عائق يدعى يونس.

ومن جديد أحاول تجاهل فوضى مشاعري مكتفيةً بهذه السعادة التي أشعر بها معه، لم أذهب في نزهة كهذه منذ زمن بعيد، بعيد جدًا، لكنه بدا وكأنه يحفظ كل تفاصيلي وهو يذهب بي إلى الأماكن التي أحبها، يبتاع لي هذه الهدايا التي تناسب ذوقي رغم رفضي الخجول، يحاصرني بهذا الفيض الكريم من مشاعره ويرمم هذا الشرخ بجدار روحي بمهارة خبير.

نصل للبيت أخيرًا وقد شعرت أني مثقلة، ليس فقط بهداياه، بل بهذا الشعور المربك الذي يجيد غرس بذوره في خلاياي.

- سعيدة؟

يسألني وعيناه تعانقان ملامحي بحب ما عدت أشك فيه مثقال ذرة، فأكاد أرد بالإيجاب، لكن ارتباكي يصيب مني وأنا أشعر أنه لا يزال هناك حجر ثقيل مربوط في قدمي يشدني نحو قاع حب لا أزال أغرق فيه.

لهذا أنكس رأسي هربًا منه لأعتذر بكلمات مقتضبة ثم أهرول

نحو غرفتي أغلق بابها خلفي، وليتني بهذه السهولة أستطيع غلق كل أبوابي المفتوحةَّ!

* * *

- ضي! أنتِ بخير؟!

صوته الغريب ببحته المميزة يوقظني فأحاول رفع رأسي لكنني لا أستطيع مع هذا الصداع العنيف والألم الرهيب في حلقي.

- حرارتك مرتفعة.

يهتف بها بجزع فأفتح عيني لأغمغم بصوت متحشرج:

- إنه خطئي، خففت ملابسي ولا يزال الجو باردًا.

عيناي تصطدمان بهذا القلق الكاسح في عينيه فأكره أن أسبب هذا له، أشعر بالارتباك وهو يجاورني جالسًا على فراشي، لكن الإعياء الذي يجتاحني يجعلني أستسلم لعنايته بي طوال يومين قضاهما بأكملهما جواري لا يكاد يفارقني.

أستعيد بعضًا من عافيتي في اليوم الثالث وأستعيد معها فوضى مشاعري معه، مرضي الأخير جعله أقل تحفظًا معي، أم تراني أنا التي صرت أكثر هشاشة؟! أنامله لا تكاد تترك كفي، نظراته تسكنني كقمر وجد أخيرًا الليل الذي يؤويه، منذ متى لم أجرب هذا الشعور أن يعتني بي أحدهم؟ ربما منذ غادرتني يافا.

لماذا أشعر وكأنني صرت أطارد سراب كل من أحببتهم فوق ملامحه؟! حنان أمي، قوة أبي، تقوى يافا، ونظرة يونس.

هل بلغ بي اليأس هذا الحد؟! أم تراه حقًا يحمل قبسًا من نور كل هؤلاء؟!

- صرت بخير، لا داعي لأن تبيت ليلتك هذه أيضًا هنا.

أقولها بحرج وأنا أثبت وشاحي فوق رأسي بينما أسحب كفي منه برفق، لا أزال أراه غريبًا لا يحل له رؤية شعري، لكنه يتشبث بكفي هامسًا بحنانه المعهود:

- لن أتركك حتى أطمئن عليكِ تمامًا.

أهم بالاعتراض لكنه يهز سبابته أمام شفتيه بحركة ذات مغزى فأطرق برأسي مستسلمة لأسأله:

- أليس غريبًا أنني لا أعرف عنك الكثير؟!

- تريدين حقًا أن تعرفي؟

نبرته بدت لي غامضة فكدت أرد بالإيجاب، لكن خوفي جعلني أهز رأسي نفيًا كأنني خشيت المزيد من التيه في وديانه الشائكة هذه، كل يوم يمر بي معه يقذفني في هذه الدوامة أكثر، يجعلني أقف على شفرة سيف الذنب، الذنب نحوه هو، ونحو يونس.

لكنه يبسط راحتي مفرودة على كفه لتدور سبابته فوقها ببطء كأنما يرسم دائرة، ثم يهمس بما بدا لي صادقًا لأبعد حد:

- لا يوجد الكثير مما تجهلينه، تعرفين عن عملي، أصدقائي، عائلتي.

أرفع إليه عينيّ بترقب مع كلمته الأخيرة فتمتد أنامله الحرة لتحتضن وجنتي مع همسه:

- ليس لي عائلة إلا أنتِ.

نظراتي تذوب رغمًا عني في دفء حدقتيه، مهما ادعيت غربته عني لا أزال أشهر أمام عينيه هاتين راياتي البيضاء، خاصة وهما تبتهلان بهذه المناجاة التي لا أملك لها سوى سمع وطاعة.

- كيف تشعرين نحوي بعد كل هذا الوقت؟

سؤاله يلقيني في أشد ربوع نفسي تيهًا، فأهمس بيأس:

- لن تفهم.

- تكلمي ودعي لي أنا شأن الفهم هذا.

أتنهد بالمزيد من العجز ولا أجيبه سوى بصمت طويل يتقبله كعهده ولا تزال عيناه تمطران سيلاً من عاطفته:

- لو تعلمين كم أحبك يا ضي!

يهمس بها بخفوت فلا أدري هل سمعتها من شفتيه أم من جنون خفقاته، المسافة بين وجهينا تتناقص حد امتزاج أنفاسنا، أغمض عيني هاربة لأشعر بعزف شفتيه على ملامحي، شيء ما بداخلي يسرقني من نفسي، من كل حدودي التي بنيتها بيننا، يحضّني على المزيد من الاستسلام لهالة السكينة التي تحيطني في كنفه، أغيب في سكرة من الزمن لا أدري مداها فلا أنتبه إلا وأنا أنتفض مكاني فجأة كأنما لدغني عقرب، وصفعتي تهوي على وجهه.

* * *

- أعتذر كثيرًا عن صفعتي، صدقني لم تكن لك، كانت لنفسي قبلك، سألتني عن شعوري نحوك بعد كل هذا الوقت والآن أجيبك قبل أن أرحل، أنت رائع، رائع جدًا لأي امرأة سواي، قد تظنني مجرد حمقاء أخرى تعيش على أطلال حب مات، لكنني امرأة ولدت بين رحى الحرب والحب فعرفت حقيقة أن يكون الوطن حبًا والحب وطنًا، وتبديل أي منهما كفر، أشكرك لكل ما فعلته من أجلي، لكن آن الأوان أن أحمل وزري وحدي، لو كنت تحبني حقًا كما تزعم فدع لي ما تبقى من نفسي، ومن يونس.

أترك رسالتي له ثم أغلق هاتفي لأغادر بيته، لقد تركني بعد ما كان بيننا بالأمس، ترك البيت كله ولم يعد، فهل ألومه؟ ما بيننا لن يعود أبدًا كما كان بعد تلك السَكرة العاطفية التي جرفتنا البارحة، فلا بدّ إذًا من الفراق.

غدًا قد أسمح لنفسي بالبكاء ندمًا على رحيلي عنه، وربما على قبولي لدخوله حياتي أصلاً، لكنني الآن لا أبغي شيئًا سوى أن أستريح وحدي بعيدًا عنه، وعن كل الناس.

إلى أين؟! لا أعرف مكانًا يمكن أن يؤويني الآن غيره.

لا زلت أملك المفتاح.

أقف أمام تلك الغرفة القديمة في «البدروم» البسيط، والتي عاش فيها أبي وأمي يومًا، تلك التي لجأت إليها يومًا عندما

هجرني يونس، والآن ألجأ إليها وقد هجرت شهاب، أسعل بقوة والتراب المكدس في كل مكان يمتزج بذكرياتي فيكاد يسحقني تحت هامة الحنين، أفتح الباب لأغلقه خلفي، رغم ضيق المكان لكنني أشعر بسعة الأمان، ها هنا لن يجدني أحد.

أضيء النور لأتطلع لصورة والديّ المعلقة على الحائط، الوهن يتسرب إليّ وأنفاسي تتلاحق، لا.. لن أسقط كالمرة السابقة.. فلن يكون هناك يونس كي ينقذني من جديد.

- يارب! أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي، يارب قوّني فلا أسقط، لست وحدي وأنت معي.

أدعو كما علمتني يافا فأشعر بغلالة من السكينة تلفني، رجفة جسدي تسكن، أنفاسي تهدأ رويدًا رويدًا، أتنهد أخيرًا وأنا أشعر أنني صرت أفضل.

يومٌ طويل قضيته ألهي نفسي في تنظيف الغرفة، التعب ينال من جسدي ومن قلبي قبله.

شهاب!

هل افتقدته؟! أم هو فقط فضول لمعرفة كيف هو الآن؟! هل يبحث عني؟ حتى لو فعل، فلن يجدني، لكن.. ماذا ستكون خطوتي التالية؟ البحث عن عمل؟ وخطّاب؟ أعود إلى غزة؟ ربما، ربما كان هذا..................

أفكاري تنقطع مع هذه الطرقات العنيفة على الباب فأنتفض

مكاني بهلع، أفكر في تجاهل الطرقات لكنها تعود أعلى فأهتف متسائلة عن الطارق لتعود الطرقات أعنف دون رد.

أتناول عصا مكنسة قريبة كأنها ستحميني، أفتح الباب لأجده أمامي، شهاب، يدفع الباب ليغلقه خلفه فأهتف بصدمة:

- كيف عرفت؟!

سؤالي ينقطع بآهة خافتة وأنا أشعر بنفسي فجأة مغمورة بين ذراعيه يكاد يعتصرني بين ضلوعه، أحاول رفع رأسي نحوه لكنه يثبته على صدره بعنف وهو يتمتم بحمد الله، خفقاته تكاد تعوي تحت كفيّ المنبسطين بيننا، فلا تقل عنها خفقاتي جنونًا.

أنفاسي تتلاحق بهذه الطريقة المعهودة كلما زاد انفعالي إنما...

مهلاً! إنها رائحة يونس! لا ليس عطره بل رائحته هو، هو..

هل عدت لهذياني؟! هل هذا ما يبرر لي به عقلي خيانته؟

أرفع عيني إليه أخيرًا لتعانقني نظراته بهذه اللهفة المذعورة التي يكسوها غضبه، هذه نظرة يونس عندما يغضب، ربما أنا فقط لم أرَ شهاب غاضبًا مني من قبل، هل أصابني الجنون؟!

حيرتي تسكب المزيد من دموعي فوق وجنتي فيخفف من ضغط ذراعيه حولي، نظرته الغاضبة تلين مع نسائم عاطفته، نظراته تتفحصني باهتمام وشفتاه تنفرجان كأنه على وشك الحديث، لكنه يعاود إطباقهما بعنف وهو يلصق جبينه بجبيني، لماذا لا يتكلم؟!

- كيف عرفت هذا المكان؟! لا أحد يعرفه سوى يونس.

بالكاد أتفوه بها بصوت متحشرج وأنا أشعر أنني أكاد أفقد وعيي، هل ما أفكر به صحيح؟!

لكنه يصمت طويلاً ثم يرفع عينيه نحوي من جديد فيحرر شفتيه من صمتهما ويطلق معهما مفاجأته:

- (لا تسأليني كيف استهديت، كان قلبي لعندك دليلي)

صرخة خافتة تغادر قلبي قبل حلقي!

فيروز! «سألوني الناس»!

إنها غنوتنا! غنوتنا أنا ويونس!

وبصوته! صوته! أنا لا أتوهم.

أناملي المرتجفة تمتد بسرعة لتفك زر قميصه باحثة عن ندبته الهلالية، ليست هنا.

لا! لا! ولو! إنه يونس! أنا لا أهذي!

أرفع معصمه لأخلع عنه ساعته بعنف فأصطدم بما كنت أبحث عنه،

ها هي ذي، بقعته البيضاء التي جرحتها أنا يومًا.

يونس!

- كنت أنت! طوال هذا الوقت كنت أنت! وأنا التي ظننتني أهذي!

لا أدري بأي صوت خرجت مني وذراعاي يتعلقان بعنقه، يتشبثان به تشبثي بالحياة نفسها وأكثر.

صرخاتي تمتزج بضحكاتي ودموعي في مزيج عجيب لا يليق

إلا بموقف كهذا.

أراه يحاول تهدئتي فأصرخ بالمزيد من الجنون:

- تكلم، أريد أن أسمعك.

أقولها وأنا أهزه بين ذراعيّ بكل ما أوتيت من قوة، أغمض عيني عن ملامحه كأنني أخشى أن يكون كل هذا مجرد حلم.

- لماذا كذبت عليّ؟! حرام عليك!

- لم أكذب! يونس الذي تعرفينه قد مات، حقًا قد مات.

هنا أفتح عيني من جديد ببطء فتتلقفني ابتسامته قبل أن يقبل جبيني بعمق مردفًا:

- مات وولد من جديد، باسم شهاب.

الصدمة لا تزال تلجمني لكنني أستنتج ما حدث، بحثه الأخير، دياب، الاسرائيليون.

- هل تهرب منهم؟

- من كل شيء يخص ماضيّ، شكلي، ذكرياتي، ذنوبي، كل شيء.

يهمس بها بألم صوته الذي أعرفه فأتحسس وجنتيه بأناملي المرتجفة ليردف بشرود:

- عندما استعدت وعيي بعد الحادث كان هذا أول قرار اتخذته، لن أخون وطني ولا ديني، كنت أعرف أنهم لن يتركوني وشأني، لهذا قررت أن أتخلص من وجه يونس بخطاياه للأبد، دياب ساعدني في تدبر الأمر بسرية، ليس وجهي فحسب بل وصوتي كذلك، يونس مات في عيونهم وعيون الجميع، علمه فقط هو الذي حرصت أن يبقى لخدمة هذا البلد، حتى ولو كان

سرًا من خلف الستار، لم أعد أريد شهرة ولا مجدًا، لعله يكون تكفيري عما اقترفته في الماضي.

لم يكد يتم آخر كلماته حتى شعرت بنفسي أهوي على الأرض ساجدة، ماذا هناك أعظم من سجدة شكر توفي مقام هذه اللحظة عندي؟! سبحان من أعاد لي يونس من وسط «ظلماته الثلاث»، وردّه سالمًا لضيّه!

يتركني هو لفيض انفعالي للحظات، ثم أشعر به ينحني ليرفعني نحوه من جديد، فيض قبلاته الغامر كأنه ينثر حول عنقي قلادة فوق قلادتي قبل أن تشتبك أناملنا فوق صورتيها.

- شكرًا لأنك لم تفقدي يومًا إيمانكِ بي، ربما هذا هو ما رد لي إيماني بنفسي وبكل شيء.

أكتم ضحكة اعتزازي التي امتزجت بدموعي وأنا أراه الآن في أجمل صورة تمنيته فيها، وبقدر حزني لأنني لن أبصر ملامحه التي عشقتها، لكنني كنت راضية أن يولد من جديد، بشكل آخر واسم آخر و... بعقيدة أخرى.

أهمس له عاتبة:

- لماذا لم تخبرني؟ هنت عليك؟!

فيرمقني بنظرة مذنبة ثم يرفع كفيّ ليقبلها تباعًا هامسًا:

- في البداية كان الأمر ضرورة أمنية، لا أخفيكِ قولاً أن دياب كان قد حذرني من أي اتصال بكِ، وعندما هدأت الأمور اقترحت عليه فكرة عملك معي في الشركة.

- ولماذا لم تخبرني حتى بعد زواجنا؟ كنت تختبر إخلاصي؟!

- ربما كنت فقط أريدك أن تحبيني من جديد، أن تعشقي شهاب كما عشقتِ يونس.

- حتى ولو عشق عقلي شهاب، بقي قلبي ملكًا ليونس.

- كلاهما لكِ، أنت ضيّ شهاب، كما كنتِ ضي يونس.

يهمس بها بين شفتيّ لتشتعل أنفاسنا بلهيب عاطفة مستعر، أذوب بين ذراعيه وأنا أشعر لأول مرة أنني لم أعد خائفة معه، هو يونس، وهو شهاب.

- لم تخبرني ما الذي غيرك هكذا؟ هل هو الحادث؟

أسأله فيبتسم بشرود وعيناه تزوغان بجوابه:

- بل، هيولان!

أعقد حاجبي بشكّ وأنا أكذّب أذني، فيضحك وهو يجذبني معه ليستقر فوق الأريكة الوحيدة في المكان يجلسني فوق ساقيه كطفلة، ثم يسند رأسي إلى صدره بينما يزيح عني وشاحي ويتأمل شعري بشوق وأنامله تعزف لحنها الأثير بين خصلاته.

- تحبين الحكايات الغريبة؟

- أحب منك أي حديث.

- إذًا، أحكي؟

- احكِ!

فتتسع عيناي بذهول وأنا أستمع منه لما يرويه.

الخاتمة

كنت هاقول أهو ده المحبوب،

ويدوب قلبي قبل ما أدوب

***

يونس

***

إلى الآن لا أعلم حقيقة عالم «هيولان» هذا الذي دخلته، هل كانت مجرد هلوسة في غيبوبتي التي دخلتها بعد الحادث؟ هل هو مجرد حديث عقلي الباطن؟ مخاوفه من ضلالي القديم ورغبته في طريق نور جديد؟ ربما هذا هو التفسير الأقرب للواقع، لكن ما يناقضه بعقلي أن كثيرًا من الأحداث التاريخية التي عشتها لم أكن أعلم عنها شيئًا أصلاً.

أهلكني التفكير في هذا الأمر بعد إفاقتي، لكنني قررت تجاهله، كفاني أنني عشت هذه التجربة الفريدة وعدت منها شخصًا آخر.

أنا قدمت حياة يونس القديمة كلها قربانًا لحياة شهاب الجديدة، ما بقي من عمري لن يكون إلا لخدمة ديني ووطني، وضي.

كوابيسي غادرتني تمامًا، ربما لهذا أصررت أن أزيل «ندبتي الهلالية» في تلك العملية التي أجريتها لتغيير ملامح وجهي، ذاك اليوم الذي نظرت فيه لوجه «شهاب» لأول مرة في المرآة وقد فقدت ندبتي القبيحة أدركت أن حياتي حقًا ستتغير للأبد.

أعدائي؟

أعداء الماضي لم يعودوا ينشبون مخالبهم في صدر ذكرياتي، بل صاروا مجرد صور مطموسة من الماضي تكاد تختفي في واقع حقيقتي الجديد.

قمر؟ دياب أخبرني أنه خلّصها من القضية التي ورطتها فيها، أخبرني أنها هجرت قريتنا وعثرت على زوج مناسب.

الشيخ غريب؟! دياب عاد إليه تلك الليلة التي تركناه فيها في الصحراء، يقول إنه أصيب بحالة نفسية أودع على إثرها إحدى المستشفيات العقلية، أشعر بنوع من العدالة القدرية في هذا المصير، هو طالما طمس العقول بسُمّه الذي كان يدسه وسط العسل، وآن الأوان أن يتجرع الآن مرارته.

مجدي؟

- محكمة.

الصوت الهادر يقاطع أفكاري وأنا أجلس مكاني في آخر صف في قاعة المحاكمة، إنها جلسة الحكم في قضية مجدي التي سأنال بها حق جابر، أبي! أبي! الآن فقط يمكنني قولها بملء فمي.

أشبك أناملي بترقب والعرق يغزو جبيني، إنها لحظة النطق بالحكم.

قديمًا كانت تدخل الأمور في دائرة المجاملات والاكتفاء بالعقاب الإداري في مثل هذه الحالات، لكن الآن..

يخفق قلبي بجنون وأنا أسمع القاضي يعلن الحكم أخيرًا.

يعلنه وقد تلون في عيني بألوان «العلم القريب»، أحمر، أبيض، أسود، ونسرٌ يقسم أنه سيحلق دومًا مهما قمعته أسوار ظلم وطغيان.

السجن المشدد لمدة ثلاث سنوات لمجدي مع عزله عن وظيفته.

تدمع عيناي وأنا أقف مكاني أطالع وجه مجدي الذي سوّدته ذنوبه خلف أسواره، لا يعنيني أنه لا يعرف أنني أنا من أقف الآن بقدر ما يعنيني أنه نال ولو نذرًا قليلاً من جزائه.

صحيحٌ أنني تمنيت لو يموت كما مات أبي، لكن يكفيني ما كان.

- يونس!

صوت دياب الودود يأتيني من خلفي بعدما غادرت مبنى المحكمة وقد جلس في سيارته معتمة النوافذ، فألتفت نحوه لتغنيه عيناي عن الحديث.

تراه تعمد أن ينطق باسمي «الحقيقي» الذي افتقدته في هذه اللحظة بالذات وهو يعلم كم أحتاج الآن لمن يشاركني هويتي؟

أعلم أنه قد تعمدها، كعهدي به يفهمني دون حديث.

يبتسم لي من بعيد في مكانه بودّ صداقة حقيقي وهو يهز رأسه بحركة ذات مغزى بيننا تخبرني أننا سنلتقي ليلاً في مكاننا المنعزل الذي اعتدنا اللقاء فيه منذ كنت «يونس»، فأرد له ابتسامته وأنا

أقدر له حرصه على أن يكون جواري في هذه اللحظة بقيمتها العظيمة عندي.

أراقبه وهو يمضي بسيارته ثم أعود إلى خاصتي فتستقبلني ضي الجالسة فيها بلهفة لأبتسم وأنا أخبرها بما كان، فترفع كفيها نحو السماء بالحمد.

- تعلمين أين أريد الذهاب الآن؟!

- قريتك!

تهتف بها دون تفكير فتتسع ابتسامتي وأنا أرفع كفها نحو شفتيّ بقبلة امتنان لحدسها الرائع هذا والذي لم يخذل كلينا يومًا.

سيارتي تنهب الطريق نحو قريتنا فتغزوني ذكرياتي العامرة، الآن فقط يمكنني زيارة قريتنا وقد صارت خالية من قمر وكامل وغريب ومجدي.

بقيت فقط لجابر ونجية، لي، ولأولادي من بعدي.

أقف أخيرًا أمام قبر والديّ، أخفي وجهي بين كفيّ وأنا أجتهد بالدعاء فأشعر أن أرواحنا تتعانق رغم كل شيء.

- من؟! يونس؟!

أرفع عيني نحو الصوت الأنثوي الغريب لامرأة ترتدي السواد كعهد نساء قريتنا والتي كانت ترمقني بود لا يخلو من فضول فأرد بصوت متحشرج:

- لا.

تتسع عيناها وهي تنقل بصرها بيني وبين ضي لتستطرد بإدراك:

- صحيح! سمعنا أن يونس مات في «مصر» ودُفن هناك، اعذرني يا ابني، لما رأيتك واقفًا هنا ظننتك هو وتذكرت وصية أمه لي، المسكينة كانت تتمنى أن تراه قبل موتها، كانت دومًا تقول إنه سيعود إلى هنا، وكانت توصيني أن أبلغه رسالتها.

- أنا صديق يونس، هو أيضًا كان يوصيني أن أزور قبر والديه، أخبريني ماذا كانت رسالتها؟

أهتف بها بأقصى ما أملكه من ثبات محاولاً كبت لهفتي، فتتنهد المرأة وهي ترفع كفيها للسماء:

- رحمك الله يا نجية.

ثم تعود ببصرها لي مردفة:

- كانت تذكر شيئًا عن لوحة مرسومة، عن دعوة كانت تدعوها له، «جعلك الله في قلب العتمة الضيّ»، طلبت مني أن أذكّره بها.

تضغط ضي كفي في راحتها بينما تدمع عيناي وأنا أتذكر ما تحكي عنه، فأهم بسؤالها عن المزيد، لكن صوت الأذان يقاطعنا فأصمت قليلاً أردده قبل أن أسألها:

- لا يزال المسجد في مكانه القديم؟

- أين سيذهب يا بني؟ الشيخ فقط هو من تغير، شيخ

مبروك كلنا نحبه، صوته آية من آيات الله، اذهب وصلّ خلفه وادعُ لصاحبك وأهله.

تقولها المرأة بطيبة وهي تسير جوارنا نحو المسجد القريب، أترك ضي معها وأدخل المسجد، تجتاحني صورة قديمة لغريب لكنني أسحقها بقوة، أسحقها وجسدي يقشعر بصورة أخرى لي - طفلاً يأتي إلى هنا بالذات وقد تعلق بجلباب جابر.. أبي.

أجدد وضوئي ثم أتجه للأمام لأصلي خلف الشيخ الذي أخذتني عذوبة صوته بخشوعه دون تكلف.

خيط من الدموع يسيل من عيني فلا أملك منعه، ها هنا بالذات أجد لصلاتي معنى آخر، ها هنا، حيث رائحة جابر ونجية، أبي وأمي، حيث جذوري، حيث بذرة الفطرة التي ظننتها احترقت فعادت لتنمو من جديد كي تنبت بصدري جنانًا من نور.

هل يسامحني الله على طول غفلتي؟! هل يعفو عني بعدما ظللت أسير ظلماتي لسنوات؟!

- قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعًا.

بصوت الشيخ تأتيني كأنما هي رسالتي، لا أشعر بالخجل ودموعي الصامتة تتحول لنشيج خافت، أركع فأشعر أن المكان قد خلا إلا مني، أسجد لأغمض عينيّ لكنني أبصر خلفهما نورًا

يخبرني أن العفو قريب، بل هو أقرب إليّ من حبل الوريد، يخبرني أنني لو أتيت بقراب الأرض خطايا ثم لقيت الرحمن غير مشركٍ للقيني بقرابها مغفرة.

أسلم من صلاتي فأشعر أنني أغتسل بهذا الطهر الذي لن يدنسني بعده شيء، كأنني ها هنا فقط أدركت كمال توبتي.

***

أراقب وجه ضي النائمة جواري بحنان وأنا أزيح خصلات شعرها عن وجهها، أتحسس بطنها المتفخ بأنامل مرتجفة وأنا أتخيل ملامح طفلنا المنتظر، هل سيشبه طفلي الذي كان في هيولان؟

أبتسم لعذوبة الذكرى وأنا أشرد في تفاصيل عالمهم الساحرة، تمنيت كثيرًا لو يزورني حلم واحد عنهم، لو أعيش حياة واحدة أخرى هناك، أنجح فأنال ضلعًا ماسيًا أو حتى أفشل فتنالني لسعة مجساتهم على عنقي، لكنهم للأسف قد هجروا أحلامي تمامًا.

- افتقدتكم أيها الشهابيون، تراكم كنتم حقًا وهمًا من أوهامي؟

أهمس بها لنفسي وأنا أتطلع لبقعة معصمي البيضاء التي تركت فيها ضي ندبتها فتبدو لي كقنديل بحر بمجس واحد.

صوت المنبه جواري يقاطع أفكاري فأغلقه بسرعة كي لا

يوقظ ضي، اليوم حافلٌ بعملي «السري» في بحثي الأخير الذي أكاد أنهيه بفخر من أمكنه أخيرًا أن يقدم شيئًا ذا قيمة لوطنه.

أجل.. الوطن لم يعد بالنسبة لي موقع بلد على الخريطة، الوطن صار هوية أتمنى أن يضيف إليها اسمي كما أضافت هي له.

أتوقف قليلاً أمام لوحتي الزيتية المعلقة على الحائط بصمتها الملطخة، أتذكر ثمنها الذي دفعه جابر، ووصية نجية الأخيرة التي تركتها لي مع تلك المرأة، وكم بينهما! كم بينهما!

أؤدي صلاة الضحى ثم أتناول حاسوبي المحمول لأطالع آخر الأخبار فيستوقفني هذا الخبر.

مجدي! معقول؟!

- يا الله! انظر إلى الصورة يا يونس!

تهتف بها ضي من خلفي وقد استيقظت لتوها لترى ما أراه، فألتفت نحوها والصورة لا تكاد تغادر ذهني.

مجدي مقتول وقد وضع أحدهم قدمه فوق صدره.

تفاصيل الخبر تقول إنه هرب من السجن بمساعدة أحد زملائه الفاسدين، وقد كان في سبيله للسفر خارج البلاد لكنهما اختلفا كما يبدو بعدها، ليقتله صاحبه ويسرب هذه الصورة نكالاً به.

- رحمكِ الله يا يافا! دومًا كانت تقول «سبحان من يمهل ولا يهمل»، خَطّاب كذلك كانت نهايته من جنس عمله،

مشاجرة مع واحد من رفقته الضالة جعلته يقتله ليقضي هو بقية عمره في السجن.

كلماتها تتشوش في سمعي مع إدراكي لحقيقة القصاص، القصاص العادل من ذي الجبروت الذي لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض.

تدمع عيني وتذوب الكلمات على شفتيّ لكنها كعهدها تفهمني، تجلس جواري ثم تسند رأسها على صدري مكتفيةً بفيض حنانها الصامت، لكنني أرفع إليها رأسي هامسًا أخيرًا:

- قرأت يومًا مقولة: "ينبغي أن نحمل داخلنا سديمًا كي تولد نجمة راقصة"، الآن فقط أدرك أن ضبابي الفوضوي قد تمخض أخيرًا عن نجمتي.

تبتسم وهي تقبل جبيني بعمق، «لجّتاها الصافيتان» تترقرقان بموج عاطفتها الأزرق، وعلى ألحان عشقها ترقص حروفها:

- نجمتك لم تنطفئ يومًا، هي فقط ضلت طريقها وسط ليلك الطويل، تعلم؟! مرآة روحك ما عادت مشروخة، صرتُ أرى في عينيك قدسي.

أضمها نحوي بقوة كعهدي في كل مرة أشعر فيها أنها تتعمد غرس بذور إيمانها فيّ، فتتأوه بدلال وهي تمسد بطنها هامسة بلكنتها الفلسطينية التي أعشقها كلما تسربت منها رغمًا عنها:

- يومًا ما سأخبر طفلنا أنني لصة، أنني سرقت قلبك.

- لم تسرقيه، هو جثا على ركبتيه طوعًا أمامك بلا حول ولا قوة.

تطلقين هذه الضحكة العالية التي تثير جنوني فأشاركك إياها وأنا أتنفس شعور حريتي الجديد.

- سأطلي له غرفته بنفسي كما كان يفعل أبي، وعندما يأتي سأعلمه قيمة الألوان عندما تلقي سحرها على جدار باهت، لون الدين، لون الوطن، ولون الحب.

ملامحكِ تشرق مع كلماتي فترجف قلبي بهذه الانتفاضة الساحرة التي تشد الوثاق بيننا أكثر.

من كان يخبرني أن «سرداب الظلال» بيننا سينتهي بسماء رحبة من ضي؟!

تتشابك أناملنا وعيناكِ الحنونتان جدًا، الأموميتان جدًا، والطفوليتان جدًا جدًا تناشداني المزيد من اعترافات عشقي، فأردف بكل ما أوتيت من حب:

- في كل مرة كنت ألعن ظلماتي «الثلاث»، كانت اللعنة تصطدم بحرف من حروف اسمك، تتضافر مع خصلات شعرك، تتعثر بلمعة حدقتيكِ، وتذوب على ضفتي شفتيكِ، تموت هي وتبقين أنتِ، فلا ظلمة تحلّ ليونس وأنتِ قمره وشمسه، أجل، كنتِ وستبقين... ضيّ يونس.

ترفعين معصمي حيث بقعتي البيضاء لتطبع فوقها شفتاك قبلة ناعمة:

- طالما عاتبني عقلي فيك، كنت أقول لنفسي: ما دمتَ عبدًا لظلامك وما دمتُ ملكةً للنور فكيف عسانا نلتقي سوى في خداع الظلال؟ وحده قلبي كان يدرك أن الظلام لم يكن يليق بروح كروحك، أنه لا يزال في الليل ضيّ.

فتشرق فوق شفتيّ ابتسامة تشبهك وأنا أعيد ضم رأسك لموطنه فوق صدري:

- لا تلومي الظلام، فقط خبئيه خلفك، وأشرقي.

تمت بحمد الله

مايو ٢٠٢٠

نرمين نحمد الله

***

ONE PIECE
BOOKS